

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : طلحة فهد غسان بن غلام محمد كلية : اللغة العربية قسم : الدراسات العليا العربية
الأطروحة مقدمة لئيل درجة : الماجستير في تخصص : البيدغوغيا والنقد
عنوان الأطروحة : ((...التقارن السيميائي في تفسير فتح المكيير بهرياس...)) لستركاني

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

لبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه ، والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٨ / ٨ / ١٤٢٧ هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المناقش الخارجي

المناقش الداخلي

المشرف

الاسم : د. شاكرا أبو زيد بصيا

الاسم : د. رفيع البصيمي

الاسم : د. بريد بن بريد رضا

التوقيع : [موقع]

التوقيع : [موقع]

التوقيع : [موقع]

يعتمد

رئيس قسم الدراسات العليا العربية

الاسم : أ. د. سليمان بن إبراهيم الصيم العايد

التوقيع : [موقع]

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فرع البلاغة والنقد



التناول البياني في تفسير فتح القدير للإمام الشوكاني

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة والنقد

إعداد الطالب

ظافر بن غرمان بن غارم بن محمد الحمري

إشراف

الأستاذ الدكتور عبد الحظيم بن إبراهيم المطعني

١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الأمين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :
فقد بدأت الرسالة بمقدمة أوجزت فيها نشأة علوم البلاغة وجهود أبرز علمائها الأوائل ، ثم ذكرت أسباب اختياري لهذا الموضوع فخطتي في البحث ، ثم عرفت بالإمام الشوكاني مولده وحياته العلمية ووفاته .

وجعلت مدخلا عرفت فيه علم البيان ثم تناولت الموضوع في أقسام أربعة :

القسم الأول : تحدثت فيه عن أربعة مباحث أولها مبحث طرقي التشبيه ويشمل الحسي والعقلي ، واستعرضت فيه تشبيه المعقول بالمحسوس فتشبيه المحسوس بالمعقول بالمعقول ، ثم التشبيه الوهمي . وتناولت فيه آراء الشوكاني حول الآيات المشتملة على الأقسام المذكورة عارضا إياها على آراء جهابذة العلم ومبيناً ما وافق فيه الشوكاني أو خالف غيره أو ابتدأه . ثم أتبعته بالتشبيه المفرد المقيد وموقف بعض الدارسين من التشبيه المقيد ، ثم تناولت التشبيه المركب وبسطت فيه الحديث على ضوء تناول المؤلف - رحمه الله - وقد علقت على بعض أقواله مستضيئاً بآراء سابقيه من لهم أثر واضح في كتابه وغيرهم ، ثم مبحث وجه الشبه في بعض الآيات وما كان منه حسياً وعقلياً ، أما المبحث الثالث : فكان لأدوات التشبيه ، وقد تحدثت فيه عن الأدوات وأقسامها ومعانيها وما يلاحظ على الأداة في التشبيه المركب وضمنت هذا المبحث حذف الأداة وتقسيم التشبيه تبعاً لوجودها أو عدمها إلى مؤكد ومرسل . وكان المبحث الرابع : عن أغراض التشبيه ، وقد استنبطت من كلام المؤلف أغراض التشبيه المتعددة وما يعود منها للمشبه وما يعود للمشبه به .

القسم الثاني : تحدثت فيه عن الحقيقة والمجاز ، وقد وقع هذا القسم في مبحثين رئيسين أولهما الحقيقة وقد عرضت فيه كلاً من الحقيقة اللغوية والعرفية والشرعية حسب عرض المؤلف لها . وثانيهما المجاز وله فرعان ، الأول المرسل وذكرت علاقاته التي استعرضها المؤلف ، والفرع الثاني هو الاستعارة ويدخل تحته كل من التصريحية وقد بسطت القول فيها على نهج المؤلف وذكرت الأصلية والتبعية والتشليل على سبيل الاستعارة وقسمته تبعاً للمؤلف إلى تمثيل ناقشت فيه الأقوال حول الآيات التي أفاد فيها الشوكاني من سابقيه ، وتلك التي قال فيها برأيه ، وإلى مثل وقد عرفته وذكرت رأي الشوكاني فيه مستتراً بأقوال كبار البلاغين والمفسرين حول الأمثال القرآنية . والاستعارة بالكناية وعرضت آراء العلماء في تعريفها ، ثم تناولت تقسيم الاستعارة بحسب الجامع .

القسم الثالث : تناولت فيه الكناية والتعريض واستنبطت من كلام الشوكاني أقسام الكناية الثلاثة ، والفرق بين الكناية والتعريض ثم عرضت أقواله في كل منهما مع توضيحها وتفصيل بعض مجملها .

القسم الرابع : تحدثت فيه عن تأثير الإمام الشوكاني بسابقيه وحصرت ذلك في تفسير الكشاف للزمخشري ، ومعاني القرآن للزجاج ، وتحدثت أيضاً عن منهج الشوكاني في تناوله البياني لأي القرآن الكريم .

بعد ذلك ختمت الرسالة بحاتمته ذيلتها بنتائج البحث وأهمها :

- أ - أن أظهر وجوه الإعجاز القرآني هو البلاغة .
 - ب - أن كثيراً من المصطلحات البيانية في حاجة إلى دراسة ومبحث .
 - ج - أن أمثال القرآن الكريم منهل يحتاج إلى بحث ودراسة خاصة .
- هذا وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

عميد كلية اللغة العربية

المشرف

الطالبي

صباح جوده

جمال بن غرمان العمري

الأستاذ الدكتور / حسن بن محمد باجودة

الدكتور / يوسف بن عبد الله الأنصاري

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، والصلاة والسلام على نبي الهدى وعلى آله وصحبه ومن بهديه اهتدى وبعد :

فإن للبلاغة العربية شأنًا عظيمًا ، ومقاماً كريماً ، حيث نشأت في ظل الدراسات الباحثة في إعجاز القرآن الكريم ، فنالت شرف الصلّة بكتاب الله ، ولقيت اهتمام العلماء الدارسين ، فقد عني بها المفسرون، والأصوليون، والفقهاء، والمحدثون، فضلاً عن علماء العربية المبرزين الذين لم يخل جهد أحد منهم من التعرض لغورها والتحلي بدررها، فكانت بذلك وليدة الحاجة ونتيجة الرغبة الملحة التي فرضتها العلوم الإسلامية في العصر الأول .

ولا شك أن البلاغة العربية - لعلو كعبها وسمو قدرها - لم تكن غرضاً مشاعاً تطرقه الأعين وتلوكه الألسن، فتقاصرت عنها همم الكثير ، ووقفت بهم عزائمهم دون أدنى منازلها، بل حدا ببعضهم الأمر إلى أن جعلها من فضول العلم، وحسبهم بهذا جهلاً ، وقد تعرض الشيخ عبدالقاهر لمثل هؤلاء^(١) فأصاب المحزّ وطبق المفصل.

إن الدارسين لعلوم العربية قد تفاوتت رؤاهم للجوانب البلاغية فيما تناولوه من بحث، وأدرك بعضهم مزية بعض الأساليب وتفرّد بعض التعبيرات بطابع خاص جعلهم يقيدون ذلك في مباحث لم تُعن عناية مباشرة بالبلاغة وعلومها^(٢).

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٦ .

(٢) لسيبويه في الكتاب ، والمبرد في الكامل، وابن جني في الخصائص ، بحوث بلاغية . وهذا على سبيل المثال لا الحصر .

فطلت علوم البلاغة بين دواوين المعرفة تتنازعها أقلام العلماء ، وفي ذلك تأكيد على ارتباطها الوثيق بسائر علوم العربية التي هي مفاتيح المعرفة .
ثم اجتمع شتاتها على يد الشيخ عبدالقاهر الجرجاني الذي أسس لنظريتي المعاني والبيان فأخذت البلاغة صورتها الواضحة ، وأصبحت علماً له مباحثه الخاصة وفنونه المستقلة .

لقد أسس عبدالقاهر للمباحث البلاغية في كتابيه « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » ، واختط لعلومها باباً من أبواب العلم، وشرع في الدفاع عنها، وبيان فضيلتها وعلو قدمها، وتقنيد الآراء الباطلة حول إعجاز القرآن ^(٣)، وجعل البلاغة أظهر وجوه الإعجاز مبيناً ذلك بالتحليل والتفصيل ، فأبرز دقائقها وأسرارها في أسلوب أدبي ومنهج علمي .

ثم اتخذت البلاغة مسلكاً آخر على يد السكاكي فنظم أبوابها، وصنف فروعها وأقسامها ، وجعل البديع كالتابع علمي المعاني والبيان، وذلك في كتابه المفتاح.

وتنبه الدارسون إلى ما في المفتاح من العقلانية والبعد عن الذوق والحس الأدبي الذي عرفت به دراسات الشيخ عبدالقاهر، وهذا - وإن ثبت - لا يسقط جهود السكاكي في تيسير البلاغة وتنظيمها .

وإن اعتماد الشيخ عبدالقاهر على الذوق في كثير من مباحثه البلاغية وإشاداته به وحته على أعماله ، مدعاة للدارسين إلى المفاضلة بين جهوده وجهود السكاكي، ومن هنا ظهرت المساوئ والمحاسن، على أن أبا يعقوب له الفضل في ضبط كثير من المسائل البلاغية التي استخلصها الشيخ عبدالقاهر من دراسته للنصوص .

(٣) انظر - مثلاً - دلائل الإعجاز ص ٣٨ .

وقد نالت البلاغة قبل السكاكي عناية خاصة، وذلك عند الزمخشري في تفسيره الكشاف ، ولقد كان البحث البلاغي في الكشاف محط اهتمام الدارسين ، ومقصد أوهامهم، فتعددت شروحه ومختصراته، وكثرت حواشيه، ومع ذلك فإننا نلمس في حواشي الكشاف أثراً واضحاً للمفتاح .

ولعل البلاغة التطبيقية التي اتسم بها الكشاف كانت مدعاة لكتب التفسير التي تلتها لتأخذ عنه كثيراً مما تناوله في هذا الشأن، وذلك لجودة عمله وضخامة الجهد الذي بذله الزمخشري في تحليل المسائل البلاغية، والتدقيق في إيضاح كنهها، وقد أفاد مما قدمه سلفه الشيخ عبد القاهر في أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، فكان تفسيره بالنسبة إلى كتابي عبد القاهر أشبه بتطبيق النظرية. برغم انفراد الزمخشري بشيء من آرائه التي تعد إضافات أثرت البحث البلاغي.

واستمر البحث البلاغي شديد الصلة بالتفسير حتى جاء الإمام الشوكاني ، فكان كتابه الموسوم بفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، أشبه بحصيلة الدراسات السابقة، وأقرب أن يكون منتقى جوامع الأقوال ، ومستخلصاً من عيون الآراء .

ويعتقد بعض الباحثين أن الشوكاني في تفسيره يحمل المعتقد الذي انتشر في مجتمعه، وعدّوا تفسيره من تفاسير الزيدية، وغلبوا ظنونهم على واقع هذا التفسير ، ويخلص بعضهم بعد الدراسة والتمحيص إلى أن تفسير الشوكاني لا يظهر الصورة الواضحة للتفسير عند الزيدية ، على أنه صنفه ضمن تفاسير الزيدية^(٤) ، والحق أن المذهبية لم تظهر في أي من كتب الشوكاني التي ألفها بعد مرحلة النضج، بل يظهر فيها علائم الاجتهاد ، ونتائج التي أفادها لسنين طويلة من البحث والتأليف ، وتفسيره هذا من أنفع كتبه وأجلّها .

(٤) انظر التفسير والمفسرون ٢/٢٨٥ وما بعدها .

ولقد توثقت صلتني بهذا الكتاب العظيم الذي يُعدُّ درّةً في بابه، فوقع في خلدي أن تكون رسالتي للماجستير منبثقة منه، فاستخرت الله وعزمت على ذلك، ثم حددتها بعنوان « التناول البياني في تفسير فتح القدير للإمام الشوكاني » . وأسباب اختياري لهذا الموضوع أمور عدة وهي :

- ١ - أن البلاغة القرآنية التي هي أهم مظاهر الإعجاز في كتاب الله الكريم ، معين لا ينضب ومنهل لا يجف ، وما زالت الدراسات قاصرة دون بلوغ منتهاها . وإن على طلبة العلم واجب النظر في كتاب الله وتأمل مكانم عظمته وأسباب إعجازه، لاسيما وقد كثرت الاتجاهات الأدبية واللغوية الحديثة التي لاتخدم البلاغة العربية بوجه ، بل هي إلى هدمها أقرب وإلى عدائها أنسب .
- ٢ - أن البحث البلاغي في كتب التفسير يتميز مع خصوصيته بالاعتدال ، لصلته الوثيقة بكتاب الله العزيز الذي يملأ النفوس هيبة وإجلالاً ، وهذا يحمل على الاتزان وسلامة البحث .
- ٣ - أن تفسير فتح القدير للشوكاني من الكتب التي اشتهرت بجمع الآراء ومناقشتها وتحليلها وأخذ الجيد منها وردّ الرديء ، وقد عُرف عن الشوكاني اجتهداه وسعة علمه وتبحره في مختلف الفنون فكان تفسيره حرياً بالدراسة والبحث ، وقد نصّ في مقدمته على ضرورة الأخذ بعلمي المعاني والبيان في تفسير كتاب الله.

أما خطتي في هذا البحث فكانت على النحو التالي :

- ١ - بعد اختياري للموضوع تصفحت تفسير فتح القدير واستقصيت الجوانب البيانية فيه وشرعت في دراستها، مع حرصي في ذلك على طريقة الشوكاني في تناوله ، وأسلوبه في العرض والتحليل ، واستعنت بأراء العلماء البارزين في هذا العلم .

٢ - صنفت الموضوعات وقسمتها حسب تقسيم علم البيان الذي تعرف عليه بين البيانيين .

٣ - عدت الآراء التي نقلها الشوكاني وسكت عنها آراءً له، مع حمل المجمل على المفصل أحياناً، والقليل على الكثير من آرائه.

٤ - تجنبت التكرار في المسائل المتشابهة إلا حينما تبرز المسألة فكرة جديدة أو عرضاً مغايراً لنظيرتها .

٥ - قدمت كل موضوع بياني بتعريف مقتضب تبعاً لأرجح الأقوال في ذلك وتجنبت الخلاف الذي لاطائل معه.

٦ - ذكرت آراء الشوكاني التي خالف فيها البيانيين، وجعلتها كالخاتمة لكل موضوع .

٧ - أثرت الإيجاز في كثير من القضايا حرصاً على طريقة المؤلف وابتعاداً عن تشعيب الآراء بما يخرج بالبحث عن صلب موضوعه المستمد من آراء المؤلف.

٨ - أوردت بعض المسائل في غير موضع تبعاً للحاجة إلى ذلك .

٩ - عزوت الآيات القرآنية إلى مواضعها من السور وما يتصل بها من كلام للمؤلف حولها ، وما يطلبه البحث من إحالات في حواشٍ تابعة لكل موضع .

١٠ - ألحقت بالبحث فهرساً للموضوعات وقائمة بالمصادر والمراجع .

وقد بدأت البحث بمقدمة أوضحت فيها أسباب اختياري للموضوع، وخطتي في تناول البحث ، ثم عرّفت بالإمام الشوكاني ، ثم وضعت مدخلاً مختصراً لعلم البيان ، وبعد ذلك قسمت البحث إلى أربعة أقسام .

القسم الأول : التشبيه .

المبحث الأول : طرفا التشبيه .

- الحسي والعقلي .
- المفرد والمقيد .
- المركب .

المبحث الثاني : وجه الشبه :

- المفرد والمركب .
- الحسي والعقلي .

المبحث الثالث : أدوات التشبيه :

- حذف الأداة .

المبحث الرابع : أغراض التشبيه .

القسم الثاني : الحقيقة والمجاز .

المبحث الأول : الحقيقة .

المبحث الثاني : المجاز اللغوي :

أولاً : المجاز المرسل .

ثانياً : الاستعارة .

(١) الاستعارة التصريحية .

(٢) التمثيل على سبيل الاستعارة .

(٣) الاستعارة المكنية .

القسم الثالث : الكناية والتعريض :

(١) الكناية .

(٢) التعريض .

القسم الرابع : أولاً : التأثر عند الإمام الشوكاني في فتح القدير .

ثانياً : منهج الإمام الشوكاني البياني .

ثم ختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها النتائج التي وصلت إليها .

شكر وتقدير

هذا وإنني لأتقدم بالشكر الجزيل بعد شكر الله لسعادة شيخي الكريم الأستاذ الدكتور عبدالعظيم بن إبراهيم المطعني الذي تفضل بالإشراف على هذه الرسالة، ومنحني من وقته وجهده الشيء الكثير، وما فتئ ينصحنني ويوجهني إلى كل ما هو مفيد ونافع، ولقد كان مثلاً فذاً للأستاذ المشرف، فجزاه الله عني خير الجزاء، وأسأل الله أن يحفظه وينفع به المسلمين حيثما كان .

كما أشكر سعادة رئيس قسم الدراسات العليا العربية الأستاذ الدكتور سليمان بن إبراهيم العايد على تعاونه معي ومع جميع زملائي، وعلى طيب خلقه وكرمه وحسن صنيعه فجزاه الله خيراً .

وأشكر جامعة أم القرى على ماتقدمه من عناية بالبحث العلمي، وما توفره من خدمات لطلابها . وفق الله القائمين عليها لكل خير.

ولا يفوتني أن أشكر سعادة أستاذي الدكتور/ يوسف بن عبدالله الأنصاري الذي تفضل بمواصلة الإشراف على رسالتي، ولقد أفدت منه كثيراً، ولم يضمن بشيء من وقته وجهده، فادعو الله أن يشكر سعيه ويجزيه خير الجزاء وأن يوفقه إلى كل خير وصلاح .

التحريف بالإمام الشوكاني

(١) اسمه ونسبه :

هو محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني ثم الصنعاني^(١) ، وقد ترجم الشوكاني لأبيه - رحمهما الله - فقال : « علي بن محمد بن عبدالله بن الحسن بن محمد بن صلاح بن إبراهيم بن محمد العفيف بن محمد بن رزق الله ، ينتهي إلى خيشنة بن زباد بن قاسم بن مرهبة الأكبر بن مالك بن ربيعة بن الدعام^(٢) . ثم يسوق نسبه إلى همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن النبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود ابن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام^(٣) .

(٢) مولده ونشأته :

ولد الشوكاني بهجرة شوكان، قال عنها صاحب القاموس : « حصن باليمن^(٤) ويشترك معها في الاسم مكان بالبحرين ، وثلاثة أماكن أخرى باليمن^(٥) . وهجرة شوكان التي ينتسب إليها عالمنا - رحمه الله - من أعظم حصون اليمن .

وكانت ولادته في يوم الإثنين الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ثلاثٍ وسبعين ومائة وألف للهجرة . ونشأ بصنعاء مع والده الذي اتخذها مقراً له بعد ولادة صاحب الترجمة .

(١) البدر الطالع ٢١٤/٢ .

(٢) المصدر السابق ٤٧٨/١ .

(٣) المصدر السابق ٤٧٨/١ .

(٤) القاموس المحيط ٤٥٢/٣ .

(٥) البدر الطالع ٤٨١/١ .

وقد نشأ في بيت عُرف بالعلم والصلاح ، وفي بيئة عُرفت بأهل الفضل ، فلم يخلُ زمان من وجود عالم من ذلك الوطن . وقد تولى أبوه تربيته وتعليمه ، وكان ينفق عليه في طلب العلم حتى لا يشتغل بغيره ، فتيسر لصاحب الترجمة سبل طلب العلم مع كفالة والده لشؤون معيشته^(٦) .

(٣) حياته العلمية :

أ - مرحلة التعلم :

بدأ الشوكاني - رحمه الله - حياته العلمية في سنٍ مبكرة، إذ حفظ القرآن على أيدي جماعة من القراء بصنعاء ، ثم أخذ يتلقى العلم الشرعي عن علماء ذلك البلد، حيث كانت صنعاء مليئة بالعلماء الذين ذاع صيتهم، وطبقت شهرتهم الآفاق. واشتغل الشوكاني - رحمه الله - بطلب العلم في شتى مجالاته الشرعية والعربية وغيرها .

ففي المجال الشرعي قرأ على جمع من العلماء ، في الفقه والعقيدة والحديث والتفسير والأصول ، من ذلك قراءته وحفظه لكتاب الأزهار ، كما قرأ مختصر الفرائض للعصيفري وشرح الأزهار وحواشيه ، وفي الحديث قرأ الصحيحين وسنن الترمذي وموطأ مالك وبعض شفاء القاضي عياض وبعض جامع الأصول، وبعض سنن النسائي وابن ماجة، وسمع جميع سنن أبي داود وتخريجها للمنذري وبعض معالم السنن للخطابي ، وبعض المنتقى لابن تيمية^(٧) ، وبعض فتح الباري لابن حجر، وبعض شرح مسلم للنووي ، وبعض شرح العمدة والتنقيح في علوم الحديث، والنخبة وشرحها، وبعض ألفية العراقي وشرحها .

وفي مجال العربية وعلومها، قرأ في النحو الملحة وشرحها، والكافية والشافية

(٦) انظر البدر الطالع ١/٤٧٨، ٢/٢١٤ و٢١٥.

(٧) شرحه في كتاب سماه نيل الأوطار.

لابن الحاجب، والتهذيب للسعد التفتازاني، والتلخيص للخطيب، ومنظومة الجراز في العروض وآداب البحث للعضد، وشرح التلخيص للسعد وحاشيته للطف الله الغياث، والشرح المطول للسعد التفتازاني وحاشيته للشلبي والشريف، وشرح جمع الجوامع، وقرأ الكشف وحاشيته للسعد، وكذا حاشيته للسراج، وصحاح الجوهرى وبعض القاموس، وفلك القاموس سمعه على مؤلفه العلامة عبدالقادر بن أحمد^(٨).

وقد ذكر الشوكاني كثيراً من مسموعاته فضلنا الاختصار على ما ذكر هنا، ولا مجال لحصر ماقرأه على شيوخه فهو كثير جداً لم يحصره هو بنفسه عند ترجمته في البدر الطالع.

ب - مرحلة التعليم :

بعد أن قرأ الشوكاني على شيوخه ونبغ من بين أترابه وأقرانه، قام بتدريس عددٍ من الكتب التي تقدم ذكرها، فإذا فرغ من قراءة كتاب على شيوخه أخذه عنه تلاميذه، بل ربما اجتمعوا على الأخذ عنه قبل أن يفرغ من قراءة كتابه على شيوخه وكانت تبلغ دروسه في اليوم واللييلة إلى نحو ثلاثة عشر درساً منها ما يأخذه عن شيوخه ومنها ما يأخذه عنه تلاميذه^(٩). ولا عجب في ذلك فقد كان - رحمه الله - حادّ الذكاء، قوي الحفظ، سريع الفهم، متوقد الهمّة، فاق أقرانه وكان فرطهم، بل إن بعض الذين أخذ عنهم عادوا ليأخذوا عنه، ومنهم والده، فقد قرأ على والده في صغره شرح الأزهار وشرح الناظري، وفي آخر أيامه قرأ على صاحب الترجمة في صحيح البخاري^(١٠).

(٨) البدر الطالع ٢/٢١٥ وما بعدها.

(٩) المصدر السابق ٢/٢١٥.

(١٠) البدر الطالع ١/٤٨٤.

وبعد أن استوفى صاحب الترجمة ما عند شيوخه « فرغ نفسه لإفادة الطلبة فكانوا يأخذون عنه في كل يوم زيادة على عشرة دروس في فنون متعددة، واجتمع منها في بعض الأوقات التفسير والحديث والأصول والنحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق، والفقه والجدل والعروض» (١١) .

ج - مصنفاته :

لقد كان الشوكاني متفرداً في علمه وعمله، قليل الشبه بين أهل عصره وغيرهم، فقد بدأ حياته العلمية مبكراً، وقام بالتدريس وهو ما يزال يأخذ عن شيوخه وصنف وهو في مرحلة مبكرة من شبابه، وماذا إلا لفرط ذكائه، ورجاحة عقله، حيث بلغت مصنفاته أكثر من أربعة عشر ومائة مصنف (١٢)، ولعلها أكثر من هذا العدد الذي ذكره القنوجي ، فقد ظهرت له رسائل وكتب لم تُعرف من قبل . وقد ذكر القنوجي بعض أسماء مصنفاته ، وأورد له بعض تلاميذه مصنفات لم يذكرها عند ترجمته لنفسه في «البدر الطالع» . ثم قام أحد الدارسين المعاصرين باستقصاء مصنفاته من كتب ورسائل مطبوعة ومخطوطة (١٣) .

أما كتبه المطبوعة فهي :

- ١ - إبطال دعوى الاجماع على مطلق السماع .
- ٢ - أدب الطلب ومنتهى الأرب .
- ٣ - إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر .
- ٤ - إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات .
- ٥ - إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول .
- ٦ - إرشاد السائل إلى دليل المسائل .

(١١) المصدر السابق ٢/٢١٩ .

(١٢) أبجد العلوم ٣/٢٠١ .

(١٣) انظر الإمام الشوكاني مفسراً ٨٢ .

- ٧ - إشكال السائل إلى تفسير (والقمر قدرناه منازل) .
- ٨ - الإعلام بالمشائخ الأعلام والتلامذة الكرام « معجم لشيوخه » .
- ٩ - الإيضاح لمعنى التوبة والإصلاح .
- ١٠ - بحث في وجوب محبة الله .
- ١١ - بحث في الاستدلال على كرامات الأولياء .
- ١٢ - بحث في أن إجابة الدعاء لا ينافي سبق القضاء .
- ١٣ - بحث في الكلام على أمناء الشريعة .
- ١٤ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع .
- ١٥ - تحفة الذاكرين في شرح (عدة الحصن الحصين) .
- ١٦ - التحف في مذاهب السلف .
- ١٧ - تنبيه الأفاضل على ماورد من زيادة العمرونقصه من الدلائل .
- ١٨ - تنبيه الأعلام على تفسير المشتبهات بين الحلال والحرام .
- ١٩ - جواب سؤال يتعلق بما ورد في الخضر عليه السلام .
- ٢٠ - جواب السائل عن تفسير تقدير القمر منازل .
- ٢١ - جواب سؤال عن الصبر والحلم .
- ٢٢ - جواب عن سؤال كيف أن الفاء في قوله تعالى ﴿ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ﴾ واقعة في موقع الدليل .
- ٢٣ - جواب سؤال عن نكتة التكرار في قوله تعالى ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين * وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ .
- ٢٤ - الدراري المضيئة في شرح الدرر البهية .
- ٢٥ - (الدرر البهية) متن الدراري المضيئة .
- ٢٦ - الدرّ النضيد في إخلاص كلمة التوحيد .
- ٢٧ - الدواء العاجل في دفع العدو الصائل .

- ٢٨ - رفع الريبة فيما يجوز ، وما لايجوز من الغيبة .
 ٢٩ - السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار .
 ٣٠ - شرح الصدور في تحريم رفع القبور .
 ٣١ - العقد الثمين في إثبات وصاية أمير المؤمنين .
 ٣٢ - عقود الزبرجد في جيد علامة ضمد .
 ٣٣ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير .
 ٣٤ - الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة .
 ٣٥ - قطر الولي على حديث الولي .
 ٣٦ - القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد .
 ٣٧ - المسك الفائح في حط الجوائح .
 ٣٨ - نزل من اتقى بكشف أحوال المنتقى مختصر من نيل الأوطار .
 ٣٩ - نيل الأوطار (شرح منتقى الأخبار) (١٤) .
 وأما المخطوطة فهي تربو على مائة وثمانين كتاباً ورسالة .

د - اهتمامه وعنايته بالبلاغة وعلومها :

لقد عُني الشوكاني بالبلاغة منذ بداية طلبه للعلم إذ أخذ عن شيوخه ، وقرأ عليهم كثيراً من كتب هذا الفن ، وعلى رأسها المطول للسعد والتلخيص للخطيب ومختصره للسعد وحاشيته للغياث ، واعتنى بدراسته للمطول فلم يكتف بدراسته على واحدٍ من شيوخه بل درسه على عدد منهم مرات كثيرة ، ثم اتجه إلى حواشي المطول وأخصها حاشيتا الشلبي والسيد الشريف ، ثم كان من عنايته بالبلاغة أن قرأ الكشف مع حواشيه التي غلب عليها الطابع البلاغي، وأهمها حاشية السعد وحاشية السراج وقد راجعها مراتٍ عديدة على بعض شيوخه ، إلى غير ذلك من كتب البلاغة التي درجت في اليمن .

(١٤) الإمام الشوكاني مفسراً ٩٦/١ .

ولما استند ساعده في هذا المجال جلس لتدريس علمي المعاني والبيان مع
تدريسه لسائر علوم العربية دون استثناء .

وقد كان - رحمه الله - يولي علمي البيان والمعاني اهتماماً كبيراً، لعلمه
بمنزلتهما في إدراك خفايا وأسرار العربية، ومكانتها في بيان وجوه الإعجاز في
القرآن الكريم، فهو يشير في مقدمة تفسيره إلى وجوب الأخذ في تفسير القرآن بما
يستفاد من العلوم التي تبين بها دقائق العربية وأسرارها كعلم المعاني والبيان، فإن
التفسير بذلك هو تفسير باللغة، لا تفسير بمحض الرأي المنهي عنه^(١٥) .

وفي تناوله لكثير من الآيات القرآنية يتضح جلياً اهتمامه بالبلاغة وتحريه
لمواطنها، وإشادته بما تحويه تلك الآيات من إعجاز في نظمها وأسلوبها ، وتعبيرها
عن الغرض في أحسن الصور وأدقها وأبلغها .

هـ - شيوخه :

أشرنا فيما سبق إلى أن الشوكاني نشأ في مدينة صنعاء التي كانت تضج
آنذاك بالعلماء في مختلف أبواب العلم وفنونه . وكان يتنقل بين هؤلاء العلماء ليأخذ
عنهم ، ما أسعفه وقته وأمكنه جهده، وقد كثر الذين أخذ عنهم في المجال الشرعي
وغيره ممن لازمهم حتى استوفى مألديهم من علوم.

فأما في علوم العربية ، فقد أخذها عن سبعة من شيوخه وهم :

- ١ - العلامة القاسم بن يحيى الخولاني (١١٦٢ - ١٢٠٩ هـ) (١٦) .
- ٢ - العلامة عبدالله بن إسماعيل النهدي (١١٥٠ - ١٢٢٨ هـ) (١٧) .
- ٣ - العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي (١١٤٠ - ١٢٠٨ هـ) (١٨) .

(١٥) ينظر مقدمة فتح القدير للمؤلف .

(١٦) ترجمته في البدر الطالع ٥٣/٢ .

(١٧) ترجمته في البدر الطالع ٣٧٩/١ .

(١٨) ترجمته في البدر الطالع ١٩٥/١ .

- ٤ - العلامة إسماعيل بن الحسن بن أحمد بن الحسن (١١٢٠ - ١٢٠٦هـ) (١٩) .
 - ٥ - العلامة علي بن هادي عرهب (١١٦٤ - ١٢٣٦هـ) (٢٠) .
 - ٦ - الإمام عبدالقادر بن أحمد بن عبدالقادر بن الناصر (١١٣٥ - ١٢٠٧هـ) (٢١) .
 - ٧ - العلامة هادي بن حسين القارني ثم الصنعاني (١١٦٤ - ١٢٣٧هـ) (٢٢) .
- وأما شيوخه في سائر العلوم فعددهم عشرة وهم :
- ١ - والده علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني (١١٣٠ - ١٢١١هـ) (٢٣) .
 - ٢ - العلامة السيد عبدالرحمن بن قاسم المداني (١١٢١ - ١٢١١هـ) (٢٤) .
 - ٣ - العلامة أحمد بن عامر الحدائي (١١٢٧ - ١١٩٧هـ) (٢٥) .
 - ٤ - القاضي عبدالرحمن بن حسن الأكوع (١١٣٥ - ١٢٠٦هـ) (٢٦) .
 - ٥ - السيد يوسف بن محمد بن علاء الدين المزجاجي (١١٤٠ - ١٢١٣هـ) (٢٧) .
 - ٦ - السيد علي بن إبراهيم بن علي (١١٤٣ - ١٢٠٧هـ) (٢٨) .
 - ٧ - السيد الحسين بن يوسف زبارة (١١٥٠ - ١٢٣١هـ) (٢٩) .
 - ٨ - العلامة أحمد بن محمد بن أحمد القابلي الحرازي (١١٥٨ - ١٢٢٧هـ) (٣٠) .
 - ٩ - السيد يحيى بن محمد الحوثي (١١٦٠ - ١٢٤٧هـ) (٣١) .
 - ١٠ - عبدالله بن الحسن بن علي (١١٦٥ - ١٢١٠هـ) (٣٢) .

-
- | | |
|-------------------------------------|-------------------------------------|
| (١٩) ترجمته في البدر الطالع ١/١٤٥ . | (٢٠) ترجمته في البدر الطالع ١/٤٩٩ . |
| (٢١) ترجمته في البدر الطالع ١/٣٦٠ . | (٢٢) ترجمته في البدر الطالع ٢/٣١٩ . |
| (٢٣) ترجمته في البدر الطالع ١/٤٧٨ . | (٢٤) ترجمته في البدر الطالع ١/٣٣٦ . |
| والتاج المكلل ٤٤٨ . | (٢٦) ترجمته في البدر الطالع ١/٣٣٥ . |
| (٢٥) ترجمته في البدر الطالع ١/٦٢ . | (٢٨) ترجمته في البدر الطالع ١/٤١٦ . |
| (٢٧) ترجمته في البدر الطالع ٢/٣٥٦ . | (٣٠) ترجمته في البدر الطالع ١/٩٦ . |
| والتاج المكلل ٥٠٨ . | (٣١) ترجمته في البدر الطالع ٢/٣٤٤ . |
| (٢٩) ترجمته في البدر الطالع ١/٢٣٧ . | (٣٢) ترجمته في البدر الطالع ١/٣٨٠ . |

و - تلاميذه :

لقد كان من أمر الشوكاني أن تولى التدريس وهو ما يزال يأخذ عن شيوخه
وحيثما استوفى مآلديهم تفرغ للتعليم وكثرت حلق دروسه وكثر تلاميذه، وقد ترجم
لأكثرهم وأشهرهم في كتابه البدر الطالع مثلما ترجم لشيوخه وغيرهم من أهل
الفضل والعلم الذين عاصروه أو سبقوه. وتلاميذه كثيرون لامجال لحصرهم
وسوف نذكر أشهرهم :

- ١ - محمد بن أحمد السوداني (١١٧٨-١٢٣٦هـ) (٣٣) .
- ٢ - محمد بن أحمد مشحم الصعدي (١١٦٠-١٢٢٣هـ) (٣٤) .
- ٣ - السيد أحمد بن علي بن محسن بن الإمام المتوكل (١١٥٠-١٢٢٣هـ) (٣٥) .
- ٤ - عبدالرحمن بن أحمد البهكلي الضمدي (١١٨٠-١٢٢٧هـ) (٣٦) .
- ٥ - عبدالله بن محسن الحيمي ثم الصنعاني (١١٧٠ - ... هـ) (٣٧) .
- ٦ - القاضي محمد بن حسن الشجني الهماري (١٢٠٠-١٢٨٦هـ) (٣٨) .
- ٧ - ابنه علي بن محمد الشوكاني (١٢١٧-١٢٥٠هـ) (٣٩) .
- ٨ - ابنه يحيى بن محمد الشوكاني (١١٩٠-١٢٦٧هـ) (٤٠) .
- ٩ - لطف الله بن أحمد جحّاف (١١٨٩-١٢٤٣هـ) (٤١) .

وقد ذكر صاحب رسالة «منهج الشوكاني في العقيدة» أن السيد محمد بن
محمد بن زبارة من تلاميذ الشوكاني، ولم يثبت ذلك فيما بين أيدينا من مصادر

-
- | | |
|---------------------------|----------------------------|
| (٣٣) البدر الطالع ١٠٣/٢ . | (٣٤) المصدر السابق ١١٦/٢ . |
| (٣٥) البدر الطالع ٨٢/١ . | (٣٦) البدر الطالع ٣١٩/١ . |
| (٣٧) البدر الطالع ٣٩٥/١ . | (٣٨) البدر الطالع ١٠٣/٢ . |
| (٣٩) البدر الطالع ١٦٢/٢ . | (٤٠) البدر الطالع ٢٣٨/٢ . |
| (٤١) البدر الطالع ٦٠/٢ . | |

وأهمها البدر الطالع^(٤٢) . ومثله ما ذكره صاحب « الشوكاني مفسراً » إذ جعل العلامة أحمد بن عبدالرحمن الضمدي من تلاميذ الشوكاني ولم يأخذ عن الشوكاني إنما أخذ عن شيوخه^(٤٣) ، وقد كان العلامة صديق بن حسن خان يذكر الشوكاني بقوله: « شيخنا » ولم يدرس عليه أو يأخذ عنه لوفاة الشوكاني قبل مولد صديق بن حسن خان بعامين وإنما تتلمذ على كتبه .

(٤) عقيدته ومذهبه الفقهي :

يُعد الشوكاني من العلماء المجتهدين الراسخين في العلم، نبذ التقليد وحاربه وحمل على أهله، برغم أنه نشأ في مجتمع غلب عليه المذهب الزيدي والتشيع لآل البيت، ولكنه حمل لواء العقيدة السلفية واجتهد في إثباتها بالأدلة الشرعية، ولا غرو أن يجد من المعارضين والمناوئين لمنهجه من يحاربه ويعاديه ويتهمه بعدائه لأهل البيت ، مما دعاه إلى تأليف كتاب في مناقب الصحابة والقراية، على أنه قد ذم أولئك المغالين في علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

يقول منتقداً أهل التشيع المغالين في علي رضي الله عنه «ثم أفرطوا في التشيع وغالوا في حب علي وبغض كثير من الصحابة، واشتغل الناس بفضائل علي ونشرها، وبالغوا في ذلك حتى وضع لهم علماء السوء أكاذيب مفتراة، وقد جعل الله ذلك الإمام في غنى بما ورد في فضائله»^(٤٤) .

وقد كانت عقيدته هي عقيدة السلف من أهل السنة والجماعة، وألف في ذلك رسائل عديدة وبين عقيدته في كتبه المختلفة، ويخلص أحد الباحثين المعاصرين إلى أنه بعد البحث والدراسة لكتب الشوكاني ورسائله «تبين له أنه موافق لأهل السنة

(٤٢) بين وفاة الشوكاني ووفاة زبارة أكثر من ١٣٠ عاماً .

(٤٣) البدر الطالع ٧٦/١ وانظر الشوكاني مفسراً ص ٧٥ .

(٤٤) أدب الطلب ومنتهى الأرب ٦١ .

في عقيدته برغم شيء من الاختلاف الذي لا يذكر بين بعض آرائه من كتاب
لآخر (٤٥) .

أما مذهبه الفقهي فقد « تفقه رحمه الله على مذهب الزيدية ، إلا أنه لم يلبث
أن تخلّى عن التقليد والتمذهب ، وأصبح لا يتقيد بفرقة من الفرق أو مذهب من
المذاهب، بل اعتمد اعتماداً مباشراً على الكتاب والسنة ، وأصبح من المجتهدين
في البحث عن الحكم الشرعي » (٤٦) وألف الكتب التي بناها على الدليل مثل نيل
الأوطار والدراري المضية والسييل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار وهو كتاب
عظيم المنفعة اشتمل على تقرير مادل عليه الدليل في كتاب « الأزهار »، ودفع
ما خالفه ، ثم كان رحمه الله تصله الرسائل للاستفتاء من شتى أقطار البلاد
الإسلامية وكان يجيب عليها وجمع بعضها في كتب سارت بين أهل العلم، وظل
- رحمه الله - على هذا حتى أتاه اليقين .

(٥) وفاته :

توفي الشوكاني - رحمه الله - في جمادى الآخرة سنة خمسین ومائتين
وألف للهجرة ودفن بمقبرة خزيمة بصنعاء، وكان قد احتسب ابنه علياً قبل موته
بشهر واحد، وقد خلف رحمه الله تراثاً عظيماً عني به الدارسون، وأفاد منه
المسلمون في أقطار العالم الإسلامي، وحمل بعض تلاميذه أمانة نشر تراثه، وقد
ألف تلميذه محمد بن حسن الذماري كتاباً سماه «التقصار في جيد عالم الأقاليم
والأمصار» ترجم له فيه ، وتناول سيرته الطيبة وما اشتملت عليه من
نخائر الأعمال .

(٤٥) ينظر منهج الشوكاني في العقيدة ص ٨٥٥ .

(٤٦) المصدر السابق ص ٨٥٤ .

(٦) كتب ورسائل عنيت به :

لقد حظي الشوكاني - رحمه الله - بعناية من الدارسين الذين جاءوا بعده من تلاميذه وغيرهم، وحظيت كتبه ورسائله بالقبول لدى خاصة المسلمين وعامتهم، فألفت كتب في ترجمته وفي عقيدته، وتناول الدارسون جهوده بالبحث . ومن ذلك:

١ - كتاب : التقصار في جيد عالم الأقاليم والأمصار لمحمد بن حسن الذماري، وقد قصر كتابه على ترجمة الإمام الشوكاني (٤٧) .

٢ - رسالة دكتوراه بعنوان : الشوكاني المفسر الباحث إبراهيم توفيق الديب ١٩٧٧م (٤٨) .

٣ - الإمام الشوكاني مفسراً الباحث محمد حسن الغماري، رسالة دكتوراه ١٤٠٠هـ (٤٨) .

٤ - القراءات في تفسير الشوكاني فتح القدير الباحث أحمد بن عبدالله المقرئ، وهي رسالة ماجستير بالجامعة الإسلامية، ١٤٠٤هـ (٤٨) .

٥ - الإمام الشوكاني حياته وفكره ، الباحث عبدالغني قاسم الشرجي . رسالة دكتوراه بجامعة صنعاء ١٤٠٨هـ (٤٨) .

٦ - الإمام الشوكاني وآراؤه الاعتقادية في الإلهيات بين السلف والزيدية للباحث سعيد إبراهيم سيد أحمد ، رسالة ماجستير ، ١٤٠٦هـ .

٧ - منهج الإمام الشوكاني في العقيدة ، رسالة دكتوراه ، الباحث عبدالله نومسوك ، ١٤١٢هـ .

وقد ترجم له كثير من الدارسين ، ومنهم تلميذه لطف الله بن أحمد جحّاف في كتابه درر الحور العين، ومحمد محمد زبارة في «نيل الوطر»، وعمر كحالة في

(٤٧) التاج المكلل ص ٤٥٤ .

(٤٨) منهج الإمام الشوكاني في العقيدة ص ١٣ ، ١٤ .

«معجم المؤلفين»، والجندار أحمد عبدالله في «التبريز في تراجم العلماء ذوي التمييز»، وحسن بن أحمد عاكش في الديباج الخسرواني، ومحمد بن أحمد البجلي في «طبقات فقهاء اليمن»، والسيد يحيى بن الحسين بن القاسم في «الزهر في أعيان العصر»^(٤٩)، وصديق بن حسن خان في كتابيه أبجد العلوم والتاج المكلل.

(٤٩) الشوكاني مفسراً ص ٥٨ .

مدخل

يُعرفُ البلاغيون علم البيان بأنه : علم يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه^(١) .

وقد يطلق اسم « البيان » على علوم البلاغة الثلاثة ، وذلك إما لمنزلة علم البيان بينها ، وإما من باب تسمية الشيء ببعضه ، وإما بالنظر إلى المعنى اللغوي لكلمة « بيان » .

ويختص علم البيان بثلاثة فنون هي : التشبيه والمجاز والكناية ، والبيانين تقسيمات لكل فنٍ من هذه الثلاثة . حيث اتضحت ملامح هذا العلم على يد الشيخ عبدالقاهر ، ثم أصبحت أكثر وضوحاً عند الزمخشري ثم السكاكي ومدرسته .

ولا شك أن الاهتمام بالصورة البيانية في القرآن الكريم سبقت جهود هؤلاء جميعاً ، وذلك عند المفسرين على وجه الخصوص ثم علماء اللغة وغيرهم .

ويظهر أثر مدرسة المفتاح - من حيث تقسيم هذا العلم وتصنيفه - في كتب التفسير التي تلتها ، والإمام الشوكاني يتقيل سابقه عند تناوله للجوانب البلاغية في كتاب الله .

وسوف تكون دراستي - بإذن الله - لما تناوله الشوكاني من مباحث علم البيان ، وفق منهج البيانين في ترتيب أبواب هذا العلم ، مستضيئاً بآراء جهابذتهم ، وباجتهاد مني ، سائلاً الله التوفيق والسداد .

(١) الإيضاح ٢٢٦ .

القسم الأول التشبيه

- المبحث الأول : طرفا التشبيه .
- المبحث الثاني : وجه الشبه .
- المبحث الثالث : أدوات التشبيه .
- المبحث الرابع : التشبيه .

القسم الأول

التشبيه

التشبيه : هو عبارة تدل على مشاركة أمر لآخر في معنى من المعاني بإحدى أدوات التشبيه لفظاً أو تقديرًا .

المبحث الأول : طرفا التشبيه

للتشبيه طرفان هما ركناه الأساسيان وعليهما يقوم، وهما المشبه والمشبّه به، ووجودهما في الكلام لفظاً أو تقديرًا هو الفارق بين التشبيه والاستعارة.

وطرفا التشبيه يتفقان في بعض صفاتهما لا في جميعها، إذ لو كانا كذلك، لكان المشبه عين المشبه به، وعندئذٍ يمتنع التشبيه. قال السكاكي: «التشبيه مستدعٍ طرفين، مشبهاً ومشبهاً به واشتراكاً بينهما من وجه وافتراقاً من آخر مثل أن يشتركا في الحقيقة ويختلفا في الصفة^(١) أو بالعكس^(٢)... ويقول: «إن ارتفاع الاختلاف من جميع الوجوه حتى التعيين يأبى التعدد فيبطل التشبيه، لأن تشبيه الشيء لا يكون إلا وصفاً له بمشاركته المشبه في أمر، والشيء لا يشبه بنفسه»^(٣).

والشوكاني يشير إلى طرفي التشبيه حينما تقترب بعض صفاتهما من بعض، فيكون المشبه - كما يخیل للرأي - عين المشبه به، غير أن حقيقة كلٍ من الطرفين مختلفة عن الأخرى.

يقول عند قوله تعالى: ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾^(٤) المراد أنه شبيهه ونظيره، لا أنه هو، لأن ذات الحاضر لا تكون عين الغائب لاختلافهما، وذلك أن اللون يشبه اللون وإن كان الحجم والطعم والرائحة والماوية متخالفة^(٥).

(١) مثل : زيد كأبيه، حيث اتفقت حقيقتاهما في كون كل منهما إنسانا واختلفت صفاتهما.

(٢) مثل: محمد كالأسد، اتفقت فيهما صفة الشجاعة واختلفت حقيقة كل منهما عن الأخرى.

(٣) مفتاح العلوم ١٧٥ .

(٤) البقرة ٢٥ .

(٥) فتح القدير ٦٥/١ .

فالتشبيه هنا متقرر لكون المشبه الحاضر مختلف الذات عن المشبه به الغائب، ولا يمكن أن يجتمعا في ذات واحدة.

أما الصفة التي تجمع بين الطرفين وهي وجه الشبه، فإنها في المشبه به أقوى منها في المشبه.

وإلى هذا يشير الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٦) إذ يقول: «تشبيه عيسى بآدم في كونه مخلوقاً من غير أب كآدم، ولا يقدح في التشبيه اشتغال المشبه به على زيادة وهو كونه لا أم له: كما أنه لا أب له. فذلك أمر خارج عن الأمر المراد بالتشبيه، وإن كان المشبه به أشد غرابة من المشبه، وأعظم عجباً، وأغرب أسلوباً»^(٧).

والحقيقة أن وجه الشبه في الآية الكريمة أعمق مما ذكره الشوكاني، وهو إيجاد كل منهما بأسباب غير التي أوجد بها غيرهما من الناس، وهي في آدم أقوى منها في عيسى لكون عيسى أوجد ببعضها وهي الأم، أما آدم فقد أوجد بدون تلك الأسباب وهي الأب والأم معاً.

وكأن الشوكاني يشير إلى هذا بقوله: «وإن كان المشبه به أشد غرابة من المشبه وأعظم عجباً، وأغرب أسلوباً».

وإذا تساوى الطرفان في الوجه ولم يفضل أحدهما الآخر كان الكلام تشابهاً لا تشبيهاً. قال الخطيب: «فإن أريد مجرد الجمع بين شيئين في أمر، فالأحسن ترك التشبيه إلى الحكم بالتشابه، ليكون كل واحد من الطرفين مشبهاً ومشبهاً به، احترازاً من ترجيح أحد المتساويين على الآخر»^(٨).

وقد أشار الشوكاني إلى التشابه مبيناً وجه الشبه الذي يستوي فيه كل من الطرفين المتشابهين.

(٦) آل عمران ٥٩ .

(٧) فتح القدير ١/٣٩٧ .

(٨) الإيضاح ٣٦٣ .

ويقول في تساوي الطرفين في الوجه ، عند قوله تعالى: ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴾ (٩) :

«بعضهم من بعض أي : متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف» (١٠) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ (١١): «(متشابهاً) صفة لـ(كتاباً) ، أي: يشبه بعضه بعضاً في الحسن والإحكام وصحة المعاني، وقوة المباني، وبلوغه إلى أعلى الدرجات» (١٢) .

وعند قوله تعالى: ﴿ وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ﴾ (١٣) يقول الشوكاني: «أي كل واحد منهما يشبه بعضه بعضاً في بعض صفاته ولا يشبه بعضه بعضاً في البعض الآخر، وقيل: إن أحدهما يشبه الآخر في الورق باعتبار اشتماله على جميع الغصن وباعتبار حجمه، ولا يشبه أحدهما الآخر في الطعم» (١٤) .

وقد كان الأولى أن يشير الشوكاني إلى التشابه في الآيتين الأخيرتين بلفظ يشابه بدلاً من يشبه، وإن كان لا بأس بما ذكره فإنه قد يفسر التشابه بالتشبيه، قال الشهاب حول آية الزمر: «أي يشبه بعضه بعضاً في وجوه الإعجاز وغيره» (١٥) إذ استخدم هنا لفظ التشبيه في تفسير التشابه.

وسوف نتعرض في هذا المبحث لطرفي من حيث كونهما حسيين أو عقليين ومن حيث إفرادهما وتركيبهما.

(٩) الزمر ٢٣ .

(١٠) فتح القدير ٥٢٦/٤ .

(١١) الأنعام ٩٩ .

(١٢) فتح القدير ١٦٥/٢ .

(١٣) براءة ٦٧ .

(١٤) فتح القدير ٤٣٢/٢ .

(١٥) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٢٣٦/٧ .

١ - الحسي والحقلي

تشبيه المعقول بالمحسوس :

من أقسام التشبيه بحسب طرفيه تشبيه المعقول بالمحسوس، والمعقول هو ما لا تقع عليه الحواس الخمس للإنسان أما المحسوس فهو ما يدرك هو أو مادته بإحداها، ولما كانت طبيعة الإنسان تميل إلى ما يدرك بالحاسة وتستسيغه ويسهل عليها تناوله، كان تشبيه الأمور العقلية بما تقع عليه هذه الحواس أدنى إلى البيان، وأقرب إلى الأذهان.

وقد تناول الشوكاني هذا الضرب من التشبيه مبيناً لأجزائه ومتتبعاً لدقائقه إذ يقول عند قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴿^(١) : « (مثل نوره) مبتدأ . وخبره (كمشكاة) أي : صفة نوره الفائض عنه ، الظاهر على الأشياء كمشكاة ، والمشكاة : الكوة في الحائط غير النافذة . ووجه تخصيص المشكاة أنها أجمع للضوء الذي يكون فيه ، من مصباح أو غيره . ثم قال : (فيها مصباح) وهو السراج . (المصباح في زجاجة) قال الزجاج : النور في الزجاج وضوء النار أبين منه في كل شيء ، وضوؤه يزيد في الزجاج . ثم وصف الزجاج فقال : (الزجاج كأنها كوكب دري) أي : منسوب إلى الدر

(١) النور ٣٥ .

لكون فيه من الصفاء والحسن ما يشبه الدر، ثم وصف المصباح بقوله: (يوقد من شجرة مباركة) أي: يوقد من زيت شجرة مباركة، ثم وصف الزيتون بوصف آخر فقال: (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) والمعنى: أن هذا الزيت في صفائه وإنارته يكاد يضيء بنفسه من غير أن تمسه النار أصلاً. (يهدي الله لنوره من يشاء) من عباده: أي هداية خاصة موصلة إلى المطلوب، وليس المراد بالهداية هنا مجرد الدلالة. (ويضرب الله الأمثال للناس) أي: يبين الأشياء بأشباهاها ونظائرها تقريباً لها إلى الأفهام وتسهيلاً لإدراكها، لأن إبراز المعقول في هيئة المحسوس وتصويره بصورته يزيده وضوحاً وبياناً. (والله بكل شيء عليم) لا يغييب عنه شيء من الأشياء معقولاً كان أو محسوساً، ظاهراً أو باطناً^(٢). وينظر الشوكاني هنا إلى أن النور (المشبه) هو نور الإيمان الذي أنار الله به قلب المؤمن وإليه يهدي من يشاء.

وعند قوله تعالى: ﴿والذين كفروا بربهم أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض﴾^(٣). يشير الشوكاني - ناقلًا عن بعض أهل العلم - إلى كون المشبه بهما في الآيتين حسيين يدركان بالبصر، أما المشبه فهو عقلي.

«قال الزجاج: أعلم الله سبحانه أن أعمال الكفار إن مثلت بما يوجد فمثلها كمثل السراب، وإن مثلت بما يرى فهي كهذه الظلمات التي وصف، قال أيضاً: إن

(٢) فتح القدير ٢٨/٤ و ٣٩ و ٤٠ .

(٣) النور ٣٩ و ٤٠ .

شئت مثل بالسراب، وإن شئت مثل بهذه الظلمات، فأو للإباحة قال الجرجاني:
الآية الأولى: في ذكر أعمال الكفار، والثانية: في ذكر كفرهم، ونسق الكفر على
أعمالهم لأنه أيضاً من أعمالهم»^(٤).

والملاحظ هنا أن أعمالهم يُحتمل أن تكون حسية وعقلية أما الكفر فلا شك
في كونه عقلياً برغم دخوله في أعمالهم، وقد جعل الجرجاني المشبه في الآية
الثانية هو الكفر مع أنه لم يذكر لفظه في الآية وإنما قُدِّرَ المشبه بعد العطف على
الأعمال لما جرت عليه آيات القرآن الكريم من تشبيه الكفر بالظلمات.

قال الرماني عند هذه الآية: « وهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة
إلى ماتقع عليه الحاسة، وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم
الفاقة. ولو قيل: يحسبه الرائي ماءً، ثم يظهر أنه على خلاف ماقد رأى لكان بليغاً،
وأبلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمان أشد حرصاً عليه، وتعلق قلبه به. ثم بعد هذه
الخيبة حصل الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأبد في النار»^(٥).

تشبيه المحسوس بالمحسوس :

تناول الشوكاني هذا الضرب في كثير من الآيات الكريمة وهو أكثر
التشبيهات وروداً في القرآن الكريم. والمحسوس هو الذي تقع عليه الحواس
الخمس كما أشرنا من قبل ومن هذا الضرب ما أشار الشوكاني إليه مما تقع عليه
الحواس من المبصرات كالألوان والأخجام ومن المسموعات .

يقول عند قوله تعالى : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرر
السحاب ﴾^(٦): «أي: وهي تسير سيراً حثيثاً كسير السحاب التي تسيرها

(٤) فتح القدير ٤/٤٦ .

(٥) النكت في إعجاز القرآن للرماني ٦ .

(٦) النمل ٨٨ .

الرياح. قال القتبي: وذلك أن الجبال تجمع، وتسير وهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير» (٧).

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتَ وَالْمَرْجَانَ ﴾ (٨): «شبههن سبحانه في صفاء اللون مع حمرة بالياقوت والمرجان، قال الحسن: هنّ في صفاء الياقوت وبياض المرجان، وإنما خص المرجان على القول بأنه صغار الدرّ، لأن صفاءها أشد من صفاء كبار الدرّ» (٩).

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مَسْنَدٌ ﴾ (١٠): «كأنهم خشب مسندة) مستأنفة لتقرير ماتقدم من أن أجسامهم تعجب الرائي وتروق الناظر، شبهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله ﷺ مستنديين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط التي لا تفهم ولا تعلم» (١١).

وعند قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ (١٢) يقول: «أي: كالصوف المصبوغ، ولا يقال للصوف عهن إلا إذا كان مصبوغاً، وقيل: العهن: الصوف ذو الألوان، فشبه الجبال به في تكونها ألواناً» (١٣).

(٧) فتح القدير ١٧٩/٤ .

(٨) الرحمن ٥٨ .

(٩) فتح القدير ١٧٠/٥ .

(١٠) المنافقون ٤ .

(١١) فتح القدير ٢٧٥/٥ .

(١٢) المعارج ٨ و ٩ .

(١٣) فتح القدير ٣٤٦/٥ .

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴾ (١٤) : «إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم وصفاء ألوانهم ونضارة وجوههم لؤلؤاً مفرقاً» (١٥) .

وعند قوله تعالى : ﴿ إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر ﴾ (١٦) يقول الشوكاني: «أي: كل شررة من شررها التي ترمي بها كالقصر من القصور في عظمها، والشرر: ماتطير من النار متفرقاً، والقصر: البناء العظيم.. ثم شبه الشرر باعتبار لونه فقال: (كأنه جمالة صفر) وهي جمع جمال وهي الإبل أو جمع جمالة» (١٧) .

وعند قوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ (١٨) يقول - رحمه الله - : «الصلصال: الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة، وقيل هو طين خلط برمل، والفخار: الخزف الذي طبخ بالنار، والمعنى: أنه خلق الإنسان من طين يشبه في ييبسه الخزف» (١٩) .

تشبيه المحقول بالمحقول :

أشار الشوكاني إلى بعض التشبيهات التي طرفاها معقولان ومن ذلك قوله عند قوله تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ (٢٠) : «الوحي: إعلام في خفاء، والكاف في قوله: (كما) نعت مصدر

(١٤) الإنسان ١٩ .

(١٥) فتح القدير ٤٢٣/٥ .

(١٦) الرسائل ٣٢ و ٣٣ .

(١٧) فتح القدير ٤٣٤/٥ .

(١٨) الرحمن ١٤ .

(١٩) فتح القدير ١٦١/٥ .

(٢٠) النساء ١٦٣ .

محذوف، أي: إحياء مثل إحيائنا إلى نوح، أو حال، أي: أوحينا إليك هذا الإحياء حال كونه مشبهاً بإحيائنا إلى نوح» (٢١) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ (٢٢): «قليل هو مصدر تشبيهي، أي: حباً مثل حب الخير» (٢٣) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢٤): «أي: كعرضهما، وإذا كان هذا قدر عرضها فما ظنك بطولها. قال ابن كيسان: عني به جنة واحدة من الجنات، والعرض أقل من الطول، ومن عادة العرب أنها تعبر عن سعة الشيء بعرضه دون طوله، ومن ذلك قول الشاعر:

كأن بلاد الله وهي عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل» (٢٥)(٢٦)

تشبيه المحسوس بالمتخيل:

ذكر الشوكاني تشبيه المحسوس بالمتخيل، والمتخيل هو الذي لا يدرك بالحواس الخمس. يقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿ إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (٢٧): «أي: ثمرها وماتحملة كأنه في تناهي قبحه وشناعة منظره رؤوس الشياطين، فشبه المحسوس بالمتخيل، وإن كان غير مرئي

(٢١) فتح القدير ١/٦٢٠ .

(٢٢) ص ٣٢ .

(٢٣) فتح القدير ٤/٤٩٥ .

(٢٤) الحديد ٢١ .

(٢٥) فتح القدير ٥/٢١٠ .

(٢٦) البيت للبيد بن ربيعة، وهو بيت مفرد ولم ينسبه إليه إلا الراغب في محاضراته، انظر

ديوان لبيد ص ٢٣٨ ، ومحاضرات الراغب ٢/٨٠ .

(٢٧) الصافات ٦٤ و ٦٥ .

للدلالة على أنه غاية في القبح كما تقول في تشبيهه من يستقبحونه كأنه شيطان ، وفي تشبيهه من يستحسنونه: كأنه ملك، كما في قوله: ﴿ ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم ﴾ (٢٨) ومنه قول امرئ القيس :

أَيَقْتَلْنِي وَالْمَشْرِفِي مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زَرْقِ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ (٢٩)

وقد أورد الشوكاني بعد آية رؤوس الشياطين أقوالاً تجعل المشبه به وهو رؤوس الشياطين من الحسّي الذي يقع عليه البصر فيقول: «قال الزجاج والفراء: الشياطين حيات لها رؤوس وأعراف وهي من أقبح الحيات وأخبثها، وأخفها جسماً، وقيل رؤوس الشياطين اسم لنبت قبيح باليمن يقال له الاستن، وقيل: هو شجر خشن منتن مرّ منكر الصورة يُسمى ثمره رؤوس الشياطين» (٣٠).

وبعض البلاغيين ينفي ورود تشبيه المحسوس بالمعقول في القرآن الكريم، لأن التشبيه غرضه تقريب الصورة للأفهام، وإيضاح ما يغيب عن الحواس في صورة ماتدركه الحواس، والإنسان يألف ماتقع عليه حواسه بكثرة، فإذا شُبّه المحسوس بالمعقول خرج عن الطبائع وماتألفه الحواس، وذهب بالتشبيه إلى غير الغرض الأصلي الذي جيء به من أجله وهو البيان والتوضيح.

وحول هذا يقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾ (٣١): «أي: هذا المثل وغيره من الأمثال التي في القرآن، نضربها للناس تنبيهاً لهم، وتقريباً لما بعد عن أفهامهم» (٣٢) ويشير الشوكاني بقوله: (هذا المثل) إلى الآية التي شبهت الكافرين بالعنكبوت التي اتخذت بيتاً.

(٢٨) يوسف ٣١ .

(٢٩) فتح القدير ٤/٤٥٦، والبيت في ديوان امرئ القيس ص ٣٣، ولسان العرب ١١/٥٠٨ .

(٣٠) فتح القدير ٤/٤٥٧ .

(٣١) العنكبوت ٤٣ .

(٣٢) فتح القدير ٤/٢٣٦ .

٢ - التشبيه المفرد والمقيد :

من أقسام التشبيه بحسب طرفيه التشبيه المفرد، وهو الذي ليس بمركب، ومن أنواعه المقيد، والتقييد إما في أحد طرفيه أو كليهما، أما القيد فهو إما صفة أو حال أو ظرف أو نحو ذلك.

ولم يجعل الخطيب التشبيه المشروط مقيداً بل عدّه قسماً آخر من أقسام التشبيه بحسب طرفيه.

غير أن كلام شراح التلخيص لا يخرج المشروط من المقيد، بل نجد في كثير من عبارات الشروح ما يجعل المقيد والمشروط اسمين لمسمى واحد^(١). والذي أراه هو أن الشرط قيد سواء كان شرطاً بالاصطلاح النحوي أو غيره^(٢).

والشوكاني يتناول في تفسيره التشبيه المفرد وكذا المقيد . وسنبداً بالكلام عن المفرد.

يقول عند قوله تعالى: ﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾^(٣) : «الموج:

(١) قال السبكي في مثل (زيد وثوبه كعمرو وثوبه) احتمال أنه يريد: زيد كعمرو في حال كون كل منهما مع ثوبه، والثوبان شرطان في تشبيه أحدهما بالآخر فيكون تشبيه مفرد مقيد بمفرد مقيد، ويقول أيضاً: والتقييد: أن تشبه شيئاً بشرط انضمام شيء إليه. ويقول السعد عن هذا النوع (المشروط): يُسمى مثل هذا التشبيه، التشبيه المشروط لتقييد المشبه أو المشبه به أو كليهما بشرط وجودي أو عديمي. انظر الشروح ٤٢٣/٣ و٤٦٣ وما بعدها.

(٢) وذلك مثل الاستثناء في قوله:

مها الوحش إلا أن هاتا أو انس قنا الخط إلا أن تلك نوابل (ديوان أبي تمام ٢٢٦)

والاستدراك في قول الآخر:

حكيت أبا سعد، فنشرك نشره ولكن له صدق الهوى ولك الملل (ابن بابك/الإيضاح ٢٨٧)

(٣) هود ٤٢ .

جمع موجة، وهي: ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح، وشبهها بالجبال المرتفعة الى الأرض»^(٤).

ويقول عند الآية الكريمة: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوِجٌ كَالظِّلِّ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (٥): «شبه الموج لكبره: بما يظل الإنسان من جبل، أو سحاب، أو غيرهما، وإنما شبه الموج وهو واحد بالظل وهي جمع، لأن الموج يأتي شيئاً بعد شيء، ويركب بعضه بعضاً، وقيل إن الموج في معنى الجمع، لأنه مصدر، وأصل الموج: الحركة، والازدحام ومنه يقال: ماج البحر وماج الناس»^(٦).

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ (٧): المهل: ما أذيب من النحاس والرصاص والفضة.. (وتكون الجبال كالعهن) أي: كالصوف المصبوغ، ولا يقال للصوف عهن إلا إذا كان مصبوغاً. قال الحسن: تكون الجبال كالعهن، وهو الصوف الأحمر، وهو أضعف الصوف، وقيل: العهن: الصوف ذو الألوان فشبه الجبال به في تكونها ألواناً كما في قوله: (جدد بيض وحممر... وغرابيب سود) فإذا بُست وطيرت في الهواء أشبهت العهن المنقوض إذا طيرته الريح^(٨).

ونلاحظ في كلام الإمام الشوكاني تحديداً دقيقاً للمشبه به وهو العهن أي: الصوف، إذ الصوف لا يسمى عهن إلا إذا كان مصبوغاً، وهذا التحديد يشبه الشرط في أن الجبال إنما شُبِّهت به حينما اتصف بهذه الصفة، وهذا ليس من المقيّد، إذ المشبه به مفرد وإن ظهر في المعنى مقيداً بشروط.

(٤) فتح القدير ٥٦٦/٢ .

(٥) لقمان ٣٢ .

(٦) فتح القدير ٢٨١/٤ .

(٧) المعارج ٩٨ .

(٨) فتح القدير ٣٤٦/٥ .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ ^(٩): «جعل النساء لباساً للرجال، والرجال لباساً لهن لامتزاج كل واحدٍ منهما بالآخر عند الجماع، كالامتزاج الذي يكون بين الثوب ولابسه» ^(١٠) وفي هذه الآية قيد كل من المشبه والمشبه به، فقوله تعالى: «لكم» و«لهن» متعلق بمحذوف صفة للباس الأولى والثانية على التوالي. والملاحظ أن هذه الآيات التي تعرض الشوكاني للقيد فيها آيات قيد فيها المشبه به، وقد ذكر آية قيد فيها المشبه دون المشبه به سنورها قريباً إن شاء الله.

وعند قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ ^(١١) يقول - رحمه الله -: «الصلصال: الطين اليابس الذي يُسمع له صلصلة، وقيل: هو طين خلط برمل، وقيل هو الطين المُنْتَن، يقال: صل اللحم وأصل إذا أنتن، والفخار: الخزف الذي طبخ بالنار، والمعنى: أنه خلق الإنسان من طين يشبهه في يبسه الخزف» ^(١٢).

أما تناول الشوكاني - رحمه الله - للتشبيه المفرد المقيد فقد حرص فيه على تحليل التشبيه وبيان المشكل من مفرداته وإيضاح القيود وأنواعها، كما نجده يجد في إبراز وجه الشبه وربما ذكر ما يحتمله الشبه من وجوه في حالة تعدد هذه الاحتمالات، ثم يعرض معنى الآية عرضاً أدبياً.

وإليك أمثلة من تناول الشوكاني للتشبيه المقيد:

يقول عند قوله تعالى: ﴿ وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ ^(١٣): «الهباء واحد هباءة، والجمع أهباء. قال النضر بن شميل: الهباء

(٩) البقرة ١٨٧ .

(١٠) فتح القدير ٢١٤/١ .

(١١) الرحمن ١٤ .

(١٢) فتح القدير ١٦١/٥ .

(١٣) الفرقان ٢٣ .

التراب الذي تطيره الريح كأنه دخان. وقال الزجاج: هو ما يدخل من الكوة مع ضوء الشمس يشبه الغبار، وكذا قال الأزهري، والمنتور: المفرق، والمعنى: أن الله سبحانه أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنتور، ولم يكتف سبحانه بتشبيه عملهم بالهباء حتى وصفه بأنه متفرق متبدد، وقيل: إن الهباء ما أذرتة الرياح من يابس أوراق الشجر، وقيل: هو الماء المهراق، وقيل الرماد. والأول هو الذي ثبت في لغة العرب، ونقله العارفون بها. (١٤).

ومما تناوله الشوكاني من التشبيه المقيد، آيتان أقام بينهما موازنة لاختلاف القيد في كل منهما، إذ يظهر تمايز التشبيهين بعضهما عن بعض بسبب القيد الذي صبغ كلا من المشبه بهما بلون مخالف جعله شيئاً آخر غير صاحبه.

يقول عند قوله تعالى: ﴿ وحوور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ (١٥) وقوله تعالى: ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منشوراً ﴾ (١٦): «إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم وصفاء ألوانهم ونضارة وجوههم لؤلؤاً مفرقاً. قال عطاء: يريد في بياض اللون وحسنه، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوماً. قال أهل المعاني: إنما شبهوا بالمنتور لانتثارهم في الخدمة، ولو كانوا صفاءً لشبهوا بالمنظوم، وقيل: إنما شبههم بالمنتور لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين فإنه شبههن باللؤلؤ المكنون لأنهن لا يمتهن بالخدمة» (١٧).

وبهذا يتضح لنا أن القيود في أحد طرفي التشبيه أو كليهما تزيد التشبيه دقة وبعداً وغرابة وتزيد من روائه ورونقه، وهو بلا شك ذو مزية لا تجدها في غيره من أنواع التشبيه، فكل منها له خصوصيته.

(١٤) فتح القدير ٨٢/٤ .

(١٥) الواقعة ٢٢ و ٢٣ .

(١٦) الإنسان ١٩ .

(١٧) فتح القدير ٤٢٣/٥ .

والذي يرفع قدر التشبيه المقيّد هو أن القيد يجلو المقيّد ويهذهبه ويزيل عنه علائق قد تُحمّل التشبيه مايبعده عن الغرض، فإذا قيدت أحد طرفيه أو كليهما فإنك تحدده وتزيده قرباً من الطرف الآخر لاسيما إذا كان هذا المقيّد - قبل تقييده - مما يحتمل وجوهاً عديدة للشبه، أو يكون مبتدلاً، مما قال عنه الشيخ عبدالقاهر: «يكثر نورانه على العيون، ويدوم ترده في مواقع الأبصار» (١٨).

فليس من المقبول إدخال التشبيه المقيّد في المركب وإغفال مزاياه وخصوصياته التي تمنحه شخصية مستقلة عن غيره، ولا أبالغ إذا قلت إن كثيراً من التشبيهات المقيّدة أدخلت تجوّزاً تحت مصطلح التركيب.

وإلى هذا ذهب الأستاذ عبدالمتعال الصعيدي، على الرغم من تفريقه بين المركب والمقيّد وطرفيهما إذ يقول: «والفرق بين الطرف المقيّد والطرف المركب أن المركب يكون كل واحدٍ من أجزائه جزءاً من الطرف، أما المقيّد فقيده شرط من الطرف لا جزء منه، وإني أرى أن مثل هذا لا يصحّ مراعاته في علم البيان، والأحسن إدخال المقيّد في المركب» (١٩).

وأحسب أنه لا وجه لتناسي هذا الضرب من التشبيه وإغفاله فالملاحظ أن كثيراً من الدارسين أهمله ودرس أمثله وصوره ضمن تقسيمات التشبيه الأخرى، بحسب الأداة أو بحسب الوجه أو من حيث غرض التشبيه.

والمتتبع لكلام الشيخ عبدالقاهر عن غرابة التشبيه وأسبابها، يستشف منه أن هذه الغرابة والندرة إنما جاءت مما اتصل بأحد الطرفين من صفات وخاصة المشبه به، مما أظهر للقيد قيمة ليست في التركيب أو الأفراد، فكان أن جعل الخطيب التشبيه المقيّد قسماً خاصاً كغيره من أقسام التشبيه بعد أن كان كسائر التشبيهات المفردة.

(١٨) أسرار البلاغة ١٦٥ .

(١٩) بغية الإيضاح ٤٥/٣ .

ولما كان من خصائص القيد أن يحقق تناسباً بين طرفي التشبيه حينما يفضل أحدهما الآخر أو ينقص عنه، فإن الشوكاني يحرص عند تحقيق التشبيه على بيان هذه الخاصية، إذ يشير إلى أن الآيات لما شبّهت قوم عاد حينما صرعتهم الريح بأعجاز النخل، لم تكتف بذلك بل وصفت أعجاز النخل بأنها منقّرة وخاوية وذلك عند قوله تعالى ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ (٢٠) وقوله تعالى: ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً. فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ (٢١).

يقول الشوكاني في ذلك: «شبههم في طول قاماتهم حين صرعتهم الريح وطرحتهم على وجوههم بالنخل الساقط على الأرض التي ليس لها رؤوس، وذلك أن الريح قلعت رؤوسهم أولاً، ثم كبّتهم على وجوههم. وتذكير منقعر مع كونه صفة لأعجاز نخل وهي مؤنثة اعتباراً باللفظ، ويجوز تأنيثه اعتباراً بالمعنى كما قال: (أعجاز نخل خاوية) (٢٢) ثم يقول عند الآية الثانية: «أي: أصول نخل ساقطة، أو بالية، وقيل خالية لا جوف فيها، والنخل يذكَر ويؤنث.. وهو إخبار عن عظم أجسامهم. قال يحيى بن سلام: إنما قال خاوية لأن أبدانهم خوت من أرواحهم مثل النخل الخاوية» (٢٣).

ومن التشبيه المقيّد ما يكون القيد فيه ظرفاً وقد تناول الشوكاني هذا عند قوله تعالى: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو

(٢٠) القمر ١٩ و ٢٠.

(٢١) الحاقه ٧.

(٢٢) فتح القدير ١٥١/٥.

(٢٣) فتح القدير ٣٣٥/٥.

مكظوم ﴿ (٢٤) يقول: «(ولاتكن كصاحب الحوت) يعنى يونس عليه السلام، أي لاتكن مثله في الغضب والضجر والعجلة. والظرف في قوله: (إذ نادى) منصوب بمضاف محذوف، أي: لاتكن حالك كحال وقت ندائه، وجملة (وهو مكظوم) في محل نصب على الحال من فاعل نادى، والمكظوم: المملوء غيظاً وكرباً» (٢٥).

ونلاحظ هنا دخول جملة الحال (وهو مكظوم) ضمن القيد، إذ ليس لنهي النبي ﷺ عن الامتثال بيونس عليه السلام مطلقاً، بل في حالة واحدة، وهي عند خروجه مغاضباً في حالة الغضب والضجر والعجلة، وإلا فالأنبياء بعضهم أسوة لبعض.

وليس وقوف الشوكاني عند هذه الصفات المقيّدة ليحصيها أو يبين أنواعها، بل يتناولها تناول الأديب الذي يهتم بدقائق الألفاظ ويبرز أثرها في المعنى، ولا يقف وقفة إجمالية أمام الصورة التي أظهرها التشبيه، بل تجده يفصلها مهتدياً بما يفيد التركيب من دلالات ذات أثر نفسي فهو بذلك أقرب إلى روح الأديب وذوقه، منه إلى أسلوب العالم وجفاف المنطق.

وهذا مبني على ما تلمسه عند الشوكاني في تناول للفنون البيانية في الآيات الكريمة بما يخدم التفسير، فهو لا يقف عند أي من هذه الفنون لذاته، بل يحاول الإفادة من جميع دلالاته للوصول إلى الغرض الذي لأجله كتب هذا التفسير وهو إيضاح المعنى المراد من الآية الكريمة.

فها هو ذا يعقد صلة بين التشبيه والإعجاز وما يؤول إلى وجه الشبه من صفة لكتاب الله تحدى الله بها من يرمون النبي ﷺ بافتراء الوحي، وهي البلاغة البالغة إلى حد الإعجاز.

(٢٤) القلم ٤٨ .

(٢٥) فتح القدير ٣٣٠/٥ .

ثم نجده يلاحظ بدقة تفاصيل الصيغ وملابسات المعنى عند استعمال صيغة مكان أخرى وفائدة ذلك الاستعمال، وذلك للصلة الوثيقة بين هذا والتشبيه المقيّد الذي نحن بصددّه.

فعند قوله تعالى: ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ (٢٦) يقول: «أي مماثلة له في البلاغة، وحسن النظم، وجزالة اللفظ، وفخامة المعاني، ووصف السور بما يوصف به المفرد، فقال: مثله، ولم يقل أمثاله، لأن المراد مماثلة كل واحدة من السور، أو لقصد الإيماء إلى وجه الشبه، ومداره المماثلة في شيء واحد، وهو البلاغة البالغة إلى حد الإعجاز، وهذا إنما هو على القول بأن المطابقة في الجمع والتثنية والإفراد شرطاً، ثم وصف السور بصفة أخرى، فقال: (مفتريات) للاستظهار على المعارضة بالعشر السور» (٢٧).

ويلاحظ في هذه الآية أن المقيّد هو المشبه وإن تأخر القيد، وهو قوله (مفتريات) إلى ما بعد المشبه به، والقيد هنا صفة.

ويتناول الشوكاني تشبيهاً مفرداً يظهر من نظم الآية الكريمة - لغير المتأمل - أنه مقيّد بجملة حالية تلت المشبه به، غير أنه لا يصح كونها قيداً له.

حيث يقول عند قوله تعالى: ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كاللّهل يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ (٢٨) «(كاللّهل) وهو دردي الزيت وعكر القطران . وقيل هو النحاس المذاب. وقيل كلّ ما يذوب في النار (يغلي في البطون كغلي الحميم) قرأ الجمهور تغلي بالفوقية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الشجرة، والجملة خبر ثان، أو حال، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: تغلي غلياً مثل غلي الحميم، وهو الماء الشديد الحرارة. وقرأ ابن كثير وحفص وابن محيصن وورش عن يعقوب (يغلي) بالتحية على أن الفاعل ضمير يعود إلى الطعام، وهو في معنى الشجرة،

(٢٦) هود ١٣ .

(٢٧) فتح القدير ٥٥٢/٢ .

(٢٨) الدخان ٤٣ - ٤٦ .

ولا يصح أن يكون الضمير عائداً إلى المهل لأنه مشبه به، وإنما يغلي ما يشبهه بالمهل، وقوله: (كغلي الحميم) صفة مصدر محذوف، أي: غلياً كغلي الحميم» (٢٩).

وقد ذكرنا من قبل أن الخطيب جعل التشبيه المشروط غير المقيد، ثم تابع أصحاب الشروح تقسيم الخطيب بشيء من التسامح في الفصل بين المقيد والمشروط فاستعملوا اسم هذا لذاك والعكس، وما ذلك إلا لكون المشروط من المقيد، بل يصح أن يسمى المقيد مشروطاً إذا اعتبرنا الشرط بمعناه اللغوي لا الاصطلاح النحوي الذي يحدد الشرط بألفاظ معينة، والذي عليه البيانين هو الأول، وهو جعل الشرط في التشبيه شاملاً للشرط النحوي والصفة والحال والظرف وغيرها مما يصح دخوله تحت اسم القيد. ولذا فإن إطلاق اسم المشروط أو المقيد على مانحن بشأته من التشبيه ليس فيه خروج عن الجادة، ولا بعد عن قول المحققين من أهل البيان.

وقد لاحظت أن من التشبيه المقيد قوله تعالى: ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر، كأنه جمالة صفر﴾ (٣٠). فإن المشبه هنا شبه بأمرين أحدهما من حيث الحجم والآخر من حيث اللون.

قال الشوكاني: «(إنها ترمي بشرر كالقصر) أي: كل شررة من شررها التي ترمي بها كالقصر من القصور في عظمها... ثم شبه الشرر باعتبار لونه فقال: (كأنه جمالات صفر)» (٣١).

ومن المعلوم أن التقييد قد يكون في أحد طرفي التشبيه، والواضح هنا أن التقييد فيما أصله مشبه به، وقد شبه هنا بأمرين، فأين المقيد؟ وأين قيده؟ والجواب في ذلك أن مجموع المشبه بهما يعدان مشبهاً به واحداً واجتماع الثاني منهما إلى الأول يعدّ قيداً له. والله أعلم.

(٢٩) فتح القدير ٤/٦٦٢.

(٣٠) الرسائل ٣٢ و٣٣.

(٣١) فتح القدير ٥/٤٣٤.

٣ - التشبيه المركب :

ومن أقسام التشبيه بحسب طرفيه التشبيه المركب، وهو الذي يركب طرفاه أو أحدهما من أمرين أو أكثر يمتزج بعضها ببعض، ولا يكون الوجه فيه إلا مركباً، وهذا التشبيه يُسمى عند البيانين تشبيه التمثيل.

والشوكاني يتناول هذا الضرب من التشبيه في مواضع عدة من تفسيره مع العناية بالصورة وما فيها من تفصيل، يقول عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهُ حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾ (١) : لما ذكر الله سبحانه ماتقدم من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يضمن بيان حالها وسرعة تقضيها وأنها تحول بعد أن تملأ الأعين برونقها، وتجلب النفوس ببهجتها. وتحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعض، ويهتكوا حرمة حباؤها وعشقا لجمالها الظاهري، وتكالبوا على التمتع بها، وتهافتوا على نيل ماتشتهي الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب، فقال: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) إلى آخر الآية. والمعنى: أن مثلها في سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضاد ما كانت عليه وبيانه، مثل ما على الأرض من أنواع النبات في زوال رونقه وذهاب بهجته وسرعة تقضيته، بعد أن كان غصناً مخضراً طرياً قد تعانقت أغصانه المتمايلة، وزهت أوراقه المتصافحة، وتلاأت أنوار نوره، وحاكت الزهر أنواع زهره (٢).

(١) يونس ٢٤ .

(٢) فتح القدير ٤٩٧/٢ .

ولا يقتصر الشوكاني عند كلامه عن هذه الآية على بيان نوع التشبيه أو طرفيه بل نجده يفصل في التشبيه مبيناً دقائق الصورة وماتفهمه أجزاء التركيب من معانٍ تزيد الصورة وضوحاً. ومن ذلك ما يظهره حرف الجر من معنى في قوله: (فاختلط به نبات الأرض) فيقول: «الباء للسببية، أي فاختلط بسببه نبات الأرض، بأن اشتبك بعضه ببعض حتى بلغ إلى حد الكمال»^(٣). ثم يوضح ما يفيد بعض اللفظ ككلمة الزخرف التي تعني في أصلها الذهب. فيقول: «الزخرف: الذهب، ثم يشبه به كل مموّه ومزوّر والمعنى: أن الأرض أخذت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب، وبعضه للون الفضة، وبعضه للون الياقوت، وبعضه للون الزمرد»^(٣). وهذا التشبيه برغم تعدد أجزاء المشبه به فإن وجه الشبه يؤخذ من مجموع هذه الأجزاء، ولا يصحّ اعتبارها متعددة متفرقة، والشوكاني حينما يفصل هذه الجوانب ويدقق فيها لا يعني بها تعدد المشبه به، بل إنه يجعل من أجزاء المشبه به مجتمعة حالاً يفهم منه الوجه المركب. وهذا هو حاصل كلام الشيخ عبدالقاهر الجرجاني عن هذه الآية والوجه المركب فيها إذ يقول: «إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت، وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة، فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صور الجمل معاً حاصلة تُشير إليها واحدة واحدة. ثم إن الشبه منتزع من مجموعها، من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، وإفراد شطر من شطر، حتى إنك لو حذف منها جملة واحدة من أي موضع كان، أخل ذلك بالمغزى من التشبيه»^(٤).

وعند قوله تعالى: ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾^(٥) يقول: «ضرب الله هذا

(٣) فتح القدير ٤٩٧/٢ .

(٤) أسرار البلاغة (١٠٩) .

(٥) البقرة ١٧ .

المثل للمنافقين لبيان أن ما يظهرونه من الإيمان مع ما يبطنونه من النفاق لا يثبت لهم به أحكام الإسلام، كمثّل المستوقد الذي أضاءت ناره ثم طفتت، فإنه يعود إلى الظلمة ولا تنفعه تلك الإضاءة اليسيرة، فكان بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق في حيرته وتردده»^(٦).

ويقول عند قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمال والأذى كالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثّل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾^(٧): «الصفوان: الحجر الكبير الأملس. والوابل: المطر الشديد، مثل الله سبحانه هذا المنفق بصفوان عليه التراب يظنه الظان أرضاً منبثة طيبة، فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب وبقي صلداً، أي: أجرد نقياً من التراب الذي كان عليه، فكذلك هذا المرأى، فإن نفقته لاتنفعه، كما لاينفع المطر الواقع على الصفوان الذي عليه تراب»^(٨).

ويقول - رحمه الله - عند قوله تعالى: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثّل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل﴾^(٩) «التمثيل ما بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة، وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير والقليل، فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها، فكذلك نفقتهم جلت أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله زاكية زائدة في أجورهم»^(١٠).

(٦) فتح القدير ٥٥/١ .

(٧) البقرة ٢٦٤ .

(٨) فتح القدير ٣٢٧/١ .

(٩) البقرة ٢٦٥ .

(١٠) فتح القدير ٣٢٨/١ .

وعند قوله تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به
الريح في يوم عاصف لا يقدرُونَ مما كسبوا على شيء ﴾ (١١) يقول الشوكاني
رحمه الله: «المراد: أن أعمالهم باطلة غير مقبولة، والرماد ما يبقى بعد احتراق
الشيء. ضرب الله سبحانه هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنه يمحّوها كما
تمحق الريح الشديدة الرماد في يومٍ عاصفٍ، ومعنى اشتدت به الريح حملته بشدة
وسرعة، والعصف شدة الريح وصف به زمانها مبالغة كما يقال: يوم حار ويوم
بارد، والبرد والحرّ فيهما لا منهما (لا يقدرُونَ مما كسبوا على شيء) أي: لا يقدر
الكفار مما كسبوا من تلك الأعمال الباطلة على شيء منها، ولا يرون له أثراً في
الآخرة يجازون به ويثابون عليه، بل جميع ما عملوه في الدنيا باطل ذاهب كذهاب
الريح بالرماد عند شدة هبوبها» (١٢).

وعند قوله تعالى: ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً
وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم
بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا ﴾ (١٣) يقول: «شبه حال المنافقين بالكفار الذين
كانوا من قبلهم، ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب. والكاف محلها رفع على خبرية
مبتدأ محذوف، أي: أنتم مثل الذين من قبلكم، أو محلها نصب، أي: فعلتم مثل
فعل الذين من قبلكم من الأمم... وقيل المعنى: فعلتم كأفعال الذين من قبلكم في
ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فحذف المضاف . ثم وصف حال أولئك
الكفار الذين من قبلهم، وبين وجه تشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم، بأنهم كانوا
أشد من هؤلاء المنافقين والكفار المعاصرين للنبي ﷺ (قوة وأكثر أموالاً وأولاداً
فاستمتعوا) أي: تمتعوا (بخلاقهم) أي: نصيبهم الذي قدره الله لهم من ملاذّ

(١١) إبراهيم ١٨ .

(١٢) فتح القدير ١٢١/٣ .

(١٣) براءة ٦٩ .

الدنيا. (فاستمتعتم) أنتم (بخلاقكم) أي: بنصيبكم الذي قدره الله لكم (كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) أي: انتفعتم به كما انتفعوا به، والغرض من هذا التمثيل ذم هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابھتهم لمن قبلهم من الكفار في الاستمتاع بما رزقهم الله. وقد قيل: مافائدة ذكر الاستمتاع بالخلق في حق الأولين مرة، ثم في حق المنافقين ثانياً، ثم تكريره في حق الأولين ثالثاً؟ وأجيب بأنه تعالى ذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا، وحرمانهم عن سعادة الآخرة بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ، فلما قرر تعالى هذا، عاد فشبه حال المنافقين بحالهم فيكون ذلك نهاية في المبالغة»^(١٤).

وقد تناول رحمه الله التشبيه المركب عند قوله تعالى في صفة حور الجنة: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾^(١٥) يقول: «شبههن سبحانه في صفاء اللون مع حمرة بالياقوت والمرجان»^(١٦)، ففي حمله الواو على معنى مع مايفيد أنهما ممتزجان ومجتمعان إذ المراد في قوله تعالى: «الياقوت والمرجان» اجتماع الصفتين ولايصح هنا جعل أحد المتعاطفين مشبهاً به دون الآخر كما لايصح كون التشبيه من المتعدد، لأن المقصود - والله أعلم - أن كلاً منهن تشبه في لونها الياقوت في صفائه مع المرجان في حمرة وليس المقصود أن بعضهن يشبه الياقوت والبعض الآخر يشبه المرجان، ومثل هذه الواو التي بمعنى «مع» الواو في قول بشار:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه^(١٧)

(١٤) فتح القدير ٤٣٢/٢ .

(١٥) الرحمن ٥٨ .

(١٦) فتح القدير ١٧٠/٥ .

(١٧) ديوان بشار ٤٦ ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ٢٦ .

قال السبكي : « واعلم أن المصنف قال في الإيضاح: إن المقصود في بيت بشار
الهيئة الحاصلة^(١٨) ولذلك وجب الحكم بأن أسيافنا في حكم الصلة للمصدر
ونصب الأسياف لا يمنع من تقدير الاتصال لأن الواو فيها بمعنى مع فهو كقولهم:
«تركت الناقة وفصيلها»^(١٩) .

وعند قوله تعالى: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم
وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه
مصفراً ثم يكون حطاماً﴾^(٢٠) يقول الإمام الشوكاني: «بين سبحانه لهذه الحياة
شبهاً وضرب لها مثلاً فقال: (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) أي: كمثل مطر
أعجب الزراع نباته، والمراد بالكفار هنا الزراع لأنهم يكفرون البذر، أي: يغطونه
بالتراب، ومعنى نباته: النبات الحاصل به (ثم يهيج) أي: يجف بعد خضرته ويبس
(فتراه مصفراً) أي: متغيراً عما كان عليه من الخضرة والروتق إلى لون الصفرة
والذبول (ثم يكون حطاماً) أي: فتاتاً هشياً متكسراً متحطماً بعد يبسه. والمعنى:
أن الحياة كالزراع يعجب الناظرين إليه لخضرته وكثرة نضارته، ثم لا يلبث أن
يصير هشياً تبناً كأن لم يكن»^(٢١) .

وعند قوله تعالى: ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم
بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه﴾^(٢٢) يقول رحمه الله:

(١٨) قال الخطيب عن الوجه في بيت بشار: «الهيئة الحاصلة من هوى أجرام مشرقة،

مستطيلة، متناسبة المقدار، متفرقة في جوانب شيء مظلم» ينظر الإيضاح ٣٤٥.

(١٩) شروح التلخيص ٤٢٢/٣ .

(٢٠) الحديد ٢٠ .

(٢١) فتح القدير ٢١٠/٥ .

(٢٢) الرعد ١٤ .

«أي: والآلهة الذين يدعونهم - يعني الكفار - من دون الله عز وجل لا يستجيبون لهم بشيء مما يطلبونه منهم كائناً ما كان إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد فإنه لا يجيبه، لأنه جماد لا يشعر بحاجته إليه، ولا يدري أنه طلب منه أن يبلغ فاه، أعلم الله سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان إلى الماء يدعوهم إلى بلوغ فمه، وما الماء ببالغه» (٢٣) .

ثم يشير الشوكاني إلى معنى آخر يحتمله التشبيه، ففي الآية السابقة يقول: «وقيل: المعنى أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفه شيء منه» (٢٣) ثم يشير - رحمه الله - إلى أن هذا المعنى يضرب لمن سعى فيما لا يدركه، يقول: «وقد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقبض على الماء كما قال الشاعر:

فأصبحت مما كان بيني وبينها من الود مثل القابض الماء باليد (٢٤)

وقال الآخر:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابضٍ على الماء خائته فروج الأصابع (٢٥)

ويذكر الشوكاني رأياً آخر يحتمله معنى التشبيه وهو للفراء، وهو قوله: إن المراد

(٢٣) فتح القدير ٨٨/٣ .

(٢٤) هذا البيت والذي يليه بينهما اختلاط والرواية الصحيحة هي:

فأصبحت من ليلي الغداة كناظرٍ مع الصبح في أعقاب نجم مغرب
وهو لمجنون ليلي ، ولعاذ العقيلي قوله :

أجرت فلم تمنع وكنت كقابض على الماء خائته فروج الأصابع

انظر هامش أسرار البلاغة ١٢٤ لمحمود شاكر .

(٢٥) فتح القدير ٨٨/٣ .

بالماء هنا ماء البئر لأنها معدن للماء، وأنه شبهه بمن مدّ يده إلى البئر بغير رشاء، ضرب الله سبحانه هذا مثلاً لمن يدعو غيره من الأصنام» (٢٥).

وعند قوله تعالى: ﴿ أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً، رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ (٢٦) ينقل الشوكاني عن الأنباري قوله: شبه نزول القرآن الجامع للهدى والبيان بنزول المطر، إذ نفع نزول القرآن يعم كعموم نفع نزول المطر، وشبه الأودية بالقلوب، إذ الأودية يستكن فيها الماء كما يستكن القرآن والإيمان في قلوب المؤمنين» (٢٧).

وكثيراً ما يحاول الشوكاني إيضاح أجزاء التشبيه وبيان الغامض من مفرداته وتحليل تركيبه، يقول في هذه الآية الكريمة عند قوله تعالى: (فاحتمل السيل زبداً رابياً) «الزبد: هو الأبيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل، ويقال له الغثاء والرغوة، والرابي: العالي المرتفع فوق الماء» (٢٨) ثم يقول: والمراد من هذا تشبيه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الوادي وتدفعه الرياح، فكذلك يذهب الكفر ويضمحل» (٢٨).

وهذا التشبيه وإن كان كل جزء من أجزاء طرفيه له مقابل في الطرف الآخر، فإن حسنه يظهر في اجتماع أجزاء التركيب في كل من الطرفين. يقول الخطيب في هذا: الضرب من التشبيه المركب: «[هو] ما يصح تشبيه كل جزء من أجزاء أحد طرفيه بما يقابله من أجزاء الطرف الآخر، غير أن الحال تتغير . ومثاله قوله:

(٢٦) الرعد ١٧ .

(٢٧) فتح القدير ٩٠/٣ .

(٢٨) فتح القدير ٩٠/٣ .

وكان أجرام النجوم لوامعاً دررٌ نثرن على بساط أزرق^(٢٩)

فإنه لو قيل: «كان النجوم دررٌ، وكان السماء بساط أزرق» لكان تشبيهاً صحيحاً لكن أين يقع من التشبيه الذي يريك الهيئة التي تملأ القلوب سروراً وعجباً، من طلوع النجوم مؤتلفة، متفرقة في أديم السماء، وهي زرقاء زرقتها صافية؟! (٣٠).

ويواصل الإمام الشوكاني حديثه عن التشبيه في الآية الكريمة فيقول: «ثم شرع سبحانه في ذكر المثل الثاني فقال: (ومما يوقدون عليه في النار) من لابتداء الغاية، أي: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء، أو للتبعيض بمعنى: وبعضه زبد مثله، والضمير للناس، أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره... والمعنى: ومما توقدون عليه في النار فيذوب من الأجسام المنطوقة الذائبة (ابتغاء حلية) أي لطلب اتخاذ حلية تتزينون بها وتتجملون كالذهب والفضة (أو متاع) أي: أو طلب متاع تتمتعون به من الأواني والآلات المتخذة من الحديد والصفرة والنحاس والرصاص (زبد مثله) المراد بالزبد هنا الخبث، فإنه يعلو فوق ما أذيب من تلك الأجسام كما يعلو الزبد على الماء، فالضمير في مثله يعود إلى (زبدًا رابياً) (٣١).

ثم يبين الشوكاني رحمه الله وجه المماثلة بين الزبدتين حيث يقول: «وجه المماثلة بين الزبدتين في الزبد الذي يحمله السيل والزبد الذي يعلو الأجسام المنطوقة، أن تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صاراً زبدًا رابياً فوقه، وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى يذوب من الأجسام المنطوقة، فإن أصله من المعادن التي تنبت في الأرض فيخالطها التراب، فإذا أذيب صار ذلك التراب الذي خالطها خبثاً مرتفعاً فوقها» (٣٢).

(٢٩) البيت لأبي طالب الرقي، وهو في اليتيمة بلفظ «على زجاج»، انظر يتيمة الدهر للثعالبي ١/٢٤٦.

(٣٠) الإيضاح ٣٦٩.

(٣١) فتح القدير ٣/٩١٩٠.

(٣٢) فتح القدير ٣/٩١.

ويوضح الإمام الشوكاني معنى التشبيهين في الآية الكريمة ليظهر لنا حسن التركيب باجتماع أجزاء كل من طرفي التشبيه فيقول: «وهذان مثالان ضربهما الله سبحانه للحق والباطل، يقول: إن الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه، فإن الله سبحانه سيمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحل وكخبث هذه الأجسام فإنه وإن علا عليها فإن الكير يقذفه ويدفعه. فهذا مثل الباطل، وأما الماء الذي ينفع الناس وينبت المراعي فيمكث في الأرض، وكذلك الصفر من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصاً لا شوب فيه، وهو مثل الحق» (٣٣).

وللزجاج تفصيل عجيب في تشبيهي الآية ينقله الشوكاني وهو قوله: «مثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان كمثل هذا الماء المنتفع به في نبات الأرض وحياة كل شيء، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر لأنها كلها تبقى منتفعاً بها، ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذي يذهب جفاءً، وكمثل خبث الحديد وماتخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذي لا ينتفع به» (٣٤).

وعند الآية الكريمة القائلة: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ (٣٥) يقول موضحاً وجه الشبه والصفات التي وصف بها المشبه به: «أي: فصار لما انسلخ عن الآيات ولم يعمل بها منحطاً إلى أسفل رتبة مشابهاً لأخس الحيوانات في الدناءة، مماثلاً له في أقبح أوصافه، وهو أنه يلهث في كلا حالتي قصد الإنسان له وتركه، فهو لاهث سواء زجر أو ترك، طرد أو لم يطرد، شد عليه

(٣٣) فتح القدير ٩١/٣ .

(٣٤) فتح القدير ٩١/٣ .

(٣٥) الأعراف الآيتان ١٧٥ و ١٧٦ .

أو لم يشد عليه، وليس بعد هذا في الخسة والدناءة شيء، وجملة (إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) في محل نصب على الحال، أي: مثله كمثل الكلب حال كونه متصفاً بهذه الصفة، والمعنى: أن هذا المنسلخ عن الآيات لايرعوي عن المعصية في جميع أحواله سواء وعظه وذكره المذكر، وزجره الزاجر أو لم يقع شيء من ذلك. واللهث: إخراج اللسان لتعب أو غير ذلك. قال الجوهري: لهث الكلب بالفتح يلهث لهثاً ولهائاً بالضم إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش، وكذلك الرجل إذا أعيأ. قيل معنى الآية: إنك إذا حملت على الكلب نبج وولى هارباً، وإن تركته شدّ عليك ونبج، فيتعب نفسه مقبلاً عليك ومدبراً عنك، فيعتريه عند ذلك مايعتريه عند العطش من إخراج اللسان»^(٣٦). وستعرض لتفصيل الكلام عن الوجه في هذه الآية عند المبحث الثاني من هذا القسم.

وعند قوله تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾^(٣٧) يقول: «لما ذكر سبحانه حال المؤمنين، وما يؤول إليه أمرهم، ذكر مثلاً للكافرين فقال: (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) المراد بالأعمال هنا: هي الأعمال التي من أعمال الخير كالصدقة والصلة وفكّ العاني وعمارة البيت وسقاية الحاجّ. والسراب: ما يرى في المفاوز من لمعان الشمس عند اشتداد حرّ النهار على صورة الماء في ظن من يراه، وسمي سراباً لأنه يسرب، أي يجري كالماء، ... والقبيعة جمع قاع: وهو الموضع المنخفض الذي استقر فيه الماء، مثل جيرة وجار، (يحسبه الظمآن ماءً) هذه صفة ثانية لسراب، والظمآن: العطشان، وتخصيص الحسابان بالظمآن مع كون الريان يراه كذلك، لتحقيق التشبيه المبني على الطمع (حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) أي: إذا جاء العطشان ذلك الذي

(٣٦) فتح القدير ٣٠٢/٢ .

(٣٧) النور الآية ٣٩ .

حسبه ماءً لم يجده شيئاً مما قدره وحسبه ولا من غيره، والمعنى: أن الكفار يعولون على أعمالهم التي يظنونها من الخير، ويطمعون في ثوابها، فإذا قدموا على الله سبحانه لم يجدوا منها شيئاً، لأن الكفر أحبطها ومحا أثرها، والمراد بقوله: (حتى إذا جاءه) مع أنه ليس بشيء، أنه جاء الموضع الذي كان يحسبه فيه. ثم ذكر سبحانه ما يدل على زيادة حسرة الكفرة، وأنه لم يكن قصارى أمرهم مجرد الخيبة كصاحب السراب فقال: (ووجد الله عنده فوقاه حسابه والله سريع الحساب) أي: وجد الله بالمرصاد فوقاه حسابه، أي جزاء عمله» (٣٨).

ويقول عند قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظَلَمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نَوْراً فَمَا لَهُ مِنْ نَوْرٍ﴾ (٣٩): «(أو كظلمات) معطوف على كسراب، ضرب الله مثلاً آخر لأعمال الكفار، كما أنها تشبه السراب الموصوف بتلك الصفات، فهي أيضاً تشبه الظلمات. قال الزجاج: أعلم الله سبحانه أن أعمال الكفار إن مُثلت بما يوجد، فمثلها كمثل السراب، وإن مُثلت بما يرى، فهي كهذه الظلمات التي وصف. قال أيضاً: إن شئت مثل بالسراب، وإن شئت مثل بهذه الظلمات، فأو للتنويع حسبما تقدم من القول في (كصيب) قال الجرجاني: الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار، والثانية في ذكر كفرهم ونسق الكفر على أعمالهم لأنه أيضاً من أعمالهم. قال القشيري: فعند الزجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار، وعند الجرجاني لكفر الكفار. (في بحر لجي) اللجة: معظم الماء، والجمع: لجج، وهو الذي لا يدرك لعمقه. ثم وصف سبحانه هذا البحر بصفة أخرى فقال: (يغشاه موج) أي: يعلو هذا البحر موج فيستره ويغطيه بالكلية، ثم وصف هذا

(٣٨) فتح القدير ٤/٤٦٥.

(٣٩) النور الآية ٤٠.

الموج بقوله: (من فوقه موج) أي: من فوق هذا الموج موج، ثم وصف الموج الثاني فقال: (من فوقه سحب) أي: من فوق ذلك الموج الثاني سحب، فيجتمع حينئذٍ عليهم خوف البحر وأمواجه، والسحاب المرتفع فوقه. وقيل إن المعنى: يغشاه موج من بعد موج، فيكون الموج يتبع بعضه بعضاً حتى كأنه بعضه فوق بعض، والبحر أخوف ما يكون إذا توالى أمواجه، فإذا انضم إلى ذلك وجود السحاب من فوقه زاد الخوف شدة، لأنها تستر النجوم التي يهتدي بها من في البحر، ثم إذا أمطرت تلك السحب وهبت الريح المعتادة في الغالب عند نزول المطر، تكاثفت الهموم، وترادفت الغموم، وبلغ الأمر إلى الغاية التي ليس وراءها غاية، ولهذا قال سبحانه (ظلمات بعضها فوق بعض) أي: هي ظلمات، أو هذه ظلمات متكاثفة مترادفة، ففي هذه الجملة بيان لشدة الأمر وتعاضمه» (٤٠).

ثم يناقش الشوكاني تفسيراً آخر للآية عدّه غريباً، وكأنه يشير إلى أن الأصحّ في تفسير الآية هو التشبيه المذكور.

يقول في ذلك: «ومن غرائب التفاسير أنه سبحانه أراد بالظلمات: أعمال الكافر، وبالبحر اللجّي: قلبه، وبالموج فوق الموج: ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة. والسحاب: الرين والختم والطبع على قلبه، وهذا تفسير هو عن لغة العرب بمكان بعيد» (٤١).

والمأمل في حديث الشوكاني عن التشبيه في تين الآيتين وتفصيله فيهما وتتبعه لأجزاء التشبيه ومفردات الآيتين وما يتبع بعضها من صفات - يلمس فيه شيئاً من خصائص التشبيه المقيّد، لولا أنه نصّ على أن في الآية مثلاً .

(٤٠) فتح القدير ٤٧/٤ .

(٤١) فتح القدير ٤٧/٤ .

ولا جرم أن يكون التشبيه في الآية محتملاً للمقيد أو المركب قال الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي - بعد حديثه عن التشبيه في الآية الأولى - : «وهو تشبيه تمثيلي أو مقيد لا مفرق كما توهم» (٤٢) .

ويذكر الشهاب فائدة لطيفة في العطف بالحرف «أو» فيقول: «قوله» (٤٣): «أو للتنوع فكأنه قيل بعض أعمالهم كالسراب وهو الحسن وبعضها كالظلمات وهو القبيح» (٤٤) .

قلت: وبناء عليه فإنه «لحاجة إلى تقدير مضاف كما قيل أي كأعمال ذوي ظلمات» (٤٥) وكلام الإمام الشوكاني عن الآيتين قريب من هذا وإن قدر في الآية الثانية أن التمثيل - على رأي الزجاج - لكفر الكفار، فإن الاحتمال وارد مالم يُقدَّر مضاف .

ومن التشبيه المركب الذي فصل فيه الشوكاني قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (٤٦) يقول عند هذه الآية: «ذكر تعالى هنا مثلاً للكلمة الطيبة، وهي كلمة الإسلام، أي: لا إله إلا الله، أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الخير، وذكر مثلاً للكلمة الخبيثة وهي كلمة الشرك، أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الشرّ، فقال مخاطباً لرسوله ﷺ ، أو مخاطباً لمن يصلح للخطاب: (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً) أي: اختار مثلاً

(٤٢) حاشية الشهاب ٣٨٨/٦ .

(٤٣) الضمير في « قوله » يعود على البيضاوي .

(٤٤) حاشية الشهاب ٣٨٩/٦ .

(٤٥) المصدر السابق ٣٨٩/٦ .

(٤٦) إبراهيم الآيات ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ .

وضعه في موضعه اللائق به، .. أي جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة، وحكم بأنها مثلها، .. ثم وصف الشجرة بقوله: (أصلها ثابت) أي: راسخ آمن من الانقلاع بسبب تمكنها من الأرض بعروقها (وفرعها في السماء) أي: أعلاها ذاهب إلى جهة السماء مرتفع في الهواء، ثم وصفها سبحانه بأنها (تؤتي أكلها كل حين) كل وقت (بإذن ربها) بإرادته ومشيتته، قيل: وهي النخلة، وقيل: غيرها» (٤٧).

ثم يثنى بالكلام عن تشبيه الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة ويبدأ كلامه ببيان قيمة ضرب الأمثال في القرآن وفائدته في زيادة التذكير وتصوير المعاني فيقول: «وفي ضرب الأمثال زيادة تذكير وتفهم وتصوير للمعاني، (ومثل كلمة خبيثة) قد تقدم تفسيرها، وقيل: هي الكافر نفسه والكلمة الطيبة: المؤمن نفسه (كشجرة خبيثة) أي: كمثل شجرة خبيثة، قيل: هي شجرة الحنظل، وقيل: هي شجرة الثوم، وقيل هي الكمأة، وقيل: الطحلبة، وقيل: هي الكشوث بالضم وآخره مثلثة، وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض. قال الشاعر:

وهم كشوث فلا أصل ولا ورق (٤٨)

(اجتثت من فوق الأرض) أي: استؤصلت واقتلعت من أصلها، ومعنى (من فوق الأرض) أنه ليس لها أصل راسخ وعروق متمكنة من الأرض (مالها من قرار) أي: من استقرار على الأرض، كما أن الكافر وكلمته لا حجة ولا ثبات فيه ولا خير يأتي منه أصلاً، ولا يصعد له قول طيب ولا عمل طيب» (٤٩).

وعند قوله تعالى: ﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾ (٥٠) يقول: «تكرير ذكر

(٤٧) فتح القدير ١٢٧/٣ .

(٤٨) البيت في اللسان بلا نسبة ١٨١/٢ وعجزه: ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر .

(٤٩) فتح القدير ١٢٨/٣ .

(٥٠) الفتح ٢٩ .

المثل لزيادة تقريره وللتنبية على غرابته وأنه جارٍ مجرى الأمثال في الغرابة (كزرع أخرج شطأه) إلخ كلام مستأنف، أي: هم كزرع إلخ... قال الزجاج: (أخرج شطأه أي نباته. وقال قطرب: الشطء: شوك السنبل. وروي عن الفراء أيضاً أنه قال: هو السنبل. وقال الجوهري: شطء الزرع والنبات: فراخه، والجمع أشطاء. وقد أشطاء الزرع خرج شطؤه. (فأزره) أي: قواه وأعانه وشده، وقيل: المعنى: إن الشطء قوى الزرع، وقيل: إن الزرع قوى الشطء، ومما يدل على أن الشطء خروج النبات قول الشاعر:

أخرج الشطء على وجه الثرى ومن الأشجار أفنان الثمر

(فاستغلف) أي: صار ذلك الزرع غليظاً بعد أن كان دقيقاً (فاستوى على سوقه) أي: فاستقام على أعواده، والسوق: جمع ساق. وقرأ قنبل: سوقه بالهمزة الساكنة (يعجب الزراع) أي: يعجب هذا الزرع زراعته، لقوته وحسن منظره، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لأصحاب النبي ﷺ وأنهم يكونون في الابتداء قليلاً، ثم يزدادون ويكثرون ويقوون كالزرع، فإنه يكون في الابتداء ضعيفاً، ثم يقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ ساقه. قال قتاده: مثل أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر» (٥١).

ونلاحظ في كلام الشوكاني عند التشبيه في الآية أنه سماه مثلاً ثم أشار إلى ما في الأمثال من غرابة، ومن المعلوم أن غرابة الأمثال إنما هي فيما اشتهر من التمثيلات المركبة على سبيل الاستعارة التمثيلية، وما نحن بصددده هو من التشبيه التمثيلي. وهو هنا نظير قولهم: أنت كالراقم على الماء وكالذي ينفخ في غير فحم، وكقولهم: هو كمن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى. وهذا التشبيه لا يصح أن يسمى مثلاً على سبيل الاستعارة التمثيلية لكون التشبيه ملفوظاً به وبأداته وذكر طرفاه. أما الاستعارة التمثيلية فإنه يستعمل فيها اللفظ المركب الدال على المشبه به في المشبه وفي ذلك استعارة صورة مركبة لصورة أخرى.

وأما جعل الشوكاني الآية من المثل، فهذه التسمية فيها تسامح، وهي أقرب إلى المعنى اللغوي للمثل من الاصطلاحي البياني.

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صُمُّ بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ (٥٢): «فيه تشبيه واعظ الكافرين وداعيتهم - وهو محمد ﷺ - بالراعي الذي ينعق بالغنم أو الأبل، فلا تسمع إلا دعاءً ونداءً، ولا تفهم ما يقول، هكذا فسره الزجاج والفرأء وسيبويه، وبه قال جماعة من السلف. قال سيبويه: لم يُشَبَّهوا بالناقع، وإنما شُبَّهوا بالمنعوق به، والمعنى: مثلك يا محمد ! ومثل الذين كفروا كمثل الناقع والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم، فحذف لدلالة المعنى عليه. وقال قطرب: المعنى: مثل الذين كفروا في دعائهم ما لا يفهم - يعني الأصنام - كمثل الراعي إذا نعق بغنمه وهو لا يدري أين هي. وبه قال ابن جرير الطبري. وقال ابن زيد: المعنى: مثل الذين كفروا في دعائهم الآلهة الجماد كمثل الصائح في جوف الليل، فيجيبه الصدى، فهو يصيح بما لا يسمع، ويجيبه ما لا حقيقة فيه. والنعق: زجر الغنم والصياح بها، يقال: نعق الراعي بغنمه ينعق نعيقاً ونعاقاً ونعقناً، أي: صاح بها وزجرها، والعرب تضرب المثل براعي الغنم في الجهل، ويقولون: أجهل من راعي ضأن» (٥٣).

وعند قوله تعالى: ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ﴾ (٥٤) يقول: «معنى الآية: مثل نفقة الكافرين في بطلانها، وذهابها، وعدم منفعتها، كمثل زرع أصابه ريح باردة، أو نار فأحرقتة أو أهلكته، فلم ينتفع أصحابه بشيء منه بعد أن كانوا على طمع من نفعه وفائدته. وعلى هذا فلا بد من تقدير في جانب المشبه به، فيقال: كمثل زرع أصابته ريح فيها صرٌ، أو: مثل إهلاك ما ينفقون، كمثل إهلاك ريح فيها صرٌ، أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم» (٥٥).

(٥٢) البقرة ١٧١ .

(٥٣) فتح القدير ١/ ١٩٤ .

(٥٤) آل عمران ١١٧ .

(٥٥) فتح القدير ١/ ٤٢٩ .

وكلام الشوكاني هنا عن وجه الشبه يُفهم منه تركيب التشبيه، غير أنه عقب بتقدير في جانب المشبه أو المشبه به، وقد أشرنا فيما سبق إلى أن الشوكاني يبحث عن التناسب بين طرفي التشبيه، وأسلفنا كذلك في حديثه عن المركب أن المشبه به فيه ليس هو ما دخلت عليه أداة التشبيه ولا مفرد يُتمحل تقديره.

والأقرب إلى الصواب في التشبيه في هذه الآية هو ما ذكره الزمخشري بقوله: «شبه ما كانوا ينفقون في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله بالزرع الذي حسنه البرد فذهب حطاماً، وقيل هو ما كانوا يتقربون به إلى الله مع كفرهم، وقيل ما أنفقوا في عداوة رسول الله ﷺ، فضاع عنهم لأنهم لم يبلغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله، وشبه بحرث (قوم ظلموا أنفسهم) فأهلك عقوبة لهم على معاصيهم لأن الإهلاك عن سخط أشد وأبلغ» (٥٦).

والواضح أن التقدير الذي ذكره الشوكاني أنفاً مبني على اعتراض طرحه الزمخشري وأجاب عنه حيث يقول: «فإن قلت: الغرض تشبيه ما أنفقوا في قلة جدواه وضياعه بالحرث الذي ضربته الصر والكلام غير مطابق للغرض حيث جعل ما ينفقون ممثلاً بالريح. قلت هو من التشبيه المركب الذي مر في تفسير قوله - كمثل الذي استوقد ناراً - ويجوز أن يراد مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث» (٥٦).

وكذلك فإن التقدير لا يدخل دخولاً أولياً ومباشراً في أحد طرفي التشبيه فالتشبيه يظهر من لفظه التركيب المقصود وصورة المشبه به جلية دون تقدير بالنظر إلى نظم الآية، وهذا شأن المركب. فترك التقدير أولى، والله أعلم.

المبحث الثاني : وجه الشبه

هو الصفة التي تجمع بين طرفي التشبيه، وهي في المشبه به أقوى منها في المشبه؛ وينقسم الوجه إلى عقلي، وحسي، وكل منهما إلى مفرد ومتعدد ومركب. وقد تناول الشوكاني وجه الشبه في كثير من تشبيهات القرآن بالتفصيل والتحليل، وربما وقف عند بعضها مستقصياً الاحتمالات فيها، أو يمرّ سريعاً مشيراً إلى الوجه، وقد يجعل الشوكاني الوجه مدار حديثه عن التشبيه في الآية. وشمل تناوله لوجه الشبه المركب والمفرد والمتعدد عقلياً وحسياً. فمن وجه الشبه المفرد الحسي قوله عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾^(١): «في الهيئة والصورة»^(٢) وليس الوجه هنا متعدداً لكون الهيئة والصورة هنا مترادفتان. ويقول عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً﴾^(٣): «شبهه سبحانه ما يستتر من ظلام الليل باللباس الساتر. قال ابن جرير: وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث إنه يستر الأشياء ويغشاها»^(٤). وعند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدَبِّرًا وَلَمْ يَعْقِبْ﴾^(٥) يقول الشوكاني: «قال الزجاج: إنما شبهها بالجأن في خفة حركتها، وشبهها في موضع آخر بالثعبان لعظمها»^(٦) والموضع الآخر الذي أراده

(١) إبراهيم ١٠ .

(٢) فتح القدير ١١٧/٣ .

(٣) الفرقان ٤٧ .

(٤) فتح القدير ٩٣/٤ .

(٥) النمل ١٠ .

(٦) فتح القدير ١٤٧/٤ .

الشوكاني هنا هو قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (٧). والملاحظ أنه ليس في الآية الثانية تشبيه إذ أصبحت العصا ثعباناً حقيقة، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ (٨)، فلم يُذكر التشبيه في الآيتين. كما أن الشوكاني لم يذكر التشبيه عند هذه الآية.

وقد جمع القرطبي بين الآيات الثلاث بقوله: (قيل: المعنى انقلبت ثعباناً تهتز كأنها جانٌّ لها عظم الثعبان وخفة الجان واهتزازه وهي حية تسعى) (٩) فيكون التشبيه للعصا بعد أن أصبحت ثعباناً أو حية، وذلك بأن شبهت بالجان في خفتها وسرعة حركتها، وهذا من الوجه المفرد الحسي كما ذكرنا.

ويقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَازِلَةٌ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (١٠): «شبه الموج لكبره: بما يظل الإنسان من جبل، أو سحب، أو غيرهما» (١١).

وعند قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ (١٢) يقول - رحمه الله - : «(كأنهم) في الحسن والبهاء (لؤلؤ مكنون)» (١٣). وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ، تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ (١٤) يقول الشوكاني: «شبههم في طول قاماتهم حين

(٧) الأعراف ١٠٧ .

(٨) طه ٢٠ .

(٩) الجامع لأحكام القرآن ١٠٨/١٣ .

(١٠) لقمان ٣٢ .

(١١) فتح القدير ٢٨١/٤ .

(١٢) الطور ٢٤ .

(١٣) فتح القدير ١١٨/٥ .

(١٤) القمر ٢٠ و ١٩ .

صرعتهم الريح وطرحتهم على وجوههم بالنخل الساقط على الأرض التي ليست لها رؤوس، وذلك أن الريح قلعت رؤوسهم أولاً، ثم كَبَّتْهم على وجوههم»^(١٥) .

وعند قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾^(١٦) يقول الشوكاني: «المعنى: أنه خلقه من طين يشبهه في يبسه الخُزْف»^(١٧) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾^(١٨) : «قيل: العهن: الصوف ذو الألوان، فشبه الجبال به في تَكُونُها ألواناً»^(١٩) .

وقد تناول الشوكاني الوجه المفرد العقلي، وهذا النوع يكون طرفاه إما عقليين أو حسيين أو مختلفين، والعقلي هو ما لا يدرك بالحواس ولا تقع عليه.

ومما تناوله الشوكاني من الوجه المفرد العقلي قوله تعالى: ﴿ إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(٢٠) يقول عند هذه الآية: «تشبيه عيسى بآدم في كونه مخلوقاً من غير أبٍ كآدم»^(٢١) ويبين الشوكاني أن الصفة المشتركة بين الطرفين في هذه الآية لا يقدح فيها كون المشبه به مشتملاً على زيادة، فمن المعلوم أنه يجب أن تكون الصفة موجودة في كل من الطرفين، فيبين الشوكاني أن اشتمال المشبه به على زيادة لا يؤثر في الصفة المشتركة بينهما، بل يفهم من هذه الصفة أنها في المشبه به أقوى منها في المشبه . يقول الشوكاني: «ولا يقدح في التشبيه اشتمال المشبه به على زيادة وهو كونه لا أم له،

(١٥) فتح القدير ١٥١/٥ .

(١٦) الرحمن ١٤ .

(١٧) فتح القدير ١٦١/٥ .

(١٨) المعارج ٩ .

(١٩) فتح القدير ٣٤٦/٥ .

(٢٠) آل عمران ٥٩ .

(٢١) فتح القدير ٣٩٧/١ .

كما أنه لا أب له، فذلك أمر خارج عن الأمر المراد بالتشبيه، وإن كان المشبه به أشد غرابة من المشبه، وأعظم عجباً وأغرب أسلوباً»^(٢٢). فاحترز الشوكاني من أن يتوهم في التشبيه صفة غير المرادة.

وهذا القول يشبه ما أشار إليه البلاغيون^(٢٣) في نحو قول القائل: «النحو في الكلام كالمالح في الطعام» قال الخطيب: «وإذا علم أن وجه الشبه هو ما يشترك فيه الطرفان علم فساد جعله في قول القائل: «النحو في الكلام كالمالح في الطعام» كون القليل مصلحاً والكثير مفسداً. لأن القلة والكثرة إنما يتصور جريانها في الملح، وذلك بأن يجعل منه في الطعام القدر المصلح أو أكثر منه، دون النحو. فإنه إذا كان من حكمه رفع الفاعل ونصب المفعول - مثلاً - فإن وجد ذلك في الكلام فقد حصل النحو فيه، وانتفى الفساد عنه، وصار منتفعاً به في فهم المراد منه، وإلا لم يحصل وكان فاسداً لا ينتفع به. فالوجه فيه: هو كون الاستعمال مصلحاً، والإهمال مفسداً، لاشتراكهما في ذلك»^(٢٤).

والصفة المشتركة (وجه الشبه) بين خلق عيسى وخلق آدم هو ما أسلفناه^(٢٥) وهو إيجاد كل منهما بأسباب غير التي أوجد بها غيرهما من الناس، وهي في آدم أقوى منها في عيسى لكون عيسى أوجد ببعضها وهي الأم، أما آدم فقد أوجد بدون تلك الأسباب وهي الأب والأم معاً.

ومن الوجه المفرد العقلي قوله عند قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾^(٢٦): «(وأزواجه أمهاتهم) أي: مثل أمهاتهم في

(٢٢) فتح القدير ٣٩٧/١.

(٢٣) انظر الأسرار ٧١ والمفتاح ١٦١.

(٢٤) الإيضاح ٣٤٠.

(٢٥) انظر ص ٢٤ من هذا البحث.

(٢٦) الأحزاب ٦.

الحكم بالتحريم، ومنزلات منزلتهن في استحقاق التعظيم^(٢٧). قلت: وقد يحتمل الوجه أن يكون من المتعدد العقلي، أما الوجه المفرد فإنه مماثلتهن رضي الله عنهن لأمهات المؤمنين في التحريم ويلاحظ كون التشبيه هنا بليغاً، ولم يُشر الشوكاني إلى ذلك، وقد تجاوز كثيراً من التشبيهات البليغة في الآيات الكريمة دون أن يذكر ذلك.

وإذا كان الطرفان عقليين أو أحدهما فلا يكون الوجه إلا عقلياً. يقول الشوكاني مشيراً إلى الوجه العقلي عند قوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾^(٢٨): «أي: وهي تسير سيراً حثيثاً سير السحاب التي تسيرها الرياح. قال العتبي: وذلك أن الجبال تجمع، وتسير وهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير»^(٢٩) فسير الجبال وحركتها مما لا تقع عليه حواس الإنسان فهو داخل في عموم العقلي أما سير السحاب فهو مبصر بالعين.

ومما عده الشوكاني مفرداً عقلياً، قوله تعالى: ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾^(٣٠) يقول: «شبه الكافر في ثقل الإيمان عليه بمن يتكلف ما لا يطيقه كصعود السماء»^(٣١).

أما الوجه المركب فقد تناوله الشوكاني بنوعيه الحسي والعقلي، فمن المركب الحسي قوله تعالى: ﴿فمثلته كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾^(٣٢) يقول عند هذه الآية: «صار لما انسلخ عن الآيات ولم يعمل بها

(٢٧) فتح القدير ٣٠١/٤ .

(٢٨) النمل ٨٨ .

(٢٩) فتح القدير ١٧٩/٤ .

(٣٠) الأنعام ١٢٥ .

(٣١) فتح القدير ١٨٣/٢ .

(٣٢) الأعراف ١٧٦ .

منحطاً إلى أسفل رتبة مشابهاً لأخس الحيوانات في الدناءة، مماثلاً له في أقبح صفاته»^(٣٣) ثم يوضح الوجه المركب ببيان صفة هذا الحيوان، بقوله: «وهو أنه يلهث في كلا حالتي قصد الإنسان له وتركه، فهو لاهث سواء زجر أو ترك، طرد أو لم يطرد، شدَّ عليه أو لم يشدَّ عليه»^(٣٣).

وقد ذكر الشهاب احتمالات ثلاثة للوجه في هذه الآية أوجزها من الكشف إذ يقول: «ذكر فيه ثلاثة أوجه في الكشف، الأول: تشبيهه بالكلب في الخسة تشبيه مفرد بمفرد، الثاني: تشبيهه به في استواء الحالتين في النقصان وأنه ضالٌّ وعُظ أو لم يوعظ، كالكلب يلهث حمل عليه أو لم يحمل، والظاهر أنه تشبيه مركب في هذا الوجه، والثالث: التشبيه به في اللهث، وهذا هو الوجه الذي ذكره المصنف [يعني البيضاوي] فوجه التشبيه في الأولين عقلي وفي الثالث حسي»^(٣٤).

وعند قوله تعالى - في تشبيه حور الجنة - : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾^(٣٥) يقول: شبههن في صفاء اللون مع حمرة بالياقوت والمرجان»^(٣٦).

ويتناول الشوكاني الوجه العقلي المركب عند عدد من آي القرآن الكريم، فعند قوله تعالى: ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثّل ربح فيها صرّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ﴾^(٣٧) يقول: «مثل نفقة الكافرين في بطلانها، وذهابها وعدم منفعتها، كمثّل زرع أصابه ربح باردة، أو نار فأحرقته، أو

(٣٣) فتح القدير ٣٠٢/٢ .

(٣٤) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٢٣٧/٤ .

(٣٥) الرحمن ٥٨ .

(٣٦) فتح القدير ١٧٠/٥ .

(٣٧) آل عمران ١١٧ .

أهلكته، فلم ينتفع أصحابه بشيء منه بعد أن كانوا على طمع من نفعه وفائدته» (٣٨) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ﴾ (٣٩) : «المعنى: أن مثلها في سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضاد ما كانت عليه وبيانه، مثل ما على الأرض من أنواع النبات في زوال رونقه وذهاب بهجته وسرعة تقضيته، بعد أن كان غصناً مخضراً طرياً قد تعانقت أغصانه المتمايلة، وزهت أوراقه المتصافحة، وتلألأت أنوار نوره، وحاكت الزهر أنواع زهره» (٤٠) .

وعند قوله تعالى: ﴿ مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ (٤١) يقول - رحمه الله - : « ضرب الله سبحانه هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار وأنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يومٍ عاصف... والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما دلّ عليه التمثيل، أي : هذا البطالان لأعمالهم وذهاب أثرها (هو الضلال البعيد) عن طريق الحق، المخالف لمنهج الصواب» (٤٢) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مِّثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنْ

(٣٨) فتح القدير ٤٢٩/١ .

(٣٩) يونس ٢٤ .

(٤٠) فتح القدير ٤٩٧/٢ .

(٤١) إبراهيم ١٨ .

(٤٢) فتح القدير ١٤١/٣ .

السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا ﴿٤٣﴾ : «اذكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا في حسنها ونضارتها وسرعة زوالها لتلا يركنوا إليها» (٤٤) .

كذلك تناول الشوكاني الوجه المتعدد فمن الحسي عند قوله تعالى: ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾ (٤٥) يقول في بيان الوجه المتعدد: «إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم وصفاء ألوانهم ونضارة وجوههم لؤلؤاً مفرقاً .. قال أهل المعاني: إنما شبهوا بالمنتثر لانتشارهم في الخدمة، ولو كانوا صفاءً لشبهوا بالمنظوم» (٤٦) وعلى هذا فالوجه المتعدد هنا هو: الحسن وصفاء اللون ونضارة الوجه والانتثار وسرعة الحركة. وقد ذكر الشوكاني عن بعضهم أنهم «إنما شبهوا بالمنتثر لأنهم سراع في الخدمة» (٤٦) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿قل فاتوا بعشر سور مثله﴾ (٤٧) : «أي: مماثلة له في البلاغة، وحسن النظم، وجزالة اللفظ، وفخامة المعاني» (٤٨) .

ويقول في المتعدد العقلي عند قوله تعالى: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم﴾ (٤٩) : «أي: لا تكن مثله في الغضب والضجر والعجلة» (٥٠) وقد ذكرنا من قبل فائدة الحال المقيدة للمشبه به وهو قوله تعالى: (إذ نادى وهو مكظوم) وهذه الفائدة هي أنه يتوقف نهى الله لنبيه ﷺ عن

(٤٣) الكهف ٤٤ .

(٤٤) فتح القدير ٣/٣٤٣ .

(٤٥) الإنسان ١٩ .

(٤٦) فتح القدير ٥/٤٢٣ .

(٤٧) هود ١٣ .

(٤٨) فتح القدير ٢/٥٥٢ .

(٤٩) ن ٤٨ .

(٥٠) فتح القدير ٥/٣٣٠ .

الامتثال بيونس عليه السلام في حال خروجه مغاضباً، وإلا فالأنبياء بعضهم أسوة لبعض (٥١).

ويذكر الشوكاني الوجه المتعدد المختلف، فعند قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمثالكم﴾ (٥٢) يعرض الشوكاني عدداً من الأَقوال، ثم يعقبها بأن الأولى أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه، يقول: «إلا أم أمثالكم» أي جماعات مثلكم خلقهم كما خلقكم، ورزقهم كما رزقكم، داخلة تحت علمه وتقديره وإحاطته بكل شيء، وقيل: أمثالنا في ذكر الله والدلالة عليه، وقيل: أمثالنا في كونهم محشورين. وقال سفيان بن عيينة: أي مامن صنف من الدواب والطيور إلا في الناس شبه منه، فمنهم من يعدو كالأسد، ومنهم من يشربه كالخنزير، ومنهم من يعوي كالكلب، ومنهم من يزهو كالطاووس، وقيل: (أمثالكم) في أن لها أسماءً تُعرف بها. وقال الزجاج: (أمثالكم) في الخلق والرزق والموت والبعث والاقتصاص والأولى أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائناً ما كان» (٥٣).

ويشير الشوكاني إلى اختلاف المفسرين في وجه التشبيه. وقد ظهر مع هذا الاختلاف تعدد وجه الشبه واختلافه بين الحسي والعقلي. يقول عند قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ (٥٤): «اختلف المفسرون في وجه الشبه ما هو فقيل: هو قدر الصوم ووقته، فإن الله كتب على اليهود والنصارى صوم رمضان فغيروا، وقيل: هو الوجوب، فإن الله أوجب على الأمم الصيام، وقيل: هو الصفة، أي: ترك الأكل

(٥١) انظر التشبيه المقيد ص ٣٩ من هذا البحث.

(٥٢) الأنعام ٣٨.

(٥٣) فتح القدير ١٣٠/٢.

(٥٤) البقرة ١٨٣.

والشرب ونحوهما في وقت [معين] . فعلى الأولى معناه: أن الله كتب على هذه الأمة صوم رمضان كما كتبه على الذين من قبلهم، وعلى الثاني: أن الله أوجب على هذه الأمة الصيام كما أوجبه على الذين من قبلهم، وعلى الثالث: أن الله سبحانه أوجب على هذه الأمة الإمساك عن المفطرات كما أوجبه على الذين من قبلهم»^(٥٥) .

وقد يكون الوجه متعددًا مختلفًا، والطرفان بينهما تشابه لتساويهما في ذلك، فالقرآن يشبه بعضه بعضاً في عدة وجوه، يقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾^(٥٦) : «أي: يشبه بعضه بعضاً في الحسن والإحكام وصحة المعاني، وقوة المباني ، وبلوغه إلى أعلى درجات البلاغة. وقال قتادة: يشبه بعضه بعضاً في الآي والحروف، وقيل: يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه»^(٥٧) .

وكلام الشوكاني هنا يُشعر بأن في الآية تشبيهاً ، حيث يقول : « يشبه بعضه بعضاً » ، والذي عليه البلاغيون أن في الآية تشابهاً، قال البيضاوي: «تشابهه تشابه أبعاضه في الإعجاز وتجاوب النظم، وصحة المعنى والدلالة على المنافع العامة»^(٥٨) .

(٥٥) فتح القدير ٢٠٧/١ .

(٥٦) الزمر ٢٣ .

(٥٧) فتح القدير ٥٢٦/٥ .

(٥٨) تفسير البيضاوي ٣٢٣/٢ .

المبحث الثالث : أدوات التشبيه

الأداة هي الركن الثالث في التشبيه، وهي اسم أو فعل أو حرف، وقد سميت أداة لتشمل الأنواع الثلاثة.

وتتعدد معاني أدوات التشبيه، وتتفاضل تبعاً لأنواعها ومعانيه، وقد كثر ورود بعض أدوات التشبيه في القرآن الكريم، ومن ذلك الأدوات: مثل والكاف وكأن .

وقد ذكر الشوكاني مواضع للتشبيه بالأداة الاسمية «مثل» وهي أعم الأدوات في معنى المشابهة والمماثلة في الصفات، وربما جاءت مساوية للكاف، وتحمل الكاف على معنى مثل إذا وقعت الكاف اسماً. يقول - رحمه الله - في تفسير الكاف «بمثل» عند قوله تعالى: ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ﴾ (١): «مثلهم مرتفع بالابتداء، وخبره إما الكاف في قوله (كمثل) لأنها اسم أي: مثلٌ مثلٌ كما في قول الأعشى:

انتتهون ولن ينهى ذوي شطط
كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل (٢)
أراد مثل الطعن» (٣).

وقد تسهم في إفادة المبالغة حين يراد جعل المشبه والمشبه به شيئاً واحداً، يقول عند قوله تعالى: ﴿ قالوا إنما البيع مثل الربا ﴾ (٤): «أي: أنهم جعلوا البيع والربا شيئاً واحداً، وإنما شبهوا البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا أصلاً والبيع فرعاً، أي: إنما البيع بلا زيادة عند طول الأجل كالبيع بزيادة عند حوله» (٥).

فالمبالغة هنا من قلب التشبيه بجعل الربا أصلاً والبيع فرعاً، والأداة «مثل» ساعدت على تحقيق هذه المبالغة.

(١) البقرة ١٧ .

(٢) انظر البيت في ديوان الأعشى ١١٣ ، ولسان العرب ٢٧٢/١٤ .

(٣) فتح القدير ٥٥/١ .

(٤) البقرة ٢٧٥ .

(٥) فتح القدير ٣٩٩/١ .

والشوكاني هنا يذهب إلى القول بأن «مِثْل» أداة تجمع كافة المعاني الموضوعية للمشابهة على ماذهب إليه الراغب^(٦) والفيروزآبادي، يقول الثاني: «قد يُستعمل المِثْل عبارة عن المشابه لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان، وهو أعم الألفاظ الموضوعية للمشابهة^(٧) على أن كلام الفيروز آبادي في هذا أدق من كلام الراغب برغم اتفاق عباراتهما في معظم اللفظ، إذ جعل الراغب المِثْل بمعنى المِثْل، وهذا فيه نظر كما حققه شيخنا الأستاذ الدكتور عبدالعظيم المطعني^(٨).

قال السبكي: «ومما يدل على أن كلمة «مِثْل» مطلق المشابهة قول النحاة إنها لا تتعرف بالإضافة لتوغلها في الإبهام لأنك إذا قلت زيد مثل عمرو احتمل أن يكون مثله في جنسه أو صفته الظاهرة أو الباطنة فهي صادقة على كل مماثلة في شيء فلا تكون معرفة»^(٩).

ومن عموم دلالة «مِثْل» على المشابهة في معنى من المعاني عند الإمام الشوكاني؛ دلالتها على الهيئة والصورة وعلى المثلية في المعنى دون اللفظ، فالأول

(٦) المفردات ٤٦٢ .

(٧) بصائر ذوي التمييز ٤/٤٨١ .

(٨) ذكر الدكتور عبدالعظيم فروقاً بين كلمتي (مِثْل) بفتح الميم والتاء و(مِثْل) بكسر الميم، بناءً على استقراء النصوص القرآنية والحديثية والتراثية، وهذه الفروق ملخصها الآتي:
(أ) كلمة (مِثْل) تأتي في سياق التنظير بين الصور والهيئات، فلا يصاحبها في هذا الشأن إلا التركيب أما كلمة (مِثْل) فتأتي لمجرد التنظير والتشبيه بين مفردين. (ب) كلمة «مِثْل» تأتي في سياق التشبيهات المشهورة وكلمة «مِثْل» للتشبيه العارض أو اللمحة البارقة. (ج) كلمة «مِثْل» لاتأتي إلا مشبهاً ومشبهاً به، ولا تكون أداة، أما كلمة «مِثْل» فهي أداة تشبيه. انظر «من قضايا البلاغة والنقد» (٨٦ و٨٧) للدكتور عبدالعظيم المطعني.

(٩) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ٣/٣٩٤.

في قوله تعالى: ﴿ قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ (١٠) يقول الشوكاني عند هذه الآية: «أي: ما أنتم إلا بشر مثلنا في الهيئة والصورة» (١١).

والثاني في قوله تعالى: ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ (١٢): يقول: «وشهد شاهد من بني إسرائيل العالمين بما أنزل الله في التوراة على مثله أي: القرآن من المعاني الموجودة في التوراة المطابقة له من إثبات التوحيد والبعث والنشور وغير ذلك، وهذه المثلية هي باعتبار تطابق المعاني وإن اختلفت الألفاظ» (١٣) فالتطابق هنا ليس للظاهر وإنما هو لما وراءه.

وقد تكون دلالتها على المثلية في الظاهر دون ما وراءه من باطن خفي، حيث يقول عند قوله تعالى: ﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾ (١٤): «إنكم إن فعلتم ذلك ولم تنتهوا فأنتم مثلهم في الكفر. قيل: وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر» (١٥).

ومن دلالتها على الكمية عند الشوكاني، قوله عند قوله تعالى: ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ (١٦): «خلق من الأرض مثلهن يعني سبعاً» (١٧).

ويذكر الشوكاني مجيء الاسم «مثل» لغير التشبيه، فعند قوله تعالى: ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ (١٨) يقول: «المراد بذكر المثل هنا: المبالغة في النفي بطريق الكناية،

(١٠) إبراهيم ١٠.

(١١) فتح القدير ١١٧/٣.

(١٢) الأحقاف ١٠.

(١٣) فتح القدير ٢٠/٥.

(١٤) آل عمران ١٤٠.

(١٥) فتح القدير ٦٠٧/١.

(١٦) الطلاق ١٢.

(١٧) فتح القدير ٢٩٥/٥.

(١٨) الشورى ١١.

فإنه إذا نفي عمن يماثله كان نفيه عنه أولى. كقولهم: مثلك لا ييخل، وغيرك لا يجود... وقال أبوالبقاء مرجحاً لزيادة الكاف: إنها لو لم تكن زائدة لأفضى ذلك إلى المحال، إذ يكون المعنى: أن له مثلاً، وليس لمثله مثل، وفي ذلك تناقض، لأنه إذا كان له مثل فلمثله مثل، وهو هو مع أن إثبات المثل لله سبحانه محال، وهذا تقرير حسن، ولكنه يندفع ما أورده بما ذكرنا من كون الكلام خارجاً مخرج الكناية» (١٩).

وهذا الوجه الذي ذكره الشوكاني حسن لكونه يؤيد امتناع الزيادة في القرآن ويخرج الآية من التقديرات والتمحلات التي لا طائل وراءها. والله أعلم. ومن الأسماء التي عدها الشوكاني أدوات للتشبيه كلمة «صنو» إذ يذكر دلالتها على التشبيه بمعنى «مثل» فعند قوله تعالى: ﴿وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان﴾ (٢٠) ينقل الشوكاني قول ابن الأعرابي: الصنو: المثل، ومنه قوله ﷺ: (عم الرجل صنو أبيه) ثم يبني الشوكاني عليه قوله: «فمعنى الآية على هذا: أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة وقد لا تكون» (٢١).

أما الكاف فالأصل فيها أن يليها المشبه به، ونقف مع الشوكاني عند بعض الآيات التي أشار فيها إلى المشبه به واقعاً بعد الكاف ففي قوله تعالى: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصمّ والسميع والبصير هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون﴾ (٢٢) يقول: «ضرب للفريقين مثلاً، وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع» (٢٣) فالمشبه به في هذه الآية هو

(١٩) فتح القدير ٦٠٥/٤ .

(٢٠) الرعد ٤ .

(٢١) فتح القدير ٧٩/٣ .

(٢٢) هود ٢٤ .

(٢٣) فتح القدير ٥٥٨/٢ .

مابعد الأداة كما يفهم من كلام الشوكاني، كما أن ماعطف على مابعدا في حكم مابعدا. وعند قوله تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة..﴾ (٢٤) يقول: «أي هذه القلوب هي كالحجارة أو هي أشد قسوة منها، فشبهوها بأي الأمرين شئتم فإنكم مصيبون في هذا التشبيه» (٢٥). وفي هذا ما لا يحتاج إلى نظر من وقوع المشبه به بعد الكاف، وهو مفهوم من كلامه ضرورة.

وقد يقع بعدها ما ليس بالمشبه به، ويتناول الشوكاني هذا عند قوله تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ (٢٦) فيقول: «وليس المشبه به هو مادخله الكاف في قوله: (كماء أنزلناه من السماء) بل ما يفهم من الكلام» (٢٧)، فالتشبيه في هذه الآية مستغن عن أن يقدر بعد الكاف مفرد يكون مشبهاً به.

والملاحظ في تشبيهات القرآن المركبة أن أداة التشبيه تدخل على أهم عنصر من عناصر التركيب.

وقد يقع بعد الكاف ما ليس مشبهاً به ويكون المشبه به مفرداً يقدر بعدها، ففي قوله تعالى: ﴿فلإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي

(٢٤) البقرة ٧٤ .

(٢٥) فتح القدير ١١٨/١ .

(٢٦) يونس ٢٤ .

(٢٧) فتح القدير ٤٩٧/٢ .

يغشى عليه من الموت ﴿ (٢٨) يقول الشوكاني: «أي كعين الذي يغشى عليه من الموت، وهو الذي نزل به الموت وغشيته أسبابه فيذهل ويذهب عقله، ويشخص بصره فلا يطرف، وكذلك هؤلاء تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف، ويقال للميت إذا شخص بصره: دارت عيناه، ودارت حماليق عينيه» (٢٩) .

وقد يكون ما بعد الكاف غير مفرد ويصح تقدير المشبه به بعدها، فعند قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ (٣٠) ينقل الشوكاني رأياً فيقول: «وقيل: هو كلام محمول على معناه دون لفظه، والمعنى: كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم من أنصاري إلى الله» (٣١) .

ولعل هذا مستفاد من رأي السكاكي في التشبيه في هذه الآية إذ يقول: «إنما المراد كونوا أنصار الله مثل كون الحواريين أنصاره وقت قول عيسى من أنصاري» (٣٢) .

وقد يُقدر المشبه به بعد الأداة لعدم صحة وقوع ما بعد الأداة خبراً عن ما قبلها، يقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ (٣٣) : «قوله: (كمثل حبة) لا يصح جعل هذا خبراً عن قوله: (مثل الذين ينفقون) لاختلافهما، فلا بد من تقدير محذوف إما في الأول، أي: مثل

(٢٨) الأحزاب ١٩ .

(٢٩) فتح القدير ٣/ ٣١٠ .

(٣٠) الصف ١٠٤ .

(٣١) فتح القدير ٥/ ٦٦ .

(٣٢) مفتاح العلوم ١٦٥ .

(٣٣) البقرة ٢٦١ .

نفقة الذين ينفقون، أو في الثاني، أي: كمثّل زارع حبة»^(٣٤) والذي يهمننا هنا هو قوله: «كمثّل زارع حبة» إذ جعل المشبه به مضافاً مقدراً بعد الأداة دون كلمة «حبة» فتقدير المشبه به هنا بعد الأداة أولى لعدم صحة وقوع الحبة خبراً عن المنفقين، أما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ . . . ﴾ الآية «فليس المراد تشبيهه حال الحياة بماء موصوف بما ذكر أو مفرد آخر يتمحل تقديره لأن تكلف التقدير إنما يرتكب لموجب وحيث وجد ما يغني عنه ألغى، وههنا الحالة مفهومة من مجموع اللفظ أغنت عن التقدير»^(٣٥).

والشوكاني يبحث في الآية الكريمة عن التناسب بين ركني الجملة - وهما طرفا التشبيه - من الجهة النحوية، والآية الكريمة لم تقصد - والله أعلم - إلى جعل المنفقين كالحبة، بل أريد تشبيه حال المنفقين في سبيل الله بحال الحبة التي تنمو وتؤتي ثمارها أضعافاً مضاعفة حيث يباركها الله، أو أن حالهم كحال زارع حبة.

ويقول - رحمه الله - عند قوله تعالى: ﴿ مِثْلُ مَا يَنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمِثْلِ رِيحٍ فِيهَا صَرََّ أَصَابَتْ حَرًّا قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾^(٣٦): «مثل نفقة الكافرين في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثّل زرع أصابه ريح باردة، أو نار فأحرقتة أو أهلكته، فلم ينتفع أصحابه بشيء منه بعد أن كانوا على طمع من نفعه وفائدته، وعلى هذا فلا بد من تقدير في جانب المشبه به، فيقال: كمثّل زرع أصابته ريح فيها صر، أو:

(٣٤) فتح القدير ١/ ٣٢٦.

(٣٥) الشروح « مواهب الفتاح » ٣/ ٣٨٩.

(٣٦) آل عمران ١١٧.

مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح فيها صرّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم» (٣٧) .

والحق أن هاتين الآيتين من المركب الذي لا حاجة فيه إلى تقدير مفرد أو غيره بعد الأداة لأن حالة التشبيه مفهومة من مجموع اللفظ، وإن كنا قد رأينا من الإمام الشوكاني منعاً للتقدير بعد الأداة في آية سورة يونس السابقة (٣٨) ، ثم إنه - رحمه الله - لم يلتزم الدقة في تقديره - إذا أخذناه في الاعتبار - فقد أضاف المصدر وهو الإهلاك في الطرف الأول إلى مفعوله وفي الطرف الثاني إلى فاعله .
والواضح أن الشوكاني حرص على تناسب طرفي التشبيه - كما رأينا - ، ولذا فإنه لا يلجأ إلى التقدير إذا كان بين طرفي التشبيه تناسب معنوي، ففي قوله تعالى: ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين ﴾ (٣٩) يقول : « التمثيل ما بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة، وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير والقليل » (٤٠) .

ويتصل بكاف التشبيه « ما » المصدرية فيسوغ دخولها على الجملة الفعلية ويكون مضمون الجملة الفعلية مشبهاً به، وهو المصدر المؤول، ففي قوله تعالى: ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ (٤١) ينقل الشوكاني عن جمهرة من المفسرين قولهم: « إنه يبعث كالمجنون

(٣٧) فتح القدير ٤٢٩/١ .

(٣٨) الآية ٢٤ سورة يونس، وانظر كلام الشوكاني عن التشبيه في الآية الكريمة في ص (٤٢) من هذا البحث.

(٣٩) البقرة ٢٦٥ .

(٤٠) فتح القدير ٣٢٨/١ .

(٤١) البقرة ٢٧٥ .

عقوبة له وتمقيتاً عند أهل المحشر، وقيل: إن المراد تشبيهه من يحرص في تجارته فيجمع ماله من الربا، بقيام المجنون» (٤٢) .

أما الأداة « كَأَنَّ » فإنها عند الإمام الشوكاني للتشبيه سواء وقع خبرها جامداً أو مشتقاً، فأما وقوع خبرها جامداً فعند قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتَ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (٤٣) يقول الشوكاني: «شبههن سبحانه في صفاء اللون مع حمرة بالياقوت والمرجان» (٤٤) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْنَدَةٌ ﴾ (٤٥): «شبهوا في جلوسهم في مجالس النبي ﷺ مستندين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى حائط لا يفهم ولا يعلم، وهم كذلك لخلوهم عن الفهم النافع والعلم الذي ينتفع به صاحبه» (٤٦) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ (٤٧): «(كأنهم) في الحسن والبهاء (لؤلؤ مكنون) أي: مستور مصون في الصدف لم تمسه الأيدي» (٤٨) .

وعند قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ (٤٩) يقول: «قال الحسن وأبو زيد: شبههن ببيض النعام تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار. فلو أنه أبيض في صفرة، وهو أحسن ألوان النساء، وقال سعيد بن جبير والسدي: شبههن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدي» (٥٠) .

(٤٢) فتح القدير ٣٣٩/١ .

(٤٣) الرحمن ٥٨ .

(٤٤) فتح القدير ٧/٥ .

(٤٥) المنافقون ٤ .

(٤٦) فتح القدير ٢٧٥/٥ .

(٤٧) الطور ٢٤ .

(٤٨) فتح القدير ١١٨/٥ .

(٤٩) الصافات ٤٩ .

(٥٠) فتح القدير ٤٥٢/٤ .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ كَانَهُمْ حَمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ (٥١) :
«شبههم في نفورهم من القرآن بالحرر المستنفرة» (٥٢) .

ولا خلاف بين الدارسين في وقوع كَأَنَّ للتشبيه إذا كان خبرها جامداً، وإنما
الخلاف في إفادتها التشبيه إذا كان خبرها مشتقاً، «فقد ذهب الكوفيون والزجاج
وابن الطراوة وابن السيد إلى أنها إن كان خبرها اسماً جامداً فهي للتشبيه، وإن
كان مشتقاً فهي للشك بمنزلة ظننت وتوهمت» (٥٣) .

والشوكاني يذهب إلى رأي الأغلب من الدارسين وهو وقوع كَأَنَّ للتشبيه إذا
كان خبرها مشتقاً، ومن ذلك قوله عند الآية الكريمة: ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَافِيٌ
عَنِهَا ﴾ (٥٤) : «المعنى: يسألونك عن الساعة كأنك عالم بها، أو كأنه مستقص
للسؤال عنها، ومستكثر منه، والجملة التشبيهية في محل نصب على الحال، أي:
يسألونك مشبهاً حالك حال من هو خفيٌ عنها» (٥٥) .

وفي قوله تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ

(٥١) المدثر ٥٠/٥١ .

(٥٢) فتح القدير ٤٠٠/٥ .

(٥٣) الشروح «عروس الأفراح» ٣/٣٩٢ .

(٥٤) الأعراف ١٨٧ .

(٥٥) فتح القدير ٣١١/٢ .

ولي حميم ﴿٥٦﴾ يقول: «المعنى: أنك إذا فعلت ذلك الدفع صار العدو كالصديق،
والبعيد عنك كالقريب منك» (٥٧).

وما ذهب إليه الشوكاني - وهو المشهور - هو الصحيح، بدليل الآيات
الكريمة التي ذكرت، ثم إنه قد وردت في الشعر العربي للتشبيه مع كون خبرها
مشتقاً ومنه قول امرئ القيس:

كأنني غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحيّ ناقفُ حنظل (٥٨)

فالمعنى هنا هو تشبيه حاله بناقف الحنظل، ولا يصح ما وهمه بعض الدارسين من
كون «كأن» بمعنى الظن أو التوهم فلا وجه لها هنا سوى التشبيه.

وتخفف «كأن» فتبقى دلالتها على التشبيه، والشوكاني يوافق الأخفش في
أنها مركبة من كاف التشبيه وأن المخففة من الثقيلة. ولا يمنع ذلك كون خبرها
فعلاً أو جملة، والآيات التي وقف عندها الشوكاني مما يتعلق بهذا فيها ردّ لما
ذهب إليه بعض النحاة من أنها لاتقع للتشبيه إذا كان خبرها فعلاً أو جملة، قال
ابن السيد: «إذا كان خبرها فعلاً أو جملة أو صفة فهي فيهن للظن والحسبان ولا
تكون للتشبيه إلا إذا كان الخبر مما يمثل به» (٥٩) ويستوي في هذا المخففة
والثقيلة.

ونقف مع الشوكاني عند الآيات التي تبين لنا ما ذهب إليه : يقول عند
قوله تعالى: ﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره مسه ﴾ (٦٠) :

(٥٦) فصلت ٣٤ .

(٥٧) فتح القدير ٥٩١/٤ .

(٥٨) ديوان امرئ القيس ص ٩ ، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص ٣٥ ، ولسان العرب
٣٣٩/٩ .

(٥٩) شروح التلخيص (عروس الأفراح) ٣٩٢/٣ .

(٦٠) يونس ١٢ .

«أي كشفنا عنه ضرره الذي مسه كما تفيدُه الفاء، مضى على طريقته التي كان عليها قبل أن يمسه الضرر، ونسى حالة الجهد والبلاء، أو مضى عن موقف الدعاء والتضرع لا يرجع إليه كآئه لا عهد له به كآئه لم يدعنا عند أن مسه الضرر إلى كشف ذلك الضرر الذي مسه»^(٦١) ثم ينقل الشوكاني عن الأخفش قوله: «أن» في (كأن لم يدعنا) هي المخففة من الثقيلة، والمعنى: «كآئه»^(٦٢).

ولعل الأقرب هنا أن يكون المشبه هو ضمير الشأن المحذوف .

ويقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾^(٦٣): «أي كأنهم لم يلبثوا، والجملة في محل نصب على الحال، أي: مشبهين من لم يلبث (إلا ساعة من النهار) أي: شيئاً قليلاً منه، والمراد باللبث هو اللبث في الدنيا فجعلوا وجودها كالعدم، أو استقصروها للدهش والحيرة أو: لطول وقوفهم في المحشر، أو: لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن»^(٦٤).

قلت : ويحتمل أن يكون اللبث في القبور أيضاً.

ويقول أيضاً عند قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾^(٦٥): «أي كأنهم لم يقيموا في بلادهم أو ديارهم، والجملة في محل نصب على الحال، والتقدير: مماثلين لمن لم يوجد ولم يقيم في مقام قط»^(٦٦).

(٦١) فتح القدير ٤٨٨/٢ .

(٦٢) فتح القدير ٤٨٨/٢ .

(٦٣) يونس ٤٥ .

(٦٤) فتح القدير ٥١٠/٢ .

(٦٥) هود ٦٧ و ٦٨ .

(٦٦) فتح القدير ٥٧٧/٢ .

ويذكر الشوكاني التشبيه بـ«كأن» إذا اتصلت بها ما الكافة ويشير إلى اختلاف المفسرين في تحقيق التشبيه في قوله تعالى: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ (٦٧) فيقول: «اختلف المفسرون في تحقيق هذا التشبيه للقطع بأن عقاب من قتل الناس جميعاً أشد من عقاب من قتل واحداً منهم» (٦٨).

ويقول عند قوله تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾ (٦٩): «شبه الكافر في ثقل الإيمان عليه بمن يتكلف ما لا يطيقه كصعود السماء» (٧٠).

ويذكر الشوكاني آيات كريمة فيها تشبيه بغير الأدوات السابقة، وإنما ذكر في التشبيه فعل أنبأ عن التشبيه.

وهذه الأفعال لا تنبئ عن التشبيه في جميع أحوالها، فالفعل «جعل» يأتي لمعنيين أحدهما: «الإيجاد» والآخر: «التصيير»، ولا يصح التشبيه مع هذا الفعل إلا إذا كان بمعنى التصيير، أي حينما يكون متعدياً لمفعولين. لأن «الجعل» بهذا المعنى يعطي المفعول الأول حكم المفعول الثاني في معناه، وهذا فيه معنى التشبيه. ويدخل هذا الفعل وأمثاله وهي: (حسب ورأى وظن) على ما أصله المبتدأ والخبر، إذ الخبر حكم على المبتدأ، وهذه الأفعال تكون حينئذٍ سائغة للتشبيه. أما ما كان منها متعدياً لمفعول واحدٍ فلا يحمل معنى التشبيه إلا إذا وقع

(٦٧) المائدة ٣٢.

(٦٨) فتح القدير ٣٩/٢.

(٦٩) الأنعام ١٢٥.

(٧٠) فتح القدير ٨٣/٢.

المشبه به حالاً من المشبه، ومن المعلوم أن المشبه به قد يأتي كذلك مع غير هذه الأفعال حالاً من المشبه به، وذلك في التشبيه المؤكد.

ومن تناول الشوكاني للتشبيه بأفعال منبئة عن التشبيه ، قوله عند قوله تعالى: ﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً ﴾ (٧١): «شبه سبحانه ما يستتر من ظلام الليل باللباس الساتر... وشبه اليقظة بالحياة كما شبه النوم بالسبات الشبيه بالمات» (٧٢).

قلت والتشبيه المقصود في قوله: (شبه اليقظة بالحياة) إنما هو مبني على المجاز المرسل حيث عبر بالنهار الذي هو زمان اليقظة عن اليقظة نفسها والعلاقة الظرفية الزمانية ثم شبه بالنشور. والله أعلم.

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ (٧٣) «المعنى: أن الله سبحانه أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور، ولم يكتفِ سبحانه بتشبيه عملهم بالهباء حتى وصفه بأنه متفرق متبدد» (٧٤).

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ فجعلناهم غثاءً ﴾ (٧٥) : «أي: كغثاء السيل الذي حمله. والغثاء: ما يحمل السيل من بالي الشجر والحشيش والقصب ونحو ذلك مما يحمله على ظاهر الماء. والمعنى: صيرهم هلكى فييسوا كما يبس الغثاء» (٧٦).

(٧١) الفرقان ٤٧ .

(٧٢) فتح القدير ٩٣/٤ .

(٧٣) الفرقان ٢٣ .

(٧٤) فتح القدير ٨٢/٤ .

(٧٥) المؤمنون ٤١ .

(٧٦) فتح القدير ٥٧٢/٣ .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (٧٧):
«المهاد: الوطاء والفراش» كما في قوله: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
فِرَاشًا ﴾ (٧٨) قرأ الجمهور: «مهاداً» وقرأ مجاهد وعيسى وبعض الكوفيين «مهداً»

قال الزمخشري : « المعنى : وتراهم سكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق » (٨٢) .

وكذلك الفعل « حسب » ذكر الشوكاني دلالة على التشبيه، وهو متعدٍ إلى مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر.

يقول عند قوله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلَأْ مَنْثُورًا ﴾ (٨٣) : « إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم وصفاء ألوانهم ونضارة وجوههم لَوْلَأْ مفرقاً. قال عطاء: يريد بياض اللون وحسنه، واللؤلؤ إذا نُثِر من الخيط على البساط أحسن منه منظوماً. قال أهل المعاني: إنما شُبِّهوا بالمنثور لانتثارهم في الخدمة، ولو كانوا صفاً لشُبِّهوا بالمنظوم » (٨٤) .

والفعل « يضاهي » يدل على التشبيه عند الشوكاني. يقول عند قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ (٨٥) : « المضاهاة: المشابهة ومنه قول العرب: امرأة ضهياء: وهي التي لا تحيض لأنها شابته الرجال » (٨٦) .

ويذكر الشوكاني كذلك الفعل « يخيل » حيث يفهم منه التشبيه. يقول عند قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيهِمْ يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (٨٧). « يقال: خِيلَ إليه إذا شَبَّه له وأدخل عليه البهمة والشبهة » (٨٨) .

والملاحظ أن هذه الأفعال التي تناول الشوكاني التشبيه معها، لاتخلو من تقدير الأداة، وقد رأينا الشوكاني يقدرها عند تفسيره بكأن أو الكاف وقد تحتمل

(٨٢) الكشف ٤/٣ .

(٨٣) الإنسان ١٩ .

(٨٤) فتح القدير ٤٢٣/٥ .

(٨٥) براءة ٣٠ .

(٨٦) فتح القدير ٤٠٣/٢ .

(٨٧) طه ٦٦ .

(٨٨) فتح القدير ٤٤٢/٣ .

غير ذلك، وهذا يُفهم منه أن هذه الأفعال تُنبئ عن التشبيه وليست من أدوات التشبيه، ولذا نجد الشوكاني يذكر الفعل والأداة عند تفسيره وبيانه لمعنى الآية، والفعل بمفرده لا يظهر معنى التشبيه، وإنما يظهر عند تقدير الأداة.

يقول عند قوله تعالى: ﴿ وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ﴾ (٨٩): «المعنى: ما جعل الله نساءكم اللائي تقولن لهن هذا القول كأمهاتكم في التحريم ولكنه منكر من القول وزور» (٩٠).

وقد ذكر الخطيب أن هذه الأفعال تنبئ عن التشبيه حيث يقول: «وقد يذكر فعل ينبئ عن التشبيه، كعلمت في قولك: علمت زيدا أسداً، ونحوه.

هذا إذا قُرِب التشبيه فإن بُعِد أدنى تبعيد، قيل: خلته وحسبته ونحوهما» (٩١) ويذكر الخطيب في موضع آخر ما يفهم منه أن هذه الأفعال أدوات للتشبيه حيث يقول: «والمرسل ما ذكرت أدواته» (٩٢) وذكر منه قول البحرى:

وإذا الأسنة خالطتها، خلتها

فيها خيال كواكب في الماء» (٩٢)

وليس في هذا مأخذ على الخطيب إذ الكلام على عموم المعنى في ذكر الأداة فإن في ذكر الفعل إنباءً عن الأداة.

غير أن بعض الأفعال يُعد من أدوات التشبيه مثل «يضاهي» على ما أسلفنا ومثل يشابه ويماثل. قال الدسوقي: «قوله: (وقد يذكر فعل ينبئ عن التشبيه) أي يدل عليه من غير ذكر أداة فيكون الفعل قائماً مقامها والمراد فعل غير الأفعال الموضوعات من أصلها للدلالة على التشبيه كالأفعال المشتقة من المماثلة والمثابة

(٨٩) الأحزاب ٤ .

(٩٠) فتح القدير ٤/٣٠٠ .

(٩١) الإيضاح ٣٥٦ .

(٩٢) المصدر السابق ٣٨٨ . والبيت في ديوان البحرى ٣٣١/٢ .

والمضاهاة إلى آخرها وكان الأولى للمصنف أن يقول: (وقد يذكر ما ينبئ عن التشبيه) ليتناول: أنا عالم أن زيدا أسدٌ وزيد أسدٌ حقاً أو بلا شبهة وكان زيدا أسدٌ إذا كانت كلمة كأن للظن» (٩٣) .

ومما يدل على أن «جعل» ونحوها من الأفعال ليست من أنوات التشبيه، ولكنها قد تدلّ على التشبيه وتنبئ عنه، قوله تعالى: ﴿ فجعلهم كعصفٍ مأكول ﴾ (٩٤) حيث ذكرت الأداة وهي الكاف مع الفعل جعل، ولو كانت أداة لما تكررت الأداة في تشبيه واحد ليس له أكثر من طرفين، لأنه قد تكرر الأداة إذا شبه شيء واحد بأكثر من مشبه به واحد، ولعل هذا الضرب من المقيّد، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر ﴾ (٩٥) .

فقد شبه الشرر بالقصور في عظمها وضخامتها وبالجمالات في لونها، قال الشوكاني: «كل شررة من شررها الذي ترمي به كالقصر من القصور في عظمها... ثم شبه الشرر باعتبار لونه فقال: (كأنه جمالات صفر)» (٩٦) .

(٩٣) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ٣٨٩/٣ .

(٩٤) الفيل ٥ .

(٩٥) المرسلات ٣٢ و ٣٣ .

(٩٦) فتح القدير ٤٣٤/٥ .

حذف الأداة

تحذف الأداة من التشبيه لإفادة تأكيد وتقريب المشبه من المشبه به حتى يكون عينه ونفسه. وهذا الضرب يسمى التشبيه المؤكّد وخلافه هو المرسل وهو الذي ذكرت أدواته . أو كانت مقدرة .

والشوكاني يقف عند الضرب «المؤكّد» في كثير من أي القرآن الكريم . فمن هذا الضرب ما يأتي التشبيه فيه بالمصدر . يقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿ فقال إني أحببت حبّ الخير عن ذكر ربّي حتى توارت بالحجاب ﴾ (١) : «انتصاب حبّ الخير على أنه مفعول أحببت بعد تضمينه معنى آثرت، ثم يقول: وقيل انتصابه على المصدرية بحذف الزوائد والناصب له أحببت، وقيل: هو مصدر تشبيهي أي: حباً مثل حبّ الخير والأول أولى» (٢) .

ولا يعنى ترجيح الشوكاني لغير التشبيه في الآية أنه يمنع، إذ نراه في آية أخرى يقرر التشبيه بالمصدر والأداة غير مذكورة في الآية.

فعند قوله تعالى: ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ (٣) يقول مفصلاً التشبيه وموضحاً لغريبه بما يؤكد قطعه بالتشبيه هنا: «الهيم: الإبل العطاش التي لاتروى لداء يصيبها وهذه الجملة بيان لما قبلها أي: لا يكون شربكم شرباً معتاداً بل يكون مثل شرب الهيم التي تعطش ولا تروى بشرب الماء، ومفرد الهيم، أهيم، والأنثى هيماء قال قيس بن الملوّح:

(١) ص ٣٢ .

(٢) فتح القدير ٤/٤٩٥ .

(٣) الواقعة ٥٥ .

يقال به داء الهيام أصابه وقد علمت نفسي مكان شفاؤها^(٤)

وقال الضحّاك وابن عيينه والأخفش وابن كيسان: الهيم: الأرض السهلة ذات الرمل، والمعنى: أنهم يشربون كما تشرب هذه الأرض الماء ولا يظهر له فيها أثر. قال في الصحاح: الهيام بالضم: أشد العطش، والهيام كالجنون من العشق، والهيام: داء يأخذ الإبل تهيم في الأرض، والهيام بالفتح: الرمل الذي لا يتماسك في اليد لينه، والجمع هيم، مثل قذال وقذُل، والهيام بالكسر الإبل العطاش^(٥). والتشبيه هنا قائم مهما تعددت دلالات كلمة «الهيم» فكلُّ من الإبل العطاش والأرض السهلة والمفاضة التي لا ماء بها، يصح أن يقع مشبهاً به لكون كل منها لا يروى من العطش.

ويقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب﴾^(٦): «أي: وهي تسير سيراً حثيثاً كسير السحاب التي تسيرها الرياح. قال القتيبي: وذلك أن الجبال تجمع وتسير، وهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير»^(٧).

ونلاحظ أن الشوكاني في هذه الآية يفسرها ذاكراً للأداة «الكاف»، وذكرها في التفسير ليعني تقديرها في المفسر، قال ابن يعقوب المغربي عند هذه الآية من التشبيه المؤكد: «أي مثل ذهاب السحاب فحذف المثل الذي هو المراد بالأداة هنا

(٤) البيت في ديوانه برواية: بي اليأس والداء الهيام أصابني

فإياك عني لا يكن بك مايبا

انظر ديوانه ص ٢٢٨، والأغاني ٧٧/٢.

(٥) فتح القدير ١٨٥/٥ و ١٨٦.

(٦) النمل ٨٨.

(٧) فتح القدير ١٧٩/٤.

وجعل الكلام كالخالي عن تقديره ليفيد أن مرّها نفس مرّ السحاب فأفاد التأكيد في التشبيه حيث اعتبر فيه ماوجب كون الملحق الذي هو الأضعف أصالة نفس الملحق به حتى صار صادقاً عليه» (٨) .

ويقول الشوكاني أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً ﴾ (٩) : «أي نزول عن أماكنها، وتسير عن مواضعها كسير السحاب» (١٠) .

وإليك ضرباً آخر من التشبيه المؤكد الذي ذكره الشوكاني وهذا الضرب يكون فيه المشبه به حالاً من المشبه.

يقول عند قوله تعالى: ﴿ وعرضوا على ربك صفاً ﴾ (١١) : «انتصاب صفّاً على الحال، أي: مصفوفين، كل أمة وزمرة صفّاً. وفي الآية تشبيه حالهم بحال الجيش الذي يعرض على السلطان» (١٢) .

ولعل العرض هنا حقيقي فلا يكون في الآية تشبيه. والله أعلم.
ويقول كذلك عند قوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ (١٣) : «أي: يستضاء به في ظلم الضلالة كما يستضاء بالمصباح في الظلمة وانتصاب «شاهداً» ومابعده على الحال» (١٤) . فقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم بالسراج المنير، والسراج هو المصباح الذي يُستضاء به في الظلام، والسراج أيضاً الشمس، فالوجه في الأول أن كلاهما يستضاء ويُهتدى به، وفي الثاني النور والظهور.

(٨) الشروح: مواهب الفتاح ٤٦٥/٣ .

(٩) الطور ٩ و ١٠ .

(١٠) فتح القدير ١١٥/٥ .

(١١) الكهف ٤٨ .

(١٢) فتح القدير ٣٤٦/٣ .

(١٣) الأحزاب ٤٥ و ٤٦ .

(١٤) فتح القدير ٣٣١/٤ .

والضرب الثالث من المؤكد يأتي المشبه به مضافاً إلى المشبه وهذه الإضافة بيانية^(١٥) . والشوكانى يذكر هذا الضرب من المؤكد عند قوله تعالى: ﴿فَصَبْ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾^(١٦) إذ يقول: «ذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم هو بالنسبة إلى ما أعده لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به»^(١٧) . أي فصَّبَ عليهم عذاباً مثل السوط، وشبَّه بالسوط لأنه من أقوى ما يُعذب به الإنسان إذا قيسَ بآلات التعذيب الأخرى .

ومن التشبيه المؤكد ما ذكره الشوكانى عند قوله تعالى: ﴿كَلِمَاتٍ رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِمْ مِثْلَهَا﴾^(١٨) يقول: «المراد بقوله: (هذا الذي رزقنا من قبل) أنه شبيهه ونظيره، لا أنه هو، لأن ذات الحاضر لا تكون عين ذات الغائب لاختلافهما، وذلك أن اللون يشبه اللون وإن كان الحجم والطعم والرائحة والماوية متخالفة. وقيل: المراد أنهم أتوا بما يرزقونه في الجنة متشابهاً فما يأتيهم في أول النهار يشابه الذي يأتيهم في آخره، فيقولون: هذا الذي رزقنا من قبل، فإذا أكلوا وجدوا له طعماً غير طعم الأول»^(١٩) .

فالتشابه شديد ليلحظ معه الفرق رأي العين، حتى ظنوا بل تيقنوا أن الثاني هو الأول بعينه .

(١٥) قال الدسوقي: فإن قلت كيف يكون هذا من التشبيه المؤكد مع أن توجيهه بأنه يُشعر بحسب الظاهر بأن المشبه عين المشبه به لا يأتي هنا أي فيما إذا أضيف المشبه به إلى المشبه، قلت تجعل الإضافة فيه بيانية وهي تقتضي الاتحاد في المفهوم. انظر الشروح ٤٦٥/٣ .

(١٦) الفجر ١٣ .

(١٧) فتح القدير ٥٣١/٥ .

(١٨) البقرة ٢٥ .

(١٩) فتح القدير ٦٥/١ .

والواضح أن الآية فيها تشابه لا تشبيه حيث إن كلاً من الطرفين يصح أن يكون مشبهاً ومشبهاً به، وحينئذٍ لا يكون مما نحن بصدد.

ويقول عند قوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ (٢٠): هو تشبيه بليغ، والمراد هنا بالخيط الأبيض: هو المعارض في الأفق، لا الذي هو كذب السرحان، فإنه الفجر الكذاب الذي لا يحل شيئاً ولا يحرمه. والمراد بالخيط الأسود: سواد الليل» (٢١).

والزمخشري أيضاً يعد الآية تشبيهاً، يقول: «فإن قلت أهذا من باب الاستعارة أم من باب التشبيه؟ قلت: قوله من الفجر أخرجه من باب الاستعارة كما أن قولك رأيت أسداً مجاز، فإذا زدت من فلان رجع تشبيهاً. فإن قلت: فلم زيد من الفجر حتى كان تشبيهاً، وهلاً اقتصر به على الاستعارة التي هي أبلغ من التشبيه وأدخل في الفصاحة؟ قلت: لأن من شرط المستعار أن يدل عليه الحال أو الكلام» (٢٢).

والحق أن الآية من الاستعارة لا التشبيه حيث شبه كل من ضوء الفجر وظلمته بالخيط الأبيض والخيط الأسود ثم استعير لفظ المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، وقوله: (من الفجر) قرينة الاستعارة، ولولا القرينة لكان الكلام حقيقة لا مجازاً، وهذه القرينة لفظية، أما الحالية فلا وجود لها هنا.

ولما كانت زوجات النبي ﷺ بمنزلة الأمهات للمؤمنين فقد جعلن - رضوان الله عليهن - أمهات للمؤمنين تأكيداً للشبه الحاصل بينهما من جهة الحرمة، وفي

(٢٠) البقرة ١٨٧ .

(٢١) فتح القدير ٢١٤/١ .

(٢٢) الكشف ٣٣٩/١ .

(٢٣) الأحزاب ٦ .

(٢٤) فتح القدير ٣٠١/٤ .

هذا يقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾ (٢٣): «أي: مثل أمهاتهم في الحكم بالتحريم، ومنزلات منزلتهن في استحقاق التعظيم، فلا يحل لأحد أن يتزوج بواحدة منهن، كما لا يحل له أن يتزوج بأمه» (٢٤).

ويقول عند قوله تعالى: ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ (٢٥): «الكذب: البياض الذي يخرج في أظفار الأحداث، فيجوز أن يكون شبه الدم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظفر من جهة اللونين» (٢٦).

ونقف مع الشوكاني عند آية كريمة عدها من هذا الضرب «المؤكّد» وهي قوله تعالى: ﴿فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ (٢٧)، فحين تناول هذه الآية في موضعها من سورة الأعراف ونظيرتها في سورة الشعراء، لم يتحدث عن التشبيه إطلاقاً، بل نجده يشير إلى هذا الموضع عند تناوله لقوله تعالى: ﴿فلما رآها تهتز كأنها جانّ ولى مدبراً﴾ (٢٨) إذ يقول: «إنما شبهها هنا بالجان في خفة حركتها وشبهها في موضع آخر بالثعبان لعظمها» (٢٩).

والحق أنه لا تشبيه في قوله تعالى: (فإذا هي ثعبان مبين) لأن العصا انقلبت ثعباناً حقيقة، وذلك لتحقيق المعجزة ودحض السحرة وأنصارهم بالحق الذي لا شبهة فيه. ثم إن كلام الشوكاني عند آية الأعراف لا مجال معه لاحتمال

(٢٥) يوسف ١٨ .

(٢٦) فتح القدير ١٤/٣ .

(٢٧) الأعراف ١٠٧ وهي في الشعراء برقم ٣٢ .

(٢٨) النمل ١٠ .

(٢٩) فتح القدير ١٤٧/٤ .

التشبيه فهو يقول: «قوله: (فإذا هي ثعبان مبين): أي: وضعها على الأرض فانقلبت ثعباناً، أي: حية عظيمة من ذكور الحيات، ومعنى (مبين) أن كونها حية في تلك الحال أمر ظاهر واضح لا لبس فيه» (٣٠).

فوصف الثعبان بأنه «مبين» تأكيد لحقيقته التي صارت إليها العصا، ومنع لأي احتمال.

وكذلك فإن الشوكاني - رحمه الله - حين تناول قوله تعالى: ﴿فإذا هي حية تسعى﴾ (٣١) لم يذكر التشبيه بأية حال بل بين أن العصا انقلبت إلى حية حقيقية، فهو يقول بعد ذكر هذه الآية من سورة «طه»: «وذلك لقلب الله سبحانه لأوصافها وأعراضها حتى صارت حية تسعى، أي: تمشي بسرعة وخفة، قيل: كانت عصا ذات شعبتين فصار الشعبتان فماً وباقيها جسم حية، تنتقل من مكان إلى مكان، وتلتقم الحجارة مع عظم جرمها وفظاعة منظرها، فلما رآها كذلك خاف وفزع وولى مدبراً ولم يعقب» (٣٢).

ومن التشبيه المؤكد عند الشوكاني قوله تعالى: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ (٣٣) يقول في ذلك: «باعتبار صعوبته وشدة أهواله على الكفار كخمسين ألف سنة، والعرب تصف كثيراً يوم المكروه بالطول، كما تصف يوم السرور بالقصر كما قال الشاعر (٣٤):

(٣٠) فتح القدير ٢/٢٦٣ .

(٣١) طه ٢٠ .

(٣٢) فتح القدير ٣/٤٢٨ .

(٣٣) المعارج ٤ .

(٣٤) هو شبزمة بن الطفيل ، انظر شرح الحماسة للتبريزي ٣/١٣٣ ، وفي سمط اللالكئ

ليزيد بن الطثرية ٢/٩٣٨ .

ويوم كظل الرمح قصر طوله دم الرِّقِّ عنا واصطفاق المزاهر
وقول آخر:

ويوم كابهام القطاة قطعتة» (٣٥) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ (٣٦) جعل
النساء لباساً للرجال، والرجال لباساً لهن لامتزاج كل واحد منهما بالآخر عند
الجماع، كالامتزاج الذي يكون بين الثوب ولايسه» (٣٧) .

أما التشبيه المرسل الذي ذكرت أداته فقد تناوله الشوكاني في كثير من
الآيات الكريمة، نذكر منها قوله عند قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ﴾ (٣٨):
«أي ما هم في الانتفاع بما يسمعونه إلا كالبهائم التي هي مسلوقة الفهم والعقل
فلا تطمع فيهم، فإن فائدة السمع والعقل مفقودة، وإن كانوا يسمعون ما يقال لهم
ويعقلون ما يتلى عليهم، ولكنهم لما لم ينتفعوا بذلك كانوا كالفاقد له» (٣٩) .

وعند قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ ﴾ (٤٠) يقول الشوكاني: «أي: مثل ذلك الاجتباء الذي رأيت في النوم
من سجد الكواكب والشمس والقمر، يجتبيك ربك ويحقق فيك تأويل تلك الرؤيا،
فيجعلك نبياً، ويصطفيك على سائر العباد، ويسخرهم لك كما تسخرت لك تلك
الأجرام التي رأيتها في منامك فصارت ساجدة لك» (٤١) .

(٣٥) فتح القدير ٢٨٧/٤ .

(٣٦) البقرة ١٨٧ .

(٣٧) فتح القدير ٢١٤/١ .

(٣٨) الفرقان ٤٤ .

(٣٩) فتح القدير ٩٠/٤ .

(٤٠) يوسف ٦ .

(٤١) فتح القدير ٧/٣ .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ (٤٢):
 «الأعجاز جمع عجز، وهو مؤخر الشيء، والمنقعر: المنقطع المنقلع من أصله، يقال:
 قعرت النخلة، إذا قلعتها من أصلها حتى تسقط. شبههم في طول قاماتهم حين
 صرعتهم الريح وطرحتهم على وجوههم بالنخل الساقط على الأرض التي ليست
 لها رؤوس، وذلك أن الريح قلعت رؤوسهم أولاً، ثم كبّتهم على وجوههم» (٤٣).
 ويقول عند قوله تعالى: ﴿ إنما البيع مثل الربا ﴾ (٤٤): «أي: أنهم جعلوا البيع
 والربا شيئاً واحداً، وإنما شبهوا البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا أصلاً والبيع
 فرعاً، أي: إنما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل كالبيع بزيادة عند حلوله.» (٤٥).

(٤٢) القمر ٢٠ .

(٤٣) فتح القدير ١٥١/٥ .

(٤٤) البقرة ٢٧٥ .

(٤٥) فتح القدير ٣٣٩/١ .

المبحث الرابع : أغراض التشبيه

للتشبيه أغراض من أجلها يُساق، منها ما يعود إلى المشبه ومنها ما يعود إلى المشبه به، وقد حملت تشبيهات القرآن الكريم هذه الأغراض. والشوكانى يتعرض لما يعود منها للمشبه لكونها الأغلب، وهذه الأغلبية تعود إلى كون عقد التشبيه أصلاً من أجل المشبه لا من أجل المشبه به، فإذا أريد المبالغة بإيهام أن المشبه به يحتاج إلى المشبه وإلى الاقتران به، قُلب التشبيه وأصبح الغرض حينئذٍ يعود للمشبه به، وهو إيهام أن الوجه في المشبه أقوى منه في المشبه به.

ومما تناوله الشوكانى من أغراض التشبيه تقرير المشبه، يقول عند قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خَشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾^(١): «مستأنفة لتقرير ماتقدم من أن أجسامهم تعجب الرائي وتروق الناظر. شُبَّهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله ﷺ مستنديين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط التي لاتفهم ولا تعلم، وهم كذلك لخلوهم عن الفهم النافع والعلم الذي ينتفع به صاحبه»^(٢) والشوكانى يشير بقوله: «لتقرير ماتقدم» إلى سياق الآية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾^(١) يقول عند سياق الآية: «أي: هيئاتهم ومناظرهم، يعني أن لهم أجساماً تعجب من يراها لما فيها من النضارة والرونق، فتحسب أن قولهم حق وصدق لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم»^(٢). فلما كانت صفات ظاهرهم حسنة وحقيقتهم غير ذلك شُبَّهوا بالخشب المسندة لتقرير حقيقة صفتهم في النفس.

وعندما يكون الأمر عقلياً فإن إبرازه في صورة الأمر المحسوس الذي تألفه الطباع، يظهر حقيقته ويكشفها للنفوس، فالشرك بالله أمر عظيم والمشارك بالله

(١) المنافقون ٤ .

(٢) فتح القدير ٢٧٥/٥ .

يهلك نفسه أيّما إهلاك، وغياب خطر هذا الذنب عن النفس يجعل من الضرورة إبرازه في صورة مشاهدة تدركها النفس متأكدةً من خطره وفي ذلك يقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ (٣) : «جملة (ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء) مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الأمر بالاجتناب، ومعنى خرّ من السماء: سقط إلى الأرض، أي: انحط من رفيع الإيمان إلى حضيض الكفر (فتخطفه الطير) يقال: خطفه يخطفه إذا سلبه ... أي: تخطف لحمه وتقطعه بمخالبها ... (أو تهوي به الريح) أي: تقذفه وترمي به (في مكان سحيق) أي: بعيد» (٤).

وإبراز المعقول في هيئة المحسوس وتصويره بصورته يزيده وضوحاً وبياناً ويقرره في النفوس فتبين الأشياء بأشباهاها ونظائرها يقربها إلى الأفهام ويسهل إدراكها ، يقول عند قوله تعالى: ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دريّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ (٥): «قوله (مثل نوره) مبتدأ وخبره (كمشكاة) أي: صفة نوره الفائض عنه، الظاهر على الأشياء كمشكاة والمشكاة: الكوة في الحائط غير النافذة» (٦) ثم فصل في التشبيه وبين أجزاءه

(٣) الحج ٣١ .

(٤) فتح القدير ٥٣٤/٣ .

(٥) النور ٣٥ .

(٦) فتح القدير ٣٨/٤ .

باعتباره مركباً. ثم يقول: «(ويضرب الله الأمثال للناس) أي يبين الأشياء بأشبابها ونظائرها تقريباً لها إلى الأفهام وتسهيلاً لإدراكها، لأن إبراز المعقول في هيئة المحسوس وتصويره بصورته يزيده وضوحاً وبيانا»^(٧).

ومن أغراض التشبيه التي تناولها الشوكاني أيضاً، بيان مقدار حال المشبه أو مقدار الصفة، وهذا الغرض يُطلب له التشبيه إذا كانت الصفة في المشبه معلومة حقيقتها ولكن مقدارها مجهول.

يقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم﴾^(٨): «الهيم: الإبل العطاش التي لاتروى لداءٍ يصيبها، وهذه الجملة [وهي: (فشاربون شرب الهيم)] بيان لما قبلها: أي: لا يكون شربكم شرباً معتاداً بل يكون مثل شرب الهيم التي تعطش ولا تروى بشرب الماء»^(٩).

وعند قوله تعالى: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾^(١٠) يقول بعد إيضاحه للتشبيه المركب في أول الآية الكريمة: «(وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) لمن اغترّب بها ولم يعمل لآخرته.. ومن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه. وهذه الجملة مقررة للمثل المتقدم ومؤكدة له»^(١١) وقد ذكر الشوكاني التشبيه الواقع في آخر الآية بجملة

(٧) فتح القدير ٤٠/٤ .

(٨) الواقعة ٥٤ و ٥٥ .

(٩) فتح القدير ٥/١٨٥ و ١٨٦ .

(١٠) الحديد ٢٠ .

(١١) فتح القدير ٥/٢١٠ .

القصر، في آية أخرى مماثلة من سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ (١٢) إذ يقول: «المتاع: ما يتمتع به الإنسان وينتفع به ثم يزول ولا يبقى، كذا قال أكثر المفسرين. الغرور: الشيطان يغرّ الناس بالأمانى الباطلة والمواعيد الكاذبة، شبه سبحانه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على من يريده، وله ظاهر محبوب وباطن مكروه» (١٣). ولما كانت الجنة معروفة بسعتها، غير أن هذه السعة مجهولة المقدار فقد شبه عرضها بعرض السماء والأرض، وإذا كان هذا عرضها فما ظنك بطولها، وفي هذا إيضاح لمقدار حال الجنة، والشوكانى يشير إلى هذا في معرض تفصيله للتشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ (١٤) يقول رحمه الله: «أي: كعرضهما، وإذا كان هذا قدر عرضها فما ظنك بطولها. وقيل: المراد بالجنة التي عرضها هذا العرض هي جنة كل واحدٍ من أهل الجنة. والعرض أقل من الطول، ومن عادة العرب أنها تعبر عن سعة الشيء بعرضه دون طوله ومن ذلك قول الشاعر:

كأن بلاد الله وهي عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل (١٥)

ومن أغراض التشبيه التي ذكرها الشوكانى، بيان إمكان المشبه وهذا الغرض يُطلب له التشبيه إذا كان المشبه غريباً عجبياً نادر الحدوث، وخلق عيسى عليه السلام من غير أب فيه من الغرابة والعجب الشيء الكثير فكان تشبيه خلقه

(١٢) آل عمران ١٨٥ .

(١٣) فتح القدير ٤٦٨/١ .

(١٤) الحديد ٢١ .

(١٥) فتح القدير ٢١٠/٥ . وانظر تخريج البيت ص ٢٩ من هذا البحث .

بخلق آدم مبيناً لإمكان حدوثه، يقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى﴾ عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴿١٦﴾ : «تشبيه عيسى بآدم في كونه مخلوقاً من غير أب كآدم، ولا يقدر في التشبيه اشتغال المشبه به على زيادة وهو كونه لا أم له : كما أنه لا أب له، فذلك أمر خارج عن الأمر المراد بالتشبيه، وإن كان المشبه به أشد غرابة من المشبه، وأعظم عجباً وأغرب أسلوباً . وقوله: (خلق من تراب) جملة مفسرة لما أبهم في المثل، أي: أن آدم لم يكن له أب ولا أم، بل خلقه الله من تراب. وفي ذلك دفع لإنكار من أنكر خلق عيسى من غير أب مع اعترافه بأن آدم خلق من غير أب وأم»^(١٧) وقد ذكرنا من قبل أن وجه الشبه هو إيجاد كل منهما بأسباب غير التي أوجد بها غيرهما من الناس، وهي في آدم أقوى منها في عيسى عليهما السلام لكون عيسى أوجد ببعضها وآدم أوجد بدون تلك الأسباب بل من العدم، وفي قول الشوكاني: «وإن كان المشبه به أشد غرابة من المشبه، وأعظم عجباً، وأغرب أسلوباً»^(١٨) إشارة إلى مانص عليه الخطيب عند كلامه عن أغراض التشبيه أن الوجه في الأغراض التي تتصل بحال المشبه هي في المشبه به أقوى منها في المشبه وأتم. يقول الخطيب: «وهذه الوجوه»^(١٩) تقتضي أن يكون وجه الشبه في المشبه به أتم، وهو به أشهر»^(٢٠) . ونلاحظ شدة الصلة بين الوجه والغرض هنا «ولا منافاة بين كون الشيء وجهاً باعتبار وغرضاً حينئذٍ بعد التشبيه باعتبار آخر»^(٢١) .

(١٦) آل عمران ٥٩ .

(١٧) فتح القدير ٣٩٧/١ .

(١٨) فتح القدير ٣٩٧/١ .

(١٩) المقصود الأغراض الأربعة المتعلقة بحال المشبه وهي (أ) بيان إمكانه، (ب) بيان حاله،

(ج) بيان مقدار حاله، (د) تقرير حاله في نفس السامع (الإيضاح ٣٥٦ و٣٥٧ و٣٥٨) .

(٢٠) الإيضاح ٣٥٨ .

(٢١) شروح التلخيص (مواهب الفتاح ٣/٣٩٧) .

ومن أغراض التشبيه التي ذكرها الشوكاني أيضاً، بيان حال المشبه، يقول عند قوله تعالى: ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ (٢٢): «أي: أتحسب أن أكثرهم يسمعون ماتتلو عليهم من آيات القرآن ومن المواعظ، أو يعقلون معاني ذلك ويفهمونه حتى تعتني بشأنهم وتطمع في إيمانهم، ليسوا كذلك، بل هم بمنزلة من لا يسمع ولا يعقل. ثم بين سبحانه حالهم وقطع مادة الطمع فيهم فقال: (إن هم إلا كالأنعام) أي: ما هم في الانتفاع بما يسمعون إلا كالبهائم التي هي مسلوية الفهم والعقل فلا تطمع فيهم، فإن فائدة السمع والعقل مفقودة، وإن كانوا يسمعون ما يقال لهم ويعقلون ما يتلى عليهم، ولكنهم لما لم ينتفعوا بذلك كانوا كالفاقد له» (٢٣).

ويذكر الشوكاني أيضاً غرضين آخرين من أغراض التشبيه، وهما تحسين المشبه وتقبيحه.

يقول عند قوله تعالى: ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلوعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ (٢٤): «أي: ثمرها وماتحملة كأنه في تناهي قبحه وشناعة منظره رؤوس الشياطين، فشبه المحسوس بالمتخيل، وإن كان غير مرئي للدلالة على أنه غاية في القبح كما تقول في تشبيه من يستقبحونه: كأنه شيطان، وفي تشبيه من يستحسنونه: كأنه ملك، كما في قوله: ﴿ ما هذا بشرأ إن هذا إلا ملك كريم ﴾ (٢٥) ومنه قول امرئ القيس:

أبقتلني والمشر في مضاجعي
ومسنونة رزق كآنياب أغوال (٢٦)

(٢٢) الفرقان ٤٤ .

(٢٣) فتح القدير ٩٠/٤ .

(٢٤) الصافات ٦٤ و٦٥ .

(٢٥) يوسف ٣١ .

(٢٦) فتح القدير ٤٥٦/٤ . وانظر تخريج البيت ص ٢٩ من هذا البحث .

ويشير الشوكاني أيضاً إلى تحسين المشبه، وهذا مفهوم من وجه الشبه وقد ذكرنا من قبل أن الشيء قد يكون وجهاً باعتبارٍ وغرضاً حينئذٍ بعد التشبيه باعتبارٍ آخر وقد نصَّ عليه المغربي في المواهب^(٢٧).

يقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾^(٢٨) «أي: مثل القرآن في نظمه، وحسن بيانه وبديع أسلوبه»^(٢٩). وفي جعل الآية الكريمة القرآن مشبهاً به لهذا الحديث تحسين له برغم عدمه، لأنهم لن يأتوا بمثل القرآن.

(٢٧) انظر شروح التلخيص (مواهب الفتاح ٣/٣٩٧).

(٢٨) الطور ٣٤.

(٢٩) فتح القدير ٥/١٢٠.

القسم الثاني الحقيقة والمجاز

المبحث الأول : الحقيقة .

المبحث الثاني : المجاز اللغوي :

أولاً : المجاز المرسل .

ثانياً : المجاز التشبيهي .

القسم الثاني الحقيقة والمجاز المبحث الأول : الحقيقة

الحقيقة هي: الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح به التخاطب»^(١). وهي إما لغوية أو شرعية أو عرفية . وقد حدّها الخطيب بحدود تعود إلى واضعها، قال: «لأن واضعها إن كان واضع اللغة فـلغوية، وإن كان الشارع فـشرعية، وإلا فعرفيه، والعرفية إن تعين صاحبها نسبت إليه، كقولنا: كلامية، ونحوية، وإلا بقيت مطلقة.

ويتناول الشوكاني الحقيقة بأقسامها الثلاثة، يقول عند قوله تعالى: ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ﴾^(٢) قال في الكشف: المتقي في اللغة : اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى، والوقاية الصيانة، ومنه: فرس واقٍ، .. وهو في الشريعة: الذي يقي نفسه ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك»^(٣) . ثم يعقب الشوكاني على التعريف الشرعي للمتقي عند صاحب الكشف بقول الرسول ﷺ : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به البأس»^(٤) . ثم يقول: «والمصير إلى ما أفاده الحديث واجب، ويكون هذا معنى شرعياً للمتقي أخص من المعنى الذي قدمنا عن صاحب الكشف زاعماً أنه المعنى الشرعي»^(٥) .

(١) الإيضاح ٣٩٢ .

(٢) البقرة ، الآية (٣،٢).

(٣) فتح القدير ٣٩/١ .

(٤) مسلم بشرح النووي ١٥٧/١ .

(٥) فتح القدير ٤٠/١ .

ويعرف الإيمان لغوياً بقوله: «الإيمان في اللغة التصديق»^(٦) ثم يبين المعنى الشرعي عارضاً لمجموعة من الأقوال أهمها قول النبي ﷺ في حديث جبريل عليه السلام: «فأخبرني عن الإيمان ؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت»^(٧) ثم يعرض لعدد من الآراء منتهياً إلى أن: «الإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل»^(٨) ثم ينقل عن ابن كثير قوله: إن الإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً^{(٨) (٩)} .

ويعرف الشوكاني الصلاة فيذكر معنيها اللغوي والشرعي واختلاف الآراء ووجوه الدلالة لهذه الآراء. يقول : « الصلاة أصلها في اللغة : الدعاء من صلى يصلي إذا دعا»^(١٠) ثم يوضح الشوكاني المعنى الشرعي بقوله : « أما المعنى الشرعي: فهو هذه الصلاة التي هي ذات الأركان والأذكار، وقد اختلف أهل العلم هل هي باقية على أصلها اللغوي [؟] أو موضوعة وضعاً شرعياً ابتدائياً [؟] . فقليل بالأول، وإنما جاء الشرع بزيادات هي الشروط والفروض الثابتة فيها . وقال قوم بالثاني»^(١٠) ، ولم يتبع الشوكاني القولين بترجيح أحدهما لاكتفائه بما ذكره في المعنى اللغوي للصلاة، إذ يظهر منه ترجيحه للقول الثاني .

وعند قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ

(٦) فتح القدير ٤٠/١ .

(٧) البخاري: نحوه من حديث أبي هريرة (انظر مختصر صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، ص ٣٤) .

(٨) فتح القدير ٤٢/١ .

(٩) اختلف الإسلاميون في المعنى الشرعي للإيمان على أقوالٍ أصحها قول أهل الحديث: «تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان» (شرح الطحاوية/٣١٣) وانظر (فتاوى العقيدة لابن عثيمين/١٣٣) .

(١٠) فتح القدير ٤٢/١ .

ماكسبتم ﴿ (١١) يبين الإمام الشوكاني المعنيين اللغوي والشرعي لكلمة الطيبات، يقول: «أي: من جيد ماكسبتم ومختاره، كذا قال الجمهور. وقال جماعة: إن معنى الطيبات هنا: الحلال، ولا مانع من اعتبار الأمرين جميعاً ، لأن جيد الكسب ومختاره إنما يطلق على الحلال عند أهل الشرع، وإن أطلقه أهل اللغة على ما هو جيد في نفسه حلالاً كان أو حراماً، فالحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية» (١٢) .

والمراد بتقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية هنا هو التقديم في الحكم الشرعي إذ هي عند الفقهاء أولى من اللغوية، أما التقدّم الزمني في الوضع فهو للغوية بلا شك والبناء الصرفي في قوله «مقدمة» فيه بيان لهذا ، للفرق بين التقديم والتقدم.

ويتناول الشوكاني كلمة «التيّم» في معنيها اللغوي والشرعي ويبين ما وقع فيه ابن السكيت وابن الأنباري من الخلط بينهما يقول عند قوله تعالى: ﴿ فتيّموا صعيداً طيباً ﴾ (١٣) : «قوله (فتيّموا) التيمم لغة : القصد، يقال : تيممت الشيء: قصدته، وتيممت الصعيد: تعمدته، وتيممته بسهمي ورمحي : قصدته دون سواه، وأنشد الخليل :

ييمته الرمح شزراً ثم قلت له هذي البسالة لا لعب الزحاليق (١٤)
وقال امرؤ القيس :

تيمّمتها من أذرعاتٍ وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالي (١٥) .

(١١) البقرة ، الآية ٢٦٧ .

(١٢) فتح القدير ٣٣١/١ .

(١٣) النساء ، الآية ٤٣ .

(١٤) البيت لعامر بن مالك ملاعب الأسنة انظر اللسان ٣/١٢، ومعجم مقاييسم اللغة ٣١/١ .

(١٥) روى مطلع البيت (تنورثها) . ديوان امرئ القيس ٣١ .

قال ابن السكيت: قوله : (فتيمموا) أي : اقصدوا ، ثم كثر استعمال هذه الكلمة حتى صار التيمم مسح الوجه واليدين بالتراب . وقال ابن الأنباري في قولهم قد تيمم الرجل : معناه : قد مسح التراب على وجهه ، وهذا خلط منهما للمعنى اللغوي بالمعنى الشرعي ، فإن العرب لاتعرف التيمم بمعنى مسح على الوجه واليدين ، وإنما هو معنى شرعي فقط» (١٦) .

ويتناول الشوكاني كلمة «السكنى» إذ جعلها بعض المفسرين خاصة بالمنزل الذي يسكنه الإنسان ولا يملكه ، ويناقش المعنى في الآية الكريمة ، فعند قوله تعالى : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ (١٧) يقول : « (اسكن) أي اتخذ الجنة مسكناً وهو محل السكون ، وأما ماقاله بعض المفسرين من أن قوله : (اسكن) تنبيهاً على الخروج لأن السكنى لاتكون ملكاً وأخذ ذلك من قول جماعة من العلماء أن من أسكن رجلاً منزلاً فإنه لا يملكه بذلك ، وإن له أن يخرج منه ، فهو معنى عرفي ، والواجب الأخذ بالمعنى العرفي إذا لم تثبت في اللفظ الحقيقة الشرعية» (١٨) .

وعند قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ (١٩) يقول - رحمه الله - : « الظاهر أن الصلاة والزكاة والحج والصوم ونحوها قد نقلها الشرع إلى معان شرعية هي المرادة بما هو مذكور في الكتاب والسنة منها» (٢٠) .

(١٦) فتح القدير ١/٥٤٤ .

(١٧) البقرة ، الآية ٣٥ .

(١٨) فتح القدير ١/٧٩ .

(١٩) البقرة ، الآية ٤٣ .

(٢٠) فتح القدير ١/٩٠ .

المبحث الثاني : المجاز اللغوي

عرّف البلاغيون المجاز اللغوي بأنه الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح به التخاطب على وجه يصحّ ، مع قرينة عدم إرادته ^(١) . فإذا كانت «العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه» ^(٢) سمي مرسلًا لعدم تقييده بعلاقة المشابهة ، وإذا كانت العلاقة هي المشابهة سمي استعارة ، وعلى هذا فإن المجاز اللغوي ينقسم إلى قسمين هما :

١ - المجاز المرسل .

٢ - الاستعارة .

أولاً : المجاز المرسل

وقد تناول الشوكاني المجاز المرسل في تفسيره موضحاً علاقاته المبنية على غير التشبيه ، والعلاقات التي ذكرها الشوكاني متعددة منها :

١ - اعتبار ماكان :

يقول عند قوله تعالى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ ^(٣) : « أطلق اسم اليتيم عليهم عند إعطائهم أموالهم - مع أنهم لايعطونها إلا بعد ارتفاع اسم اليتيم بالبلوغ - مجازاً - باعتبار ماكانوا عليه ، ويجوز أن يراد باليتامى المعنى الحقيقي ، وبالإيتاء : مايدفعه الأولياء والأوصياء إليهم من النفقة والكسوة ، لا دفعها جميعاً » ^(٤) .

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا

(١) الإيضاح ٣٩٦ .

(٢) المصدر السابق ٣٩٧ .

(٣) النساء ، الآية ٢ .

(٤) فتح القدير ٤٨١/١ .

تعضلوهم أن ينكحن أزواجهن ﴿ (٥) : « قوله : (أزواجهن) إن أريد به المطلّقون لهن ، فهو مجاز باعتبار ماكان، وإن أريد به من يردن أن يتزوجنه ، فهو مجاز باعتبار ماسيكون» (٦) .

وهنا يظهر لنا أنه قد تحتمل اللفظة المجازية علاقيتين وذلك عند مراعاة مناسبة اللفظة المجازية للمعنى المرجو من السياق .

٢ - اعتبار ما سيكون :

يقول عند قوله تعالى : ﴿ لا تضارّ والدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ (٧) « اختلف أهل العلم في معنى قوله : (وعلى الوارث مثل ذلك فقيل : هو وارث الصبي ، أي : إذا مات المولود له ، كان على وارث هذا الصبي المولود إرضاعه ، كما كان يلزم أباه ذلك .. وقيل : أي : وارث المرضعة يجب عليه أن يصنع بالمولود كما كانت الأم تصنعه به من الرضاع والخدمة والتربية .. أما ماذهب إليه أهل القول الأوّل: من أن المراد بالوارث : وارث الصبي ، فيقال عليه: إن لم يكن وارثاً حقيقة مع وجود الصبي حياً، بل (٨) هو وارث مجازاً باعتبار مايؤول إليه» (٩) .

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم ﴾ (١٠) : «الاستشهاد طلب الشهادة ، وسماهما شهيدين قبل الشهادة من مجاز الأوّل، أي:

(٥) البقرة ، الآية ٢٣٢ .

(٦) فتح القدير ١/ ٢٨٠ .

(٧) البقرة ، الآية ٢٣٣ .

(٨) لعل العبارة « فهو وارث » .

(٩) فتح القدير ١/ ٢٨٢ .

(١٠) البقرة ، الآية ٢٨٢ .

باعتبار مايؤول إليه أمرهما من الشهادة» (١١) .

وقد ذكرنا كلام الإمام الشوكاني عند قوله تعالى : ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ (١٢) إذ جعل قوله (أزواجهن) محتملاً لقرينتين إحداهما اعتبار ماكان والأخرى اعتبار ماسيكون . يقول في ذلك : «قوله (أزواجهن) إن أريد به المطلَّون فهو مجاز باعتبار ماكان، وإن أريد به من يردن أن يتزوجنه فهو مجاز باعتبار ماسيكون» (١٣) .

٣ - الجزئية :

يقول عند قوله تعالى : ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ (١٤) : «أي: فعلية تحرير رقبة مؤمنة يعتقها كفارة عن قتل الخطأ، وعبر بالرقبة عن جميع الذات» (١٥) .
وعند قوله تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ﴾ (١٦) يقول رحمه الله : «أي: ترفع عن الانقياد للحق ، وتكبر وتجبر، والجانب هنا مجاز عن النفس» (١٧) .

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ (١٨) : «على أن نجمع بعضها إلى بعض، فنردها كما كانت مع لطافتها وصغرها، فكيف بكبار

(١١) فتح القدير ١/ ٣٤٥ .

(١٢) البقرة ، الآية ٢٣٢ .

(١٣) فتح القدير ١/ ٢٨٠ .

(١٤) النساء ، الآية ٩٢ .

(١٥) فتح القدير ١/ ٥٧٤ .

(١٦) فصلت ، الآية ٥١ .

(١٧) فتح القدير ٤/ ٥٩٩ .

(١٨) القيامة ، الآية ٤ .

الأعضاء، فنبه سبحانه بالبنان، وهي الأصابع على بقية الأعضاء... ومنه قول
عنتره:

وأن الموت طوع يدي إذا ما وصلت بنانها بالهندواني^(١٩)
فنبه بالبنان على بقية الأعضاء^(٢٠).

ويقول مشيراً إلى المجاز وعلاقته عند قوله تعالى: ﴿إن نشأ ننزل عليهم آية
فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾^(٢١): « قيل : أصله فظلوا لها خاضعين،
فأقحمت الأعناق لزيادة التقرير والتصوير، لأن الأعناق موضع الخضوع^(٢٢) .
وسر التعبير بالأعناق هنا، هو تقرير خضوعهم وتصويرهم بهذه الصورة.
٤ - الكلية :

يقول عند قوله تعالى: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصوايع حذر
الموت﴾^(٢٣): «إطلاق الأصبع على بعضها مجاز مشهور، والعلاقة الجزئية
والكلية لأن الذي يجعل في الأذن إنما هو رأس الأصبع لا كلها^(٢٤) .
والحقيقة أن العلاقة هنا إنما هي الكلية، ولعل الشوكاني ذكر الجزئية هنا
لكون المراد الجزء والمذكور الكل، والذي عليه البلاغيون أن العلاقة تبني على صلة
المذكور بالمحذوف . فإذا كان اللفظ المذكور هو كل للفظ المراد المحذوف فإن
العلاقة هي الكلية كما في الآية الكريمة والعكس لو كان اللفظ المذكور جزءاً للفظ
المراد فإن العلاقة حينئذٍ هي جزئية ولا أحسب أن هذا يخفي على الإمام
الشوكاني فقد رأينا فيما سبق حديثه عن العلاقة الجزئية بما يمنع اللبس .

(١٩) البيت في ديوانه ص ٢٠٤ .

(٢٠) فتح القدير ٤٠٤/٥ .

(٢١) الشعراء ، الآية ٢٠ .

(٢٢) فتح القدير ٢١/٤ .

(٢٣) البقرة ، الآية ٢٢ .

(٢٤) فتح القدير ٥٧/١ .

ويشير إلى المجاز وعلاقته الكلية عند قوله تعالى : ﴿ فناداته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ﴾ (٢٥) موضحاً أن اللفظ المجازي هنا قد يحتمل الحقيقة يقول عند هذه الآية : « قيل المراد هنا جبريل ، والتعبير بلفظ الجمع عن الواحد جائز في العربية ، ومنه : ﴿ الذين قال لهم الناس ﴾ (٢٦) ، وقيل : ناداه جمع الملائكة ، وهو الظاهر من إسناد الفعل إلى الجمع والمعنى الحقيقي مقدم ، فلا يصار إلى المجاز إلا لقرينة » (٢٧) .

وأحسب أن حمل المعنى على حقيقته هنا هو الصواب لعدم القرينة على كون المنادي هو جبريل عليه السلام ، ولعل من قال بالمجاز اعتمد على حديث أورده الشوكاني بعد هذه الآية ولو صحَّ هذا الحديث لما خفي على عالمنا فهو محدث .

٥ - السببية :

تناول الشوكاني المجاز المبني على علاقة السببية عند قوله تعالى : ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ﴾ (٢٨) يقول عند هذه الآية : « اليد مجاز عن القدرة والاستيلاء » (٢٩) وقد اختلف رأي الشوكاني عند الحديث عن الآيات التي تضمنت اليد، فقد أولها مرة بالقدرة وأخرى بالنعمة وثالثة حملها على المعنى الحقيقي وفسرها بمعنى الجارحة فعند قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ﴾ (٣٠) يقول - رحمه الله - « اليد عند العرب تطلق على الجارحة،

(٢٥) آل عمران ، الآية ٣٩ .

(٢٦) آل عمران ، الآية ١٧٣ .

(٢٧) فتح القدير ١/ ٣٨٦ .

(٢٨) الملك ، الآية ١ .

(٢٩) فتح القدير ٥/ ٣٠٨ .

(٣٠) المائدة ، الآية ٦٤ .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَخَذَ بِيَدِكَ ضَغْثًا ﴾ (٣١). وعلى النعمة ، يقولون كم يد لي عند فلان، وعلى القدرة . ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ (٣٢) أو على التأييد ومنه قوله ﷺ (يد الله مع القاضي حين يقضي) (٣٣) وتطلق على معانٍ آخر. وهذه الآية على طريق التمثيل كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ (٣٤) والعرب تطلق غلّ اليد على البخل وبسطها على الجود مجازاً، ولا يريدون الجارحة كما يصفون البخيل بأنه جعد الأنامل، ومقبوض الكف ، ومنه قول الشاعر (٣٥):

كانت خراسان أرضاً إذ يزيد بها وكل باب من الخيرات مفتوح
فاستبدلت بعده جعداً أنامله كأنما وجهه بالخل منضوح

فمراد اليهود هنا - عليهم لعائن الله - أن الله بخيل ، فأجاب سبحانه عليهم بقوله: (غلت أيديهم) دعاء عليهم بالبخل ، فيكون الجواب عليهم مطابقاً لما أرادوه بقوله : (يد الله مغلولة) ويجوز أن يراد غلّ أيديهم حقيقة بالأسر في الدنيا أو بالعذاب في الآخرة ، ويقوي المعنى الأول أن البخل قد لزم اليهود لزوم الظل للشمس فلا ترى يهودياً، وإن كان ماله في غاية الكثرة، إلا وهو من أبخل خلق الله، وأيضاً المجاز أوفق بالمقام لمطابقته لما قبله» (٣٦) .

(٣١) ص ، الآية ٤٤ .

(٣٢) آل عمران ، الآية ٧٣ .

(٣٣) رواه أحمد وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف . (انظر: الهيتمي : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٩٣/٤) .

(٣٤) الإسراء ، الآية ٢٩ .

(٣٥) هو نهار بن توسعة كما في العقد الفريد ٢٢/٢، على اختلاف في موضع الشاهد فروايته هناك: فاستبدلت بعده قرداً تطيف به.

(٣٦) فتح القدير ٦٦/٢ .

والأولى حمل اليد في الآية على الحقيقة لإثبات هذه الصفة له سبحانه، وسيأتي رأي للشوكاني يثبت فيه صفة اليد لله سبحانه وتعالى ، أما كون البخل ملازماً لليهود فليس دليلاً كافياً على حمل الآية على المجاز مادامت الآية أقرب للحقيقة.

ويتناول الشوكاني قوله تعالى : ﴿ قال يا إبليس مامنك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ (٣٧) فيقول : « أي : ماصرفك وصدك عن السجود لما توليت خلقه من غير واسطة، وأضاف خلقه إلى نفسه تكريماً وتشريفاً له، مع أنه سبحانه خالق كل شيء كما أضاف إلى نفسه الروح ، والبيت ، والناقة ، والمساجد . قال مجاهد: اليد هنا بمعنى التأكيد والصلة مجازاً كقوله: ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ (٣٨) وقيل : أراد باليد القدرة، يقال: مالي بهذا الأمر يد، ومالي به يدان، أي قدرة، ومنه قول الشاعر (٣٩):

تحملت من ذلفاء ما ليس لي يدٌ ولا للجبال الراسيات يدان

وقيل : التثنية في اليد للدلالة على أنها ليست بمعنى القوة والقدرة، بل للدلالة على أنهما صفتان من صفات ذاته سبحانه .

قلت وهذا هو الصواب - والله أعلم - إذ من المعروف عن السلف إثبات صفة اليد له سبحانه، كما أن التثنية هنا تمنع أن يراد بها غير الحقيقة، لكون القدرة والنعمة إنما تطلق عليهما اليد في حالة الأفراد ومع وجود القرائن الصارفة عن المعنى الحقيقي أما في هذه الآية فلا مانع من حمل اليدين على المعنى الحقيقي إذ من الثابت أن الله تعالى خلق آدم بيديه - سبحانه - بلا واسطة وهذا مما شرف الله به آدم .

(٣٧) ص ، الآية ٧٥ .

(٣٨) الرحمن ، الآية ٢٧ .

(٣٩) هو عروة بن حزام كما في الأمالي ١٥٩/٣ ، وهو هناك بلفظ (عفراء) مكان (ذلفاء).

قال ابن القيم - رحمه الله - : « لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع : مفرداً ومثنى ومجموعاً. فالمفرد كقوله : ﴿ بيده الملك ﴾ (٤٠) والمثنى كقوله : ﴿ خلقت بيدي ﴾ (٤١) المجموع ﴿ عملت أيدينا ﴾ (٤٢) فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد وعدى الفعل بالباء إليهما فقال : ﴿ خلقت بيدي ﴾ وحيث ذكرها مجموعة أضاف العمل إليها، ولم يُعدَّ الفعل بالباء. فهذه ثلاثة فروق ، فلا يحتمل ﴿ خلقت بيدي ﴾ من المجاز ما يحتمله ﴿ عملت أيدينا ﴾ فإن كل أحد يفهم من قوله : ﴿ عملت أيدينا ﴾ ما يفهمه من قوله : عملنا وخلقنا، كما يفهم ذلك من قوله : ﴿ بما كسبت أيديكم ﴾ (٤٣) وأما قوله : ﴿ خلقت بيدي ﴾ فلو كان المراد منهم مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى، فكيف وقد دخلت عليها الباء ؟ فكيف إذا تثبت ؟.

وسرّ الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد والمراد الإضافة إليه كقوله : ﴿ بما قدمت يداك ﴾ ﴿ بما كسبت أيديكم ﴾ وأما إذا أضيف إليه الفعل ثم عدي بالباء إلى يده مفردة أو مثناة فهو مما باشرته يده « (٤٤) .

فحاصل كلام ابن القيم أن قوله تعالى : ﴿ خلقت بيدي ﴾ لا يحتمل المجاز في حين أن قوله : ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ يحتمل المجاز ذلك لأن جمع الأيدي هنا قرينة صارفة عن المعنى الحقيقي - والله أعلم - .

(٤٠) الملك ، الآية ١ .

(٤١) ص ، الآية ٧٥ .

(٤٢) يس ، الآية ٧١ .

(٤٣) الشورى ، الآية ٣٠ .

(٤٤) مختصر الصواعق المرسله ٢٧ وما بعدها .

ولنتأمل كلامه في الفرق بين ما يصح فيه المجاز وما لا يصح - وهذا مفهوم من عبارته وإن لم يصرح به - .

يقول في قوله تعالى : ﴿ مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ : « إن الله جعل ذلك خاصة خص بها آدم دون غيره، ولهذا قال له موسى وقت الحاجة : أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء، وكذلك يقول له أهل الموقف إذا سألوه الشفاعة، فهذه أربع خصائص فلو كان المراد باليد القدرة لكان بمنزلة أن يقال له : خلقك الله بقدرته فأي فائدة في ذلك.. إن نفس هذا التركيب المذكور في قوله : ﴿ خلقت بيدي ﴾ يأبى حمل الكلام على القدرة لأنه نسب الخلق إلى نفسه سبحانه ثم عدى الفعل إلى اليد ثم ثناها ثم أدخل عليها الباء التي تدخل على قولك : كتبت بالقلم . ومثل هذا نص صريح لا يحتمل المجاز بوجه، بخلاف ما لو قال: عملت كما قال تعالى : ﴿ بما كسبت أيديكم، وبما قدمت يداك ﴾ فإنه نسب الفعل إلى اليد ابتداءً وخصها بالذكر لأنها آلة الفعل في الغالب^(٤٥) ، ولهذا لما لم يكن خلق الأنعام مساوياً لخلق أبي الأنعام قال تعالى : ﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً ﴾^(٤٦) فأضاف الفعل إلى الأيدي وجمعها ولم يدخل عليها الباء فهذه ثلاثة فروق تبطل إلحاق أحد الموضعين بالآخر، ويتضمن التسوية بينهما عدم مزية أبينا آدم على الأنعام ، وهذا من أبطل الباطل وأعظم العقوق للأب ، إذا ساوى المعطل بينه وبين إبليس والأنعام في الخلق باليدين^(٤٧) .

وهذه الفروق التي أقامها العلامة ابن القيم بين اليدين والأيدي في الآيتين

(٤٥) في هذا إشارة إلى علاقة المجاز عند البيانين ، وقد بين هذا استاذنا الدكتور عبدالعظيم المطعني. انظر (المجاز في اللغة والقرآن الكريم ٩٢٦/٢).

(٤٦) يس ، الآية ٧١ .

(٤٧) مختصر الصواعق المرسلة ٣٢٤ وما بعدها .

تبين إمكان أن تحمل الآية على المجاز عند وجود القرينة، ولو جعل خلق آدم مساوياً لخلق الأنعام في كون كل منهما باشرته اليد لكان هذا حجة عليه، إذ لا مزية حينئذٍ في أن يكون آدم مخصوصاً بالتكريم بأن خلق بيديه سبحانه دون واسطة.

ثم نخلص إلى القول أن العلامة ابن القيم - وهو من أكبر مانعي المجاز في القرآن الكريم - قد فرق بين الآيات التي يجب حملها على الحقيقة ولا يصح بوجه حملها على المجاز، والآيات التي يمكن أن تُصرف عن المعنى الحقيقي، وهذا مفهوم من عبارته كما أسلفنا .

أما الإمام الشوكاني فإن تباين آرائه حول الآيات التي تضمنت صفة اليد، لاتمنع من إثباته لهذه الصفة « صفة اليد » لله سبحانه (٤٨) .

ويستبعد الشوكاني أن يراد بالكف الملك، فعند قوله تعالى : ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ (٤٩) يقول : « أي : يضرب إحدى يديه على الأخرى، وهو كناية عن الندم، كأنه قيل فأصبح يندم (على ما أنفق فيها) أي : في عمارتها وإصلاحها من الأموال ، وقيل: المعنى: يقلب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق، لأن الملك قد يعبر عنه باليد من قولهم: في يده مال، وهو بعيد جداً » (٥٠) .

قلت : أما المعنى الكنائي فهو صحيح إذ تقلب الكفين كناية عن الندم، أما أن يراد بالكف الملك ، فليس في قوة المعنى الذي نراه في اليد .

٦ - المسببية :

يطلق النكاح على العقد والوطء ، ويشير الشوكاني إلى الخلاف في كون أحدهما حقيقة والآخر مجازاً، أو كونهما حقيقتين فيكون من المشترك، ولكنه يمنع

(٤٨) انظر التحف في مذاهب السلف للشوكاني ص ١٠ .

(٤٩) الكهف ، الآية ٤٢ .

(٥٠) فتح القدير ٣/٢٤١ .

أن يراد به معنياه الحقيقي والمجازي معاً لأنه من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو ممنوع.

يقول عند قوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء ﴾ (٥١) : «هنا إشكال وهو: أنه تقرر أن النكاح يقال على العقد فقط، وعلى الوطء فقط، والخلاف في كون أحدهما حقيقة والآخر مجازاً، أو كونهما حقيقتين معروف... ولا يصح حمل النكاح في الآية على معنييه جميعاً أعني العقد والوطء، لأنه من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو ممنوع، أو من باب الجمع بين معنيي المشترك، وفيه الخلاف المعروف في الأصول» (٥٢).

قلت : إن كانت حقيقة النكاح هي العقد فاستعمال الكلمة في الوطء مجاز علاقته السببية، وإن كانت حقيقته هي الوطء فاستعمال الكلمة في العقد مجاز علاقته المسببية، والثاني هو الأرجح . وقد نقل الشوكاني عن صاحب الكشف نحواً من هذا عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ﴾ (٥٣) يقول الشوكاني: «اختلف في لفظ النكاح هل هو حقيقة في الوطء ؟ أو في العقد ؟ أو فيهما على طريقة الاشتراك؟ وكلام صاحب الكشف في هذا الموضع يشعر بأنه حقيقة في الوطء ، فإنه قال : النكاح : الوطء ، وتسمية العقد نكاحاً لملاسته له من حيث أنه طريق إليه ، ونظيره تسميته الخمر إثماً لأنها سبب في اقتراف الإثم» (٥٤).

فالنكاح - على هذا - حقيقة في الوطء فإذا استعمل في العقد كان مجازاً

(٥١) النساء ، الآية ٢٢ .

(٥٢) فتح القدير ١/٥١٥ .

(٥٣) الأحزاب ، الآية ٤٩ .

(٥٤) فتح القدير ٤/٣٣٣ وما بعدها وانظر الكشف ٣/٢٦٧ .

وعلاقته المسببية ، ومثله الإثم حقيقته الذنب فإذا استعمل في الخمر كان مجازاً
علاقته المسببية .

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى
الصلاة ﴾ (٥٥) : « قوله : (إذا قمتم) إذا أردتم القيام ، تعبيراً بالمسبب عن
السبب ، كما في قوله : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ﴾ (٥٦) » (٥٧) .

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى
الناس جميعاً ﴾ (٥٨) : « قال الفراء : قال الكلبي أفلم ييأس بمعنى أفلم يعلم ...
قال الزجاج : وهو مجاز لأن اليأس من الشيء عالم بأنه لا يكون ، نظيره استعمال
الرجاء في معنى الخوف والنسيان في الترك لتضمنهما إياهما » ، ويؤيده قراءة
عليّ وابن عباس وجماعة: أفلم يتبين، ومن هذا قول رباح بن عدي :

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً (٥٩)
أي : ألم يعلم ، وأنشد في هذا أبو عبيدة قول مالك بن عوف النضري :

أقول لهم بالشعب إذ يأسروني ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم (٦٠)
أي : ألم تعلموا ، فمعنى الآية على هذا : أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله

(٥٥) المائة ، الآية ٦ .

(٥٦) النحل ، الآية ٩٨ .

(٥٧) فتح القدير ٢٠/٢ .

(٥٨) الرعد ، الآية ٣١ .

(٥٩) البيت نسبه القرطبي في تفسيره لرباح ٢١٠/٩ ، وهو في أساس البلاغة بلا نسبة
ص ٥١١ .

(٦٠) هذا البيت نسبه القرطبي لمالك بن عوف ٢١٠/٩ ، وهو لسحيم بن وثيل اليربوعي في
اللسان ٢٦٠/٦ ، وأساس البلاغة ٥١١ ، والبرهان ١١٩/١ ، وفي هامش معجم مقاييس
اللغة أنه قد يكون لجابر بن سحيم ١٥٤/٦ .

لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات (٦١).

فالعلاقة هي المسببية، لأن اليأس هنا مترتب على علمهم بعدم هداية الناس جميعاً، ذلك أن الذي يعلم عدم وقوع الشيء، ييأس منه، فعُبرَّ بالمسبب والمراد السبب، والله أعلم.

وعند قوله تعالى : ﴿ ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ﴾ (٦٢) يقول: «المراد بالعلم الذي جعل علة للبعث هو الاختبار مجازاً، فيكون المعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم» (٦٣)، فالعلم مسبب عن الاختبار، وذكر المسبب والمراد سببه فالعلاقة هي المسببية.

وعند قوله تعالى : ﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى ﴾ (٦٤) يقول: «عن سبب ذكرى، وهو الآيات التي يشاهدها من له تفكر واعتبار، فيذكر الله بالتوحيد والتمجيد، فأطلق المسبب على السبب» (٦٥).

قلت والقرينة الصارفة هنا أن غطاء الأعين لا يمنع من الذكر فكان المراد - والله أعلم - هو سبب الذكر .

٧ - الآلية :

ومن العلاقات التي يُبنى عليها المجاز المرسل « الآلية » ، يقول الشوكاني عند قوله تعالى : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ (٦٦) : « أي : اعمل السفينة متلبساً بأعيننا، أي : بمرأى منا ، والمراد : بحراستنا لك، وحفظنا لك، وعبر عن ذلك بالأعين لأنها آلة الرؤية، والرؤية هي التي تكون بها الحراسة والحفظ في الغالب» (٦٧).

(٦١) فتح القدير ٣/ ١٠٠ ، ١٠١ .

(٦٢) الكهف ، الآية ١٢ .

(٦٣) فتح القدير ٣/ ٣٢٣ .

(٦٤) الكهف ، الآية ١٠١ .

(٦٥) فتح القدير ٣/ ٣٧٢ .

(٦٦) هود ، الآية ٣٧ .

(٦٧) فتح القدير ٢/ ٥٦٤ .

٨ - إطلاق المقيد على المطلق (٦٨) :

يقول السعد حول هذا القسم من المجاز المرسل : « إذا أطلق نحو المشفر على شفة الإنسان فإن أريد تشبيهها بمشفر الإبل في الغلط فهو استعارة وإن أريد أنه إطلاق المقيد على المطلق كإطلاق المرسل على الأنف من غير قصد إلى التشبيه فمجاز مرسل، فاللفظ الواحد بالنسبة إلى المعنى الواحد يجوز أن يكون استعارة ومجازاً مرسلًا باعتبارين » (٦٩) .

والشوكاني يحوم بكلامه حول هذا مبيناً أن المعول في حمل اللفظ على الحقيقة أو المجاز ، على ما يصدق عليه اللفظ في لغة العرب ، فعند قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ﴾ (٧٠) يقول : « ذو الظفر : ماله أصبع من دابة أو طائر ، ويدخل فيه الحافر والخفّ والمخلب ، فيتناول الإبل والبقر والغنم والنعام والإوز والبط وكل ما له مخلب من الطير ، وتسمية الحافر والخفّ ظفراً مجاز . والأولى حمل الظفر على ما يصدق عليه اسم الظفر في لغة العرب ، لأن هذا التعميم يأباه ماسيأتي من قوله : (ومن البقر والغنم) فإن كان في لغة العرب بحيث يقال على البقر والغنم كان ذكرهما من بعد تخصيصاً » (٧١) .

(٦٨) هذه العلاقة عند صاحب الإشارات والتنبيهات هي نسبة المقيد إلى المطلق، (انظر الإشارات والتنبيهات لمحمد بن علي الجرجاني ٢٠٦) . وقد سمى الشيخ عبدالقاهر هذا الضرب استعارة لفظية لعدم الفائدة التي تُبنى على التشبيه، وحقه أن لا يُسمى استعارة لما عُرف عن الشيخ عبدالقاهر من تغليب الاستعارة على ما أصله التشبيه، وإنما يدخل في عموم المجاز (انظر أسرار البلاغة/ ٣٠ وما بعدها) .

(٦٩) المطول ٣٥٧ .

(٧٠) الأنعام ، الآية ١٤٦ .

(٧١) فتح القدير ١٩٧/٢ وما بعدها .

المجاز بالحذف :

اختلف البلاغيون في هذا الضرب من المجاز وقد منعه الشيخ عبدالقاهر بناءً على الحدّ اللغوي لكلمة مجاز، إذ لا يتحقق فيه تعريف المجاز الذي هو: «أن تجوز بالشيء موضعه وأصله»^(٧٢) ويرى الشيخ عبدالقاهر: «أن الحذف بمجرد لا يستحق الوصف به ، لأن ترك الذكر وإسقاط الكلمة من الكلام، لا يكون نقلاً لها عن أصلها»^(٧٢) ، وهذا دأب الشيخ عبدالقاهر في ربط المصطلحات بالدلالة اللغوية للفظ كما رأينا في التشبيه والتمثيل .

ويرى السكاكي أن هذا الضرب : « يعد ملحقاً بالمجاز ومشبهاً به لما بينهما من الشبه وهو اشتراكهما في التعدي عن الأصل إلى غير أصل لا أن يُعدّ مجازاً»^(٧٣) .

وينقل الأستاذ عبدالمتعال الصعيدي رأياً ثالثاً لابن الأثير وهو : «أن يُجعل من المجاز بمعنى التوسع في الكلام»^(٧٤) .

والحق أنه لا مشاحة في الاصطلاح؛ والأقرب أن يعدّ هذا الضرب مجازاً فإن أمكن تحديد ملابسته وعلاقته فهو أسلم ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾^(٧٥) وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾^(٧٦) فهاتان الآيتان يمكن أن تُعدّ من المرسل والعلاقة في الأولى هي المحلية أما الثانية فهي الحالية، إذ ذكر المحل في الأولى وأريد حاله وفي الثانية ذكر الحال وأريد محله وموضعه وإلى هذا ذهب الأستاذ عبدالمتعال الصعيدي في

(٧٢) أسرار البلاغة ٤١٧ .

(٧٣) مفتاح العلوم ١٨٥ .

(٧٤) بغية الإيضاح ١٥٣/٣ .

(٧٥) يوسف ، الآية ٨٢ .

(٧٦) النساء ، الآية ٤٣ .

الآية الأولى إذ يقول : « وإذا جعلت القرية مجازاً عن أهلها كان مجازاً مرسلأ من إطلاق اسم المحل على الحال »^(٧٧) ، ولا يلجأ إلى الحذف إلا بعد تعذر العلاقة . ونحوأ من هذا ذكر الإمام الشوكاني عند قوله تعالى : ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ حيث جعل المعنى المجازي محتملاً مع المعنى الحقيقي الذي يجعل الصلاة على معناها الحقيقي . أما المعنى المجازي فهو : « لا تقربوا مواضع الصلاة حال كونكم جنبأ إلا حال عبورك في المسجد من جانب إلى جانب »^(٧٨) . وقد جعل الآية مما يجمع بين الحقيقة والمجاز ، وجوزة بتأويل مشهور ، وهذا التأويل الذي أجازة هنا مخالف لما منعه من قبل وهو الجمع بين الحقيقة والمجاز^(٧٩) ولعل هذا يعود إلى اختلاف الاعتبار في الآيتين الكريمتين . ومما جعله الشوكاني من مجاز الحذف قوله تعالى : ﴿ ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾^(٨٠) يقول عند هذه الآية : « الموعود به على ألسن الرسل هو الثواب الذي وعد الله به أهل طاعته ، ففي الكلام حذف ، وهو لفظ الألسن ، كقوله : ﴿ واسأل القرية ﴾^(٨١) وقيل : المحذوف التصديق ، أي : ما وعدتنا على تصديق رسلك »^(٨٢) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾^(٨١) فقد حمل الآية السابقة عليها فجعل في كليتهما حذفأ . يقول عن هذه الآية : « والمراد أهلها ، أي اسأل أهل القرية) ... ﴿ والعير التي أقبلنا فيها ﴾^(٨١) أي : وقولوا لأبيكم :

(٧٧) بغية الإيضاح ١٥٢/٣ .

(٧٨) فتح القدير ٥٤١/١ .

(٧٩) انظر ص (١٢٠) من هذا البحث .

(٨٠) آل عمران ، الآية ١٩٤ .

(٨١) يوسف ، الآية ٨٢ .

(٨٢) فتح القدير ٤٧١/١ وما بعدها .

اسأل العير التي أقبلنا فيها، أي: أصحابها «(٨٣) .

وكما ذكرنا من قبل فإن قوله تعالى : (ربنا وآتتنا ما وعدتنا على رسلك)
يمكن أن يعد من المجاز المرسل وعلاقته الكلية إذ عُبر عن الألسن بأصحابها وهي
جزء منهم.

وقد تباين كلام الشوكاني حول قوله تعالى : (واسأل القرية) ففيما سبق
رأيناه يعدها من المجاز بالحذف ونجده في موضع آخر يعدها من الإسناد
المجازي فعند قوله تعالى : ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ (٨٤) يقول:
«الأنهار جمع نهر وهو المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر، والمراد : الماء
الذي يجري فيها، وأسند الجري إليها مجازاً، والجاري حقيقة هو الماء كما في
قوله تعالى: (واسأل القرية) أي أهلها ، وكما قال الشاعر (٨٥) :

نبئت أن النار بعدك أوقدت واستبّ بعدك ياكليب المجلس

وهذا البيت قد قرنه في موضع آخر مع آية ظاهر كلامه عنها أنها من مجاز
الحذف وذلك عند قوله تعالى : ﴿ فليدع ناديه ﴾ (٨٦) إذ يقول: « أي : أهل ناديه،
والنادي: المجلس الذي يجلس فيه القوم ويجتمعون فيه من الأهل والعشيرة،
والمعنى: ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه ومنه قول الشاعر :

واستبّ بعدك ياكليب المجلس

أي :أهله « (٨٧) .

ولا يخفى أن قوله تعالى : ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ من المجاز
العقلي الذي علاقته المكانية .

(٨٣) فتح القدير ٥٥/٣ وما بعدها .

(٨٤) البقرة ، الآية ٢٥ .

(٨٥) هو المهلهل بن ربيعة قاله بعد قتل أخيه كليب، شرح الحماسة للتبريزي ١٩٧/٢، سرح
العيون ٩٢ .

(٨٦) العلق ، الآية ١٧ .

(٨٧) فتح القدير ٥٧٣/٥ .

ومن المعلوم أن بيت المهلهل من المجاز المرسل الذي علاقتة المجلية، وعليه
فكلام الشوكاني هنا متباين ، حيث جعل البيت مرة من المجاز بالحذف وأخرى من
الإسناد المجازي ، وكذلك قوله تعالى : (واسأل القرية) . والتحقيق أن يُجعل كلُّ
من البيت والآية الأخيرة من المجاز بالحذف أو من إيجاز الحذف الذي موضعه
علم المعاني .

ثانياً : الاستحارة

هو القسم الثاني من المجاز « وهو ما كانت علاقته تشبيهه معناه بما وضع له »^(١) . ويسمى الاستعارة والمجاز بالاستعارة .

وقد تناول الشوكاني الاستعارة وذكر التشبيه الذي تُبنى عليه، وعدّها من المجاز وذكر التجريد في الاستعارة، والتخييل، وأشار إلى الاستعارة التصريحية، وذكر الاستعارة بالكناية وذكر الاستعارة التبعية، واستعارة المحسوس للمعقول، والتمثيل والمثل.

١ - الاستحارة التصريحية :

هي التي صرّح فيها بالمشبه به .

أ - الاستعارة التصريحية الأصلية :

تناول الشوكاني الاستعارة التصريحية الأصلية مبيناً التشبيه الذي تُبنى عليه من ذلك قوله عند قوله تعالى : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾^(٢) : « السرادق : الحجرة التي تكون حول الفسطاط . والمعنى : أنه أحاط بالكفار سرادق النار على تشبيهه ما يحيط بهم من النار بالسرادق المحيط بمن فيه »^(٣) .

وعند قوله تعالى : ﴿ إنك لا تُسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء ﴾^(٤) . يقول : « لأنه إذا علم أن حالهم كحال الموتى في انتفاء الجدوى بالسمع، أو كحال الصم الذين لا يسمعون، ولا يفهمون، ولا يهتدون صار ذلك سبباً قوياً في عدم

(١) الإيضاح ٤٠٧ .

(٢) الكهف ، الآية ٢٩ .

(٣) فتح القدير ٣/ ٣٣٤ .

(٤) النمل ، الآية ٨٠ .

الاعتداد بهم، شبه الكفار بالموتى الذين لا حس لهم ولا عقل، وبالصمّ الذين لا يسمعون المواعظ، ولا يجيبون الدعاء إلى الله» (٥) .

وتحتمل الآية أن تكون من الاستعارة التمثيلية إلا أن كلام الشوكاني لا يدل على هذا فقد جعل الاستعارة في المفرد .

ومن استعارة الموت للكفر قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدَّعَاءَ ﴾ (٦) فعند هذه الآية ينصّ الشوكاني على التشبيه ويبين أن الكافرين بإعراضهم عن الحق وفقدتهم الانتفاع بالأبصار كما ينبغي، صاروا في حكم الموتى والعمى، وكثيراً ما يُستعار الموت للكفر والجهل كما تستعار الحياة للإسلام والعلم والهدى والإيمان، وقد ذكر الشوكاني هذا عند كثير من الآيات وسنتعرض لها في الاستعارة التبعية من التصريحية. يقول الشوكاني عند الآية السابقة: «شبههم بالموتى وبالصم فقال: (فإنك لا تسمع الموتى) إذا دعوتهم ، فكذا هؤلاء لعدم فهمهم للحقائق، ومعرفتهم للصواب . (ولا تسمع الصم الدعاء) إذا دعوتهم إلى الحق، ووعظتهم بمواعظ الله، وذكرتهم الآخرة وما فيها ، وقوله : (إذا ولوا مدبرين) بيان لإعراضهم عن الحق بعد بيان كونهم كالأموات، وكونهم صمّ الأذان، ... ثم وصفهم بالعمى فقال: ﴿ وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم ﴾ (٦) لفقدتهم للانتفاع بالأبصار كما ينبغي أو لفقدتهم للبصائر» (٧) .

ومن الاستعارة التصريحية الأصلية قوله عند قوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ (٨) : « المرض : كل ما يخرج به الإنسان عن حدّ الصحة من علة أو نفاق أو تقصير في أمر، قاله ابن فارس. وقيل : هو الألم،

(٥) فتح القدير ١٧٣/٤ .

(٦) الروم ، الآيتان ٥٢ و ٥٣ .

(٧) فتح القدير ٢٦٦/٤ وما بعدها .

(٨) البقرة ، الآية ١٠ .

فيكون على هذا مستعاراً للفساد الذي في عقائدهم إما شكاً ونفاقاً أو جحداً وتكذيباً»^(٩) .

ويُستعار النور للإيمان والعلم للهداية، والظلمات للكفر والجهل ، وهذه الاستعارة درجت حتى أصبحت متوسطة بين الحقيقة والمجاز .

يقول الإمام الشوكاني عند قوله تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ (١٠) : «لتخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلالة إلى نور الإيمان والعلم والهداية، جعل الكفر بمنزلة الظلمات، والإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة .. وقيل : إن الظلمة مستعارة للبدعة، والنور مستعار للسنة، وقيل: من الشك إلى اليقين ولا مانع من إرادة جميع هذه الأمور»^(١١) .

وهذه الاستعارة سماها الشيخ عبدالقاهر الاستعارة الصحيحة، وهي التي لا يحسن دخول كلم التشبيه على طرفيها. يقول: « في الاستعارة الصحيحة ما لا يحسن دخول كلم التشبيه عليه، وذلك إذا قوي الشبه بين الأصل والفرع، حتى يتمكن الفرع في النفس بمدخله ذلك الأصل والاتحاد به ، وكونه إياه، وذلك في نحو «النور» إذا استعير للعلم والإيمان و«الظلمة» للكفر والجهل . فهذا النحو لتمكنه وقوة شبيهه ومثانة سببه، قد صار كأنه حقيقة، ولا يحسن لذلك أن نقول في العلم: « كأنه نور » ، وفي الجهل : «كأنه ظلمة»، ولا تكاد تقول للرجل في هذا الجنس : «كأنك قد أوقعتني في ظلمة» بل تقول: «أوقعتني في ظلمة»: وكذلك الأكثر على الألسن والأسبق إلى القلوب أن تقول: «فهمت المسألة فانشرح صدري وحصل في قلبي نور»، ولا تقول : «كأن نوراً حصل في قلبي»^(١٢) .

(٩) فتح القدير ٤٩/١ .

(١٠) إبراهيم ، الآية ١ .

(١١) فتح القدير ١١١/٣ .

(١٢) أسرار البلاغة ٣٣٢ وما بعدها .

ولأجل هذا التقارب بين الطرفين نرى الشوكاني يجعل قوله تعالى: ﴿خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ (١٣) محتملاً لجميع المعاني الممكنة للظلمات والنور، يقول في ذلك: «اختلف أهل العلم في المعنى المراد بالظلمات والنور، فقال جمهور المفسرين: المراد بالظلمات سواد الليل، وبالنور ضياء النهار. وقال الحسن: الكفر والإيمان. قال ابن عطية: وهذا خروج عن الظاهر، انتهى. والأولى أن يقال: إن الظلمات تشمل كل ما يطلق عليه اسم الظلمة، والنور يشمل كل ما يطلق عليه اسم النور، فيدخل تحت ذلك ظلمة الكفر ونور الإيمان» (١٤). وهذا القول يجعل إطلاق النور والظلمات على الإيمان والكفر قريباً من الحقيقة.

ومن التصريحية الأصلية قوله عند قوله تعالى: ﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ (١٥): «الرجس في اللغة: النتن... وهو مستعار لما يحل بهم من العقوبة» (١٦).

وعند قوله تعالى: ﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ (١٧) يقول: «البث: مايرد على الإنسان من الأشياء التي يعظم حزن صاحبها بها حتى لايقدر على إخفائها، كذا قال أهل اللغة، وهو مأخوذ من بثته؛ أي فرقته، فسميت المصيبة بثاً مجازاً، قال ذو الرمة:

وقفت على ربع لمية ناقتي	فمازلت أبكي عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثه	تكلمني أحجاره وملاعبه» (١٨)

(١٣) الأنعام، الآية ١.

(١٤) فتح القدير ١١٢/٢ وما بعدها.

(١٥) الأنعام، الآية ١٢٥.

(١٦) فتح القدير ١٨٣/٢.

(١٧) يوسف، الآية ٨٦.

(١٨) فتح القدير ٥٩/٣، وانظر ديوان ذي الرمة ٨٢١، وأدب الكاتب ٤٦٢.

ويقول عند قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾ (١٩): «كأنه قال: أعقيب ما وجد منه من الإباء والفسق تتخذونه وتتخذون ذريته، أي: أولاده؟ ، وقيل: أتباعه مجازاً» (٢٠).

وعند قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ (٢١) يقول: «قيل المراد بالأوتاد: الجموع والجنود الكثيرة، يعني: أنهم كانوا يقوون أمره ويشدون سلطانه كما تقوي الأوتاد ما ضربت عليه، فالكلام خارج مخرج الاستعارة على هذا» (٢٢).

وقد تجتمع الاستعارة التصريحية مع المكنية، فعند قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (٢٣) يقول: «المفتاح جمع مفتاح بالفتح، وهو المخزن: أي عنده مخازن الغيب، جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها على طريق الاستعارة، أو جمع مفتاح بكسر الميم، وهو المفتاح، جعل للأمور الغيبية مفاتيح يتوصل بها إلى ما في المخازن منها على طريق الاستعارة أيضاً» (٢٤). فعلى الوجه الأول، شُبِّهَتِ الكُتُبُ أو الصُحُفُ التي يُحْفَظُ فيها الغيب بالمخازن بجامع الحفظ ثم استعير لفظ المخازن للصُحُفِ أو الكُتُبِ على طريق الاستعارة التصريحية.

وعلى الوجه الثاني، شُبِّهَ الغيب بالمخازن بجامع الحفظ والستر، ثم أُثْبِتَ لازم المخازن وهو المفاتيح للغيب على سبيل الاستعارة المكنية. وهناك احتمال آخر في الوجه الأول، وذلك أن يكون قد قصد باسم الاستعارة التشبيهية، حيث شُبِّهَ الغيب بالمخازن وأضيف المشبه به إلى المشبه،

(١٩) الكهف، الآية ٥٠.

(٢٠) فتح القدير ٣/٣٤٧.

(٢١) ص، الآية ١٢.

(٢٢) فتح القدير ٤/٤٨٥.

(٢٣) الأنعام، الآية ٥٩.

(٢٤) فتح القدير ٢/١٤٠.

وذلك من التشبيه المؤكد كقول ابن خفاجة الأندلسي :

والريح تعبت بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء^(٢٥)
وهذا احتمال يؤكد أمران :

أولهما أن التشبيه المؤكد أو المحذوف الأداة جعله الشيخ عبدالقاهر قريباً من الاستعارة أو أن يطلق عليه اسم استعارة^(٢٦) ، ومعلوم أن القول الفصل في هذا الموضوع عند من جاء وا بعد الشيخ عبدالقاهر^(٢٧) ، ويكون الشوكاني متابعاً لعبدالقاهر في هذا .

وثانيهما : أن الإمام الشوكاني قد أطلق اسم الاستعارة على التشبيه اللفظي المرسل الذي ذكرت أدواته وذلك عند قوله تعالى : ﴿ سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض ﴾^(٢٨) إذ يقول : « أي : عرضها كعرض السموات والأرض ومثله الآية الأخرى : ﴿ عرضها كعرض السماء والأرض ﴾^(٢٩) ، وقد اختلف في معنى ذلك ، فذهب الجمهور إلى أنها تقرن السموات والأرض ببعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض فذلك عرض الجنة ، ونبه بالعرض على الطول لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض ، وقيل : إن هذا الكلام جاء على نهج كلام العرب من الاستعارة دون الحقيقة ، وذلك أنها لما كانت الجنة من الاتساع والانفساح في غاية قصوى ،

(٢٥) البيت في ديوانه ص ١١ .

(٢٦) ينظر أسرار البلاغة ٣٢٩ .

(٢٧) ينظر على سبيل المثال : الإيضاح ٤٠٩ وما بعدها والمطول ٣٤٦ وما بعدها ولأستاذنا

الدكتور/ عبدالعظيم المطعني بحث مستفيض في هذا سماه « التشبيه البليغ هل يرقى

إلى درجة المجاز ؟ » وعروس الأفراح ٢٩٨/٣ وما بعدها .

(٢٨) آل عمران ، الآية ١٣٣ .

(٢٩) الحديد ، الآية ٢١ .

حسن التعبير عنها بعرض السموات والأرض مبالغة، لأنهما أوسع مخلوقات الله سبحانه فيما يعلمه عباده، ولم يقصد بذلك التحديد» (٣٠).

وإذا كان الشوكاني قد نقل الرأي القائل بأنها استعارة، فإن سكوته وعدم رده على ذلك يعد إقراراً منه وقبولاً لهذا الرأي.

ولا أحسب هذا تساهلاً من عالمنا في استعمال المصطلحات البلاغية، وذلك بالنظر إلى ما تناوله في تفسيره من الأنواع البلاغية مما يؤكد طول باعه وسعة اطلاعه في هذا المجال، فلا يقل منزلة عن غيره من البيانين.

ولا يخفى ما في المصادر البلاغية من اختلاف في بعض التسميات والمصطلحات، والاختلاف الاصطلاحي لا يغير من أصول العلم أو فروعه فحقيقته ثابتة وإن اختلفت الأسماء.

ب - الاستعارة التصريحية التبعية :

أشار الشوكاني إلى الاستعارة التبعية وذلك بتناوله الاستعارة في الفعل والمشتق والظرف والحرف.

يقول في الاستعارة التبعية في الفعل عند قوله تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ (٣١) : « المعنى : وما منعنا من إرسال الآيات التي سألوها إلا تكذيب الأولين ، فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يُمهّلوا كما هو سنة الله سبحانه في عباده ، فالمنع مستعار للترك » (٣٢).

ومن ذلك ما ذكره الشوكاني من استعارة الحياة للهداية والعلم، وكأنه بهذا يشير إلى المصدر الذي تعود له الاستعارة في الفعل، كما أن الموت يستعار للكفر

(٣٠) فتح القدير ٤٣٦/١ وما بعدها .

(٣١) الإسراء ، الآية ٥٩ .

(٣٢) فتح القدير ٢٨٢/٣ .

والضلال. يقول عند قوله تعالى ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ (٣٣) : «المراد بالميت هنا : الكافر أحياه الله بالإسلام ، وقيل معناه : كان ميتاً حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح فيه. والأول أولى ، لأن السياق يشعر بذلك لكونه في تنفير المسلمين عن اتباع المشركين، وكثيراً ما تستعار الحياة للهداية والعلم، ومنه قول القائل :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحيَ بالعلم ميّت فليس له حتى النشور نشور» (٣٤)

والملاحظ أن البيتين من التشبيه الاصطلاحي ، وليس من الاستعارة، ولعل الشوكاني أراد بقوله «ومنه» أي من التشبيه الذي تضمنته الاستعارة لكون الاستعارة تشبيهاً معنوياً، فالضمير عائدٌ على التشبيه لا على الاستعارة، فكأنه قال ومن تشبيه الجاهل بالميت قوله .. الخ .

وعند قوله تعالى : ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ (٣٥) يقول : «المعنى في الآية: أن الله جعل لكل من الفريقين نصيباً على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته، وعبر عن ذلك المفعول لكل فريق من فرريقي النساء والرجال بالنصيب مما اكتسبوا على طريق الاستعارة التبعية ، شبه اقتضاء حال كل فريق لنصيبه باكتسابه إياه» (٣٦).

ويذكر الشوكاني كذلك كثيراً من مواضع الاستعارة التبعية في الآيات

(٣٣) الأنعام ، الآية ١٢٢ .

(٣٤) فتح القدير ١٨١/٢ . والبيتان لبعض شعراء البصرة، انظر تفسير القرطبي ٥٢/٧ .

(٣٥) النساء ، الآية ٣٢ .

(٣٦) فتح القدير ٥٣٠/١ .

الكريمة يقول عند قوله تعالى: ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ (٣٧):
«الشراء هنا مستعار للاستبدال أي: استبدلوا الضلالة بالهدى» (٣٨) ثم يبين
القرينة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي للشراء وهو المعاوضة بقوله: «فأما أن
يكون معنى الشراء المعاوضة كما هو أصله حقيقة فلا، لأن المنافقين لم يكونوا
مؤمنين فيبيعوا إيمانهم، والعرب قد تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئاً بشيء.
قال أبو ذؤيب:

فإن تزعميني كنت أجهل فيكم فإني شريت الحلم بعدك بالجهل» (٣٩)
ومثل هذه الاستعارة قوله تعالى: ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ (٤٠)
يقول الشوكاني عندها: « (ولا تشتروا بآياتي) أي بأوامري ونواهي (ثمناً قليلاً)
أي عيشاً نزرأ ورئاسة لا خطر لها جعل ما اعتاضوه ثمناً ، وأوقع الاشتراء عليه
وإن كان الثمن هو المشتري به، لأن الاشتراء هنا مستعار للاستبدال: أي
لاستبدلوا بآياتي ثمناً قليلاً، وكثيراً ما يقع مثل هذا في كلامهم» (٤١).
ويذكر الشوكاني استعارة الذوق لكل من المشقة والإحساس وما ينال
الجراحة. فمن الاستعارة التبعية في ذلك قوله عند قوله تعالى: ﴿ ليزوق وبال
أمره ﴾ (٤٢): « الذوق مستعار لإدراك المشقة » (٤٣).

(٣٧) البقرة ، الآية ١٦ .

(٣٨) فتح القدير ٥٤/١ .

(٣٩) فتح القدير ، وانظر البيت في شرح أشعار الهذليين ٩٠/١ ، ولسان العرب ٢٦٤/١٢ .

(٤٠) البقرة ، الآية ٤١ .

(٤١) فتح القدير ٨٨/١ .

(٤٢) المائدة ، الآية ٩٥ .

(٤٣) فتح القدير ٨٩/٢ .

وعند قوله تعالى : ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ ^(٤٤) يقول :
«استبعار الذوق للإحساس، ومنه قول طفيل الغنوي :

فذوقوا كما ذقنا غداة مُحجَّرٍ من الغيظ في أكبادنا والتحوب ^(٤٥)

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ فأذاقهم الله الحزني في الحياة الدنيا ﴾ ^(٤٦) : «قال

المبرد : يقال لكل مانال الجارحة من شيء قد ذاقته، أي : وصل إليها كما تصل
الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما» ^(٤٧) .

وكلام المبرد هنا يجعل الذوق قريباً من الحقيقة إذا أطلق على كل ما ينال
الجارحة، ولذا نجد الشوكاني ينقل عن البلاغين قولهم : «إطلاق الذوق على إدراك
الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة» ^(٤٨) .

ومن التبعية قوله عند قوله تعالى : ﴿ وإن منها لما يهبط من خشية
الله ﴾ ^(٤٩) : «ومن الحجارة ما يهبط أي : ينحط من المكان الذي هو فيه إلى أسفل
منه من الخشية لله التي تداخله ويحل به، وقيل: إن الهبوط مجاز عن الخشوع
منها، والتواضع الكائن فيها انقيادا لله عز وجل» ^(٥٠) .

وعند قوله تعالى : ﴿ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ ^(٥١) يقول : « قيل : هو مجاز عن
التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها » ^(٥٢) ، ولعل

(٤٤) السجدة ، الآية ١٤ .

(٤٥) فتح القدير ٢٩٢/٤ والبيت في ديوان طفيل ص ٩٦ ، ولسان العرب ٤٠١/١ .

(٤٦) الزمر ، الآية ٢٦ .

(٤٧) فتح القدير ٢٥٨/٤ .

(٤٨) فتح القدير ٢٣٨/٣ .

(٤٩) البقرة ، الآية ٧٤ .

(٥٠) فتح القدير ١١٩/١ .

(٥١) آل عمران ، الآية ٣٧ .

(٥٢) فتح القدير ٣٨٥/١ .

المقصود بالتربية هنا هو النمو، فهي تفعلة من «رباً» وذلك لتتم المناسبة، لكون الإنبات يستعار لنمو الإنسان أو إيجاده من العدم، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾^(٥٣) يقول الشوكاني: «المعنى: أنشأكم منها إنشاءً، فاستعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكوين»^(٥٤)، والآية تحتمل الاستعارة المكنية وذلك بأن يُشَبَّه الإنسان بالنبات الذي من لوازمه أنه يُنَبَّت ثم يجعل الإنبات للإنسان على سبيل الاستعارة المكنية وقرينتها هنا تخيلية، وكلام الشوكاني هنا لا يحتمل إلا التصريحية .

ومثلما يستعار الإنبات للحي فإن الإحياء يستعار للنبات . يقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿الله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه لبلد ميت فأحييناه الأرض بعد موتها﴾^(٥٥): «استعار الإحياء للنبات، والموت لليبس»^(٥٦).

وكلام الشوكاني في استعارة الإحياء للنبات يحتمل أمرين : أحدهما : أنه أراد استعارة الإحياء للإنبات فأنا ب « النبات » مناب الإنبات كما في الآية السابقة، إذ تنوب بعض المصادر عن بعض، ولا بد من جعل الأرض في الآية مجازاً مرسللاً عن النبات بعلاقة المحلية، فيكون في الآية استعارة تصريحية على مجاز مرسل.

وثانيهما : أنه أراد بقوله : «استعار الإحياء للإنبات» أثبت الإحياء للإنبات، أي أثبت لازم الحي للنبات على سبيل الاستعارة المكنية ولا بد من جعل الأرض مجازاً عن النبات كما في الآية السابقة .

ولعل الأرجح في الآية أن الإحياء أثبت للأرض على طريق الاستعارة المكنية

(٥٣) نوح ، الآية ١٧ .

(٥٤) فتح القدير ٣٥٨/٥ .

(٥٥) فاطر ، الآية ٩ .

(٥٦) فتح القدير ٣٩١/٤ .

حيث شبهت بالإنسان بجامع الحركة والاهتزاز وعلى هذا فإن استعارة الموت لها من الاستعارة المكنية، وذلك في قوله : (بعد موتها) .

أما ما جعل الشوكاني يذكر النبات هنا فهو أنه نظر إلى أسباب إحياء الأرض ومسبباته وهو المطر والنبات، وهما وإن كانا داخليين في المعنى والتأويل إلا أنهما لا يدخلان في الاستعارة إلا على تأويل كما أسلفنا .

ويستعار الإحياء للترك على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، يقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿ ومن أحيّاها فكأنما أحيّا الناس جميعا ﴾ (٥٧): الإحياء هنا عبارة عن الترك والإنقاذ من هلكة فهو مجاز ، إذ المعنى الحقيقي مختص بالله عز وجل (٥٨) .

ويستعار الرمي للشتم ، يقول عند قوله تعالى : ﴿ والذين يرمون المحصنات ﴾ (٥٩) : « استعار الرمي للشتم بفاحشة الزنا لكونه جناية بالقول كما قال النابغة :

وجرح اللسان كجرح اليد (٦٠)

وقال آخر (٦١) :

رمانى بأمر كنت منه ووالدي بريئاً ومن أجل الطوى رمانى (٦٢)

وبيت النابغة من التشبيه اللفظي ، وقد أورده الشوكاني لبيان المعنى

(٥٧) المائة ، الآية ٣٢ .

(٥٨) فتح القدير ٤٠/٢ .

(٥٩) النور، الآية ٤٦ .

(٦٠) اختلف في نسبة البيت ، فهو في ديوان امرئ القيس ص ١٨٥ ، ونسبه له الشنتمري،

وفي سمط اللالكى له ولعمرو بن معد يكرب وغيرهما ٥٣١/١ ، وليس في ديواني النابغتين

وإنما تابع الشوكاني القرطبي، انظر تفسير القرطبي ١١٥/١٢ .

(٦١) هو عمرو بن أحمر الباهلي أو طرفة الفراسي كما في لسان العرب ١٣٢/١١ .

(٦٢) فتح القدير ٩/٤ .

المستعمل في الجرح إذ يستعار الجرح للسان كما يستعار لها « الرمي » ، وجعل التشبيه مماثلاً للاستعارة لاتفاقهما في الأصل أو لكونها تعود إليه وتبني عليه ، وقد أشرنا إلى نحو هذا من قبل (٦٣) .

وعند قوله تعالى : ﴿ فاجلدوهم ثمانين جلدة ﴾ (٦٤) يقول : « الجلد : الضرب كما تقدم ، والمجادة المضاربة في الجلود أو بالجلود ، ثم استعير للضرب بالعصى والسيف وغيرهما ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

أجالدهم يوم الحديقة حاسراً كأن يدي بالسيف مخراق لاعب» (٦٥)

وعند قوله تعالى : ﴿ إن تمسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ (٦٦) يبين لنا معنى لطيفاً في اللفظ المستعار تحتمله الآية مثلما تحتل الاستعارة ، فيؤدي هذا اللفظ معنى لا يقل رونقاً عن الاستعارة إذ يقول : « عبر بالمس في الحسنة ، وبالإصابة في السيئة للدلالة على أن مجرد مس الحسنة يحصل به المساءة [لهم] ، ولا يفرحون إلا بإصابة السيئة » (٦٧) .

أما الاستعارة فيبينها بقوله : « إن المس مستعار لمعنى الإصابة » (٦٧) .

وعند قوله تعالى : ﴿ سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ (٦٨) يقول : « الإلقاء يستعمل حقيقة في الأجسام ، ومجازاً في غيرها كهذه الآية » (٦٩) .

وعند قوله تعالى : ﴿ ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ (٧٠) يقول : « الحريق :

(٦٣) انظر ص (١٣٢) من هذا البحث .

(٦٤) النور ، الآية ٤ .

(٦٥) فتح القدير ١٠/٤ والبيت في ديوان قيس بن الخطيم ص ٨٨ .

(٦٦) آل عمران ، الآية ١٢٠ .

(٦٧) ٤٣١/١ .

(٦٨) آل عمران ، الآية ١٤٩ .

(٦٩) فتح القدير ١/٤٤٥ .

(٧٠) آل عمران ، الآية ١٨١ .

اسم للنار الملهبة وإطلاق الذوق على إحساس العذاب فيه مبالغة بليغة» (٧١) .

ونلاحظ تسميته للاستعارة بالمبالغة ووصفها بأنها بليغة، فأما المبالغة فإن الاستعارة تشبيهه جاء على وجه المبالغة، والشوكانى يسمي الاستعارة مرة تشبيهاً وأخرى مجازاً وثالثة مبالغة وقد يذكرها بطريقة أخرى وهي أن ينفي عن موضع الاستعارة أن يكون حقيقة دون أن يصرح بكلمة مجاز أو استعارة أو نحو ذلك مما يدلُّ به عليها، وقد عرضنا لكل هذا فيما سبق من هذا الموضوع.

ويذكر الشوكانى قرينة الاستعارة ، بما يمنع أن يُراد باللفظ حقيقة معناه بل لابد من حمله على المعنى المجازي ، وهو هنا استعارة تصريحية تبعية .

يقول عند قوله تعالى : ﴿ فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ (٧٢) : « أي تركوا ماذكروا به، أو أعرضوا عما ذكروا به، لأن النسيان لو كان على حقيقته لم يؤاخذوا به، إذ ليس هو من فعلهم » (٧٣) .

وكذلك عند قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ (٧٤) نجده ينفي أن يراد بالمعنى حقيقته، إذ المراد المعنى المجازي تشبيهاً للنوم بالموت، حيث يقول: « أي ينيمكم فيقبض فيه نفوسكم التي بها تميزون وليس ذلك موتاً حقيقة، فهو مثل قوله: ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ (٧٥) .. ثم (يبعثكم فيه) أي في النهار، يعني اليقظة» (٧٦) .

ومن ذلك أيضاً قوله عند قوله تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم

(٧١) فتح القدير ١/٤٦٥ .

(٧٢) الأنعام ، الآية ٤٤ .

(٧٣) فتح القدير ٢/١٣٢ .

(٧٤) الأنعام ، الآية ٦٠ .

(٧٥) الزمر ، الآية ٧٠ .

(٧٦) فتح القدير ٢/١٤٢ وما بعدها .

الله كثيراً» (٧٧) : «الظاهر من الهدم المذكور معناه الحقيقي - وقيل : المراد به المعنى المجازي ، وهو تعطلها عن العبادة» (٧٨) .

ويتناول الشوكاني الاستعارة التبعية في المشتق . إذ يقول عند قوله تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ (٧٩) : « الأيّم: التي لا زوج لها بكرة كانت أو ثيباً، والجمع أيامى، والأصل أيام، والأيّم بتشديد الياء، ويشمل الرجل والمرأة. قال أبو عمرو الكسائي: اتفق أهل اللغة على أن الأيّم في الأصل هي المرأة التي لا زوج لها، بكرة كانت أو ثيباً. قال أبو عبيد: يقال رجل أيّم وامرأة أيّم، وأكثر ما يكون في النساء، وهو كالمستعار في الرجال، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

لله در بني عد ي أيّم منهم وناكح (٨٠)

ومنه أيضاً قول الآخر :

لقد إمت حتى لامني كل صاحب رجاء بسلمى أن تنئيم كما إمت» (٨١)

وأحسب أن استعمال « الأيّم » في الذي لا زوج له من الرجال - إن لم يكن من الحقيقة - فهو إلى المجاز المرسل أقرب منه إلى الاستعارة، وذلك بعلاقة الإطلاق والتقييد أما الاستعارة فلا تفيد هنا إذا شبه الرجل بالمرأة إلا على بُعد «بل إن الاستعارة ههنا بأن تنقصك جزءاً من الفائدة أشبه» (٨٢) .

ويتناول الشوكاني الاستعارة في الظرف والحرف، وهما من التبعية أيضاً،

(٧٧) الحج ، الآية ٤٠ .

(٧٨) فتح القدير ٣/ ٥٤١ .

(٧٩) النور ، الآية ٣٢ .

(٨٠) انظر البيت في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٧٧، بلفظ «على» مكان «عدي» .

(٨١) فتح القدير ٤/ ٣٢ وما بعدها . والبيت في لسان العرب بغير نسبة ١٢/ ٣٩ .

(٨٢) أسرار البلاغة ٣٢ .

يقول عند قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُل نَفْس مَا أَسْلَفَتْ ﴾ (٨٣): « أي : في ذلك المكان، وفي ذلك الموقف، أو في ذلك الوقت على استعارة اسم الزمان للمكان » (٨٤).

ولعل الصواب استعارة اسم المكان للزمان، أي في ذلك الوقت، لكون اسم الإشارة « هُنَالِكَ » يستعمل حقيقة للمكان. ولعل هذا الخطأ وقع من الناسخ أو سهواً من عالمنا - رحمه الله - فلا شك في طول باعه في علوم العربية وفنونها.

ويذكر الاستعارة في الحرف عند قوله تعالى: ﴿ وَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جَذْوَع النَّخْلِ ﴾ (٨٥) يقول: « أي : على جذوعها ، كقوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ سَلْمٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ ﴾ (٨٦) أي: عليه، ومنه قول سويد بن أبي كاهل:

هُمْ صَلَبُوا الْعَبْدَى فِي جَذْعِ نَخْلَةٍ فَلَا عَطَسَتْ شَيْبَانُ إِلَّا بِأَجْدَعَا (٨٧)

وإنما أثر كلمة (في) للدلالة على استقرارهم عليها كاستقرار المظروف في الظرف» (٨٨).

وعند قوله تعالى: ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾ (٨٩) يقول: « اللام في (ليكون لهم عدواً وحزناً) لام العاقبة، ووجه ذلك أنهم إنما أخذوه ليكون لهم ولداً، وقرة عين لا ليكون عدواً، فكان عاقبة ذلك أنه كان لهم عدواً وحزناً، ولما كانت هذه العداوة نتيجة لفعلهم، وثمرة له شبهت بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله، ومن هذا قول الشاعر (٩٠):

لدوا للموت وابنوا للخراب

وقول الآخر :

وللمنايا تُربى كل مرضعة ودورنا لخراب الدهر نبنيها» (٩١)

(٨٣) يونس ، الآية ٣٠ .

(٨٤) فتح القدير ٢/ ٥٠٠ .

(٨٥) طه ، الآية ٧١ .

(٨٦) الطور ، الآية ٣٨ .

(٨٧) انظر البيت في لسان العرب ٣/ ٢٧٧، وفي أدب الكاتب ٥٠٦ ولم ينسبه ابن قتيبة.

(٨٨) فتح القدير ٣/ ٤٤٤ .

(٨٩) القصص ، الآية ٨ .

(٩٠) هو أبو العتاهية، انظر ديوانه ٣٣ وعجزه : فلكم يصير إلى ذهاب .

(٩١) قائله سابق البربري ، انظر اللامات ١٢٠ ، وأورده صاحب اللسان بغير نسبة ١٢/ ٥٦٢ .

٣ - التمثيل على سبيل الاستعارة

يطلق التمثيل في اصطلاح البلاغيين على شيئين :

أحدهما : التشبيه المركب الوجه . وقد تناولناه فيما سبق ضمن قسم التشبيه^(١) .

وثانيهما : المجاز المركب التشبيهي، وهو مانحن بصدده هنا، ويُسمى كذلك الاستعارة التمثيلية والتمثيل على سبيل الاستعارة^(٢) .

وقد حدّه الخطيب بقوله : « هو المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه ، أي : تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى ثم تدخل المشبهة في جنس المشبه بها، مبالغة في التشبيه، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه»^(٣) .

وقد تناول الشوكاني التمثيل على سبيل الاستعارة، وذكر المثل ، كما قسم المثل قسمين وعرف كل قسم وتناوله بالبيان والتحديد .

ومن تناوله للتمثيل بالاستعارة قوله عند قوله تعالى: ﴿ أَيُودِ أَحَدَكُم أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾^(٤) : « هذه الآية تمثيل من يعمل خيراً ويضم إليه ما يحبطه ، فيجده يوم القيامة عند شدة حاجته إليه لايسمن ولا يغني من جوع، بحال من له هذه الجنة الموصوفة وهو متصف بتلك الصفة»^(٥) .

(١) ينظر المركب ص ٤٢ وما بعدها .

(٢) الإيضاح ٤٤١ .

(٣) المصدر السابق ٤٣٨ .

(٤) البقرة ، الآية ٢٦٦ .

(٥) فتح القدير ١/ ٣٣٠ .

وعند قوله تعالى: ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ (٦) يقول: المراد بالختم والغشاوة هنا هما المعنويان لا الحسيان ، أي لما كانت قلوبهم غير واعية لما وصل إليها، والأسماع غير مؤدية لما يطرقتها من الآيات البينات إلى العقل على وجه مفهوم، والأبصار غير مهدية للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته بمنزلة الأشياء المختوم عليها ختماً حسياً، والمستوثق منها استيثاقاً حقيقياً، والمغطاة بغطاء مدرك استعارة أو تمثيلاً وإسناد الختم إلى الله قد احتج به أهل السنة على المعتزلة» (٧).

وقد جعل الشوكاني ختم القلوب والاستيثاق منها استعارة أو تمثيلاً، والواضح أنه يريد بالاستعارة هنا التصريحية التبعية في الفعل «ختم». ولعل الشوكاني أفاد من البيضاوي حيث يقول : « لاختم ولا تغشية على الحقيقة وإنما المراد بهما أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصي واستقباح الإيمان والطاعات بسبب غيهم وانهماكهم في التقليد وإعراضهم عن النظر الصحيح فتجعل قلوبهم بحيث لاينفذ فيها الحق وأسماعهم تعاف استماعه فتصير كأنها مستوثق منها بالختم وأبصارهم لاتجتلي الآيات المنصوبه لهم في الأنفس والآفاق كما تجتليها أعين المستبصرين فتصير كأنها غُطي عليها وحيل بينها وبين الأبصار وسماه على الاستعارة ختماً وتغشية، أو مثل قلوبهم ومشاعرهم المؤوفة بها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها ختماً وتغطية» (٨).

وقد وضح الكازروني في حاشيته على تفسير البيضاوي الاستعارتين . يقول

(٦) البقرة ، الآية ٧ .

(٧) فتح القدير ٤٦/١ .

(٨) تفسير البيضاوي ٢٣/١ .

في التصريحية : «قوله^(٩) : وسماه على الاستعارة أي سمي إحداث الهيئة التي تمرنهم على استحباب الكفر المانعة من دخول الإيمان في قلوبهم ختماً بسبب تشبيه الأول بالثاني ووجه التشبيه المنع من التصرف، فكما أن الختم على الشيء مانع تصرف الغير^(١٠) فيه كذلك الهيئة المذكورة مانعة من تصرف الغير وهو الإنذار الذي شأنه أن يحصل به الإيمان في القلب فعلى هذا يكون «ختم» استعارة تبعية تصريحية.

ويوضح التمثيلية بقوله: «قوله: أو مثل حال قلوبهم. قال الشريف العلامة محصول ما ذكره أي الكشف أن يشبه حال قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم مع الهيئة الحادثة المانعة من الانتفاع بها في الأغراض الدينية التي خلقت تلك الآلات لأجلها بحال الأشياء المعدودة للانتفاع بها في مصالح مهمة مع المنع عن ذلك بالختم والتغطية، ثم يستعار للمشبه اللفظ الدالّ على المشبه به فيكون كل واحدٍ من طرفي التشبيه مركباً من عدة أمور، والجامع عدم الانتفاع بما أعد له بسبب عروض مانع تمكن فيه كالمانع الأصلي وهو أمر عقلي ينتزع من تلك العدة فتكون تلك الاستعارة تمثيلية . فإن قيل إذا استعير اللفظ من حالة مركبة لأخرى مثلها وجب أن يكون ذلك اللفظ مركباً قطعاً إذ لا يراد بالمعنى المركب ههنا ماله أجزاء في نفسه بل مادل عليه بلفظ مركب، وعلى هذا كيف يمكن حمل الآية على التمثيل وليس فيها لفظ مركب مستعار من المشبه به للمشبه، بل هناك لفظان مفردان صالحان للاستعارة فقط. قلنا: إذا حمل مانحن فيه على الاستعارة التمثيلية، كان

(٩) أي : البيضاوي .

(١٠) منع النحاه دخول «أل» على غير ونحوها مقطوعة عن المضاف لما فيه «أل»، لأن ذلك كالجمع بين الألف واللام ومعنى الإضافة من جهة تضمنها معنى الإضافة فصارت الإضافة كالمفوض بها. (ينظر شرح المفصل لابن يعيش ج ٣ ص ١٢٩) وحاشية الشهاب

المستعار لفظاً مركباً بعضه ملفوظ، وبعضه منوي في الإرادة»^(١١) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(١٢) : « هذا الكلام من باب التمثيل على معنى: أنه لا يمتنع عليه شيء ، وأن وجوده عند إرادته كوجود المأمورية عند الأمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع، وليس هناك قول ولا مقول ولا أمر ولا مأمور ، حتى يقال إنه يلزم منه أحد محالين: إما خطاب المعدوم، أو تحصيل لحاصل»^(١٣) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾^(١٤) « مثل الله سبحانه في هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة إلى عنقه بحيث لا يستطيع التصرف بها، ومثل حال من يجاوز الحد في التصرف بحال من يبسط يده بسطاً ولا يتعلق بسببه فيها شيء مما تقبض الأيدي عليه، وفي هذا التصوير مبالغة بليغة»^(١٥) .

وفي الآية الكريمة كنايتان فقوله : (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ) كناية عن الإمساك المفرط الذي هو الشح وقوله : (وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) كناية عن الإنفاق المفرط كذلك الذي هو التبذير . ولعل الكناية هنا أقرب من التمثيل، وإنما تابع الشوكاني الزمخشري^(١٦) والبيضاوي^(١٧) وكلامه أقرب إلى البيضاوي لكونه جعلهما تمثيلين لحالين .

ويقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ

(١١) حاشية الكازروني ٧١/١ ، وحاشية السيد الشريف على الكشاف ١٥٦/١ ، ١٥٧ .

(١٢) النحل ، الآية ٤٠ .

(١٣) فتح القدير ١٩٥/٣ .

(١٤) الإسراء ، الآية ٢٩ .

(١٥) فتح القدير ٢٦٤/٣ .

(١٦) الكشاف ٤٤٧/٢ .

(١٧) تفسير البيضاوي ٥٦٩/١ .

أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴿١٨﴾ : « قال في الكشف : إنه تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه، وسرعة إنجاحه حاجة من سألته، عن قرب مكانه، فإذا دُعي أسرع تلبيةه » (١٩) .

وعند قوله تعالى - وهو نظير الآية السابقة - ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ (٢٠) يقول: « الوريد الوتين ، وهو عرق معلق بالقلب، وهو تمثيل للقرب بقرب ذلك العرق من الإنسان ، أي : نحن أقرب إليه من حبل وريده، والإضافة ببيانته ، أي : حبل هو الوريد » (٢١) ، ومثل هذا ذكره عند قوله تعالى: ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ (٢٢) .

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾ (٢٣) « قيل : هذا تمثيل وتصوير لحالهم بحال من يقال له ذلك ، من غير أن يكون هناك قول » (٢٤) .

ويذكر الشوكاني تمثيلين في قوله تعالى: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ (٢٥) حيث يقول في الأول منهما: « قوله: (واعتصموا بحبل الله جميعاً) الحبل : لفظ مشترك، وأصله في اللغة السبب الذي يتوصل به إلى البغية، وهو إما

(١٨) البقرة ، الآية ١٨٦ .

(١٩) فتح القدير ٢١٢/١ .

(٢٠) ق ، الآية ١٦ .

(٢١) فتح القدير ٨٨/٥ .

(٢٢) الأنفال ، الآية ٢٤ .

(٢٣) الفرقان ، الآية ١٤ .

(٢٤) فتح القدير ٧٥/٤ .

(٢٥) آل عمران ، الآية ١٠٣ .

تمثيل، أو استعارة، أمرهم بأن يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام أو بالقرآن» (٢٦) .

ويقول في الثاني : « شفا كل شيء: حرفه، وكذلك شفيره، وأشفى على الشيء: أشرف عليه، وهو تمثيل للحالة التي كانوا عليها في الجاهلية» (٢٦) .

وعند قوله تعالى: ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ﴾ (٢٧) يقول : « هو من باب التمثيل: أي : فعلنا فعل من يريد أن يعلم لأنه سبحانه لم يزل عالماً» (٢٨) .

وكذلك عند قوله تعالى: ﴿ ويعلم الصابرين ﴾ (٢٩) يشير الشوكاني إلى أنه تمثيل كسابقه لكونه تعالى لم يزل عالماً. يقول : « فيه تمثيل كالأول» (٣٠) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ (٣١) : «أي: اعتصم بالعهد الأوثق وتعلق به، وهو تمثيل لحال من أسلم وجهه إلى الله، بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل، فتمسك بأوثق عرى جبل متدلّ منه» (٣٢) .

وعند قوله تعالى : ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (٣٣) : «من غير عمل ولا مزاوله وهو تمثيل لكمال قدرته» (٣٤) .

(٢٦) فتح القدير ٤٢١/١ .

(٢٧) آل عمران ، الآية ١٤٠ .

(٢٨) فتح القدير ٤٤٠/١ .

(٢٩) آل عمران ، الآية ١٤٢ .

(٣٠) فتح القدير ٤٤١/١ .

(٣١) لقمان ، الآية ٢٢ .

(٣٢) فتح القدير ٢٧٨/٤ .

(٣٣) آل عمران ، الآية ٤٧ .

(٣٤) فتح القدير ٣٩١/١ .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه . وفي آذانهم وقراً ﴾ (٣٥) «أي جعل في آذانهم ماسداً عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير، وهو مقدار ما يطيق أن يحمله، وذكر الأكنة والوقر تمثيل لفرط بعدهم عن فهم الحق وسماعه كأن قلوبهم لاتعقل وأسماعهم لاتدرك» (٣٦) .

وفي هذا يبين الشوكاني تشبيه ماسد آذانهم عن استماع القول بوقر البعير. ثم يبين أن في الآية تمثيلاً مأخوذاً من مجموع الأكنة والوقر. ومثله قوله عند قوله تعالى: ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ (٣٧) : « المعنى: أنها لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها، وجعلها محمولة على الظهور تمثيل» (٣٨) .

فالمعنى والله أعلم أن الشبه مأخوذ من مجموع الوزر مع وازره أو من مجموع الحمل مع الظهور التي تحمله.

وعند قوله تعالى: ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ﴾ (٣٩) يقول: «دلهم بخلقه على أنه خالقهم، فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد ، فتكون هذه الآية من باب التمثيل كما في قوله تعالى: ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ (٤٠) » (٤١) .

غير أن الشوكاني لا يلبث هنا أن يستبعد التمثيل في الآية الأولى إذ يرى أن إشهاد بني آدم على أنفسهم أمر حقيقي ولا ملجئ للمصير إلى المجاز لثبوت ذلك

(٣٥) الأنعام ، الآية ٢٥ .

(٣٦) فتح القدير ١٢٣/٢ .

(٣٧) الأنعام ، الآية ٢١ .

(٣٨) فتح القدير ١٢٧/٢ .

(٣٩) الأعراف ، الآية ١٧٢ .

(٤٠) فصلت ، الآية ١١ .

(٤١) فتح القدير ٢٩٩/٢ .

مرفوعاً، إذ يقول: «والمعنى: أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح على ظهره فاستخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد، وهؤلاء هم عالم الذر، وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه ولا المصير إلى غيره لثبوته مرفوعاً إلى النبي ﷺ وموقوفاً على غيره من الصحابة ولا ملجئ للمصير إلى المجاز» (٤١).

والحقيقة أن في الآية الكريمة ما يمنع من حملها على المجاز وهو عدم القرينة الصارفة عن المعنى الحقيقي، وعليه فقد كان الأحرى بالشوكانى أن يجعل ما ثبت عن النبي ﷺ شاهداً على امتناع المجاز في الآية لا علة له.

وعند قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ (٤٢) يقول: «تمثيل لحالهم في محاولة إبطال دين الحق ونبوّة نبيّ الصدق، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم قد أنارت به الدنيا، وانقشعت به الظلمة، ليطفئه ويذهب أضواءه» (٤٣).

ويقول عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ (٤٤): «ذكر سبحانه تمثيلاً آخر للمؤمنين والكافرين فقال: (وما يستوي الأحياء ولا الأموات) فشبه المؤمنين بالأحياء، وشبه الكافرين بالأموات، وقيل: أراد تمثيل العلماء والجهلة. وقال ابن قتيبة: الأحياء: العقلاء، والأموات: الجهال. قال قتادة: هذه كلها أمثال: أرى كما لا تستوي هذه الأشياء، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن» (٤٥).
والراجح أن الآية من التمثيل، وكلام قتادة أقرب - والله أعلم - وقوله: (هذه الأشياء) يشمل الآيات الثلاث السابقة لهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ (٤٦).

(٤٢) براءة، الآية ٣٢.

(٤٣) فتح القدير ٤٠٤/٢.

(٤٤) فاطر، الآية ٢٢.

(٤٥) فتح القدير ٣٩٧/٤.

(٤٦) فاطر، الآيات ٢١ و ٢٠ و ١٩.

ويكون الشبه مأخوذاً من مجموع هذه كله. أما التشبيه الذي ذكره الشوكاني فهو على حد الاستعارة ويقتصر على الآية الأخيرة التالية للثلاث ، إذا أخذت بمفردها.

وعند قوله تعالى: ﴿الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾^(٤٧) يقول: «لما وصفهم سبحانه بالعمى عن الدلائل الكونية أو التنزيلية أو مجموعهما، أراد أن يصفهم بالصمم عن استماع الحق فقال: (وكانوا لا يستطيعون سمعاً) أي: لا يقدرّون على الاستماع لما فيه الحق من كلام الله وكلام رسوله، وهذا أبلغ مما لو قال وكانوا صمّا ، لأن الأصمّ قد يستطيع السمع إذا صيح به، وهؤلاء لا استطاعة لهم بالكلية، وفي ذكر الغطاء والأعين وعدم استطاعة السماع تمثيل لتعاميهم عن المشاهدة بالأبصار وإعراضهم عن الأدلة السمعية»^(٤٨).

وعند قوله تعالى: ﴿وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد وقد كفروا به من قبل ويقرضون بالغيب من مكان بعيد﴾^(٤٩) يذكر تمثيلين ففي الأول يقول: والمعنى : كيف لهم أن يتناولوا الإيمان من بعد ، يعني في الآخرة وقد تركوه في الدنيا ، وهو معنى (من مكان بعيد) وهو تمثيل لحالهم في طلب الخلاص بعدما فات عنهم^(٥٠) وفي الثاني يقول: « (ويقرضون بالغيب) أي : يرمون بالظن فيقولون لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار (من مكان بعيد) أي من جهة بعيدة ليس فيها مستند لظنهم الباطل. وقرأ أبو حيوة، ومحبوب عن أبي عمرو «يقرضون» مبنياً للمفعول: أي يرجمون بما يسوؤهم من جزاء أعمالهم من حيث لا يحتسبون، وفيه

(٤٧) الكهف ، الآية ١٠١ .

(٤٨) فتح القدير ٣/٣٧٢ .

(٤٩) سبأ ، الآيتان ٥٢ و٥٣ .

(٥٠) فتح القدير ٤/٣٨٥ .

تمثيل لحالهم بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم في
لحوقه» (٥٠) .

ولعل الشوكاني يريد وقوع التمثيل في الآية على القراءتين ببناء «يقذفون»
للفاعل أو للمفعول وهو الأقرب والله أعلم، حيث لم يظهر من كلامه أنه يريد قصر
التمثيل في حالة القراءة بالبناء للمفعول.

وعند قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ﴾ (٥١) يذكر اختلاف
المفسرين في تفسير الآية والمقصود بالتنور وفورانه، ثم يعقب ذلك بأن المراد
بالفور : الغليان، وأن التَّنُّور: اسم أعجمي عربته العرب. على تعدد دلالاته، ثم
يقول: «وقيل معنى فار التنور : التمثيل لحضور العذاب، كقولهم : حمي الوطيس،
إذا اشتدت الحرب، ومنه قول الشاعر:

تركتم قدركم لا شيء فيها وقدّر القوم حامية تفور

يريد الحرب» (٥٢) .

وعند قوله تعالى : ﴿ ختامه مسك ﴾ (٥٣) يقول: «قيل: مختوم أوانيه من
الأكواب والأباريق بمسك مكان الطين، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته وطيب
رائحته» (٥٤) .

وعند قوله تعالى : ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ (٥٥) يقول: «أي: يقدر على
أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك، والإحاطة بالشيء: الحصر له من جميع جوانبه، فهو
تمثيل لعدم نجاتهم بعدم فوت المحاط به على المحيط» (٥٦) .

(٥١) هود ، الآية ٤٠ .

(٥٢) فتح القدير ٥٦٥/٢ .

(٥٣) المطففين ، الآية ٥٦ .

(٥٤) فتح القدير ٤٨٨/٥ .

(٥٥) البروج ، الآية ٢٠ .

(٥٦) فتح القدير ٥٠٢/٥ .

ويتناول الشوكاني التمثيل مع التخيل وقد يستعمل اسم التصوير، وإنما ذلك كله من الاستعارة التمثيلية، والتخيل يدخل ضمن الاستعارة التمثيلية فهو نوع من التمثيل، وإن كان التخيل يطلق على التمثيل التخيلي والاستعارة التخيلية التابعة للاستعارة بالكناية.

يقول الشهاب في ذلك كله: «والتخيل نوع من التمثيل إلا أنه تمثيل خاص بكون المشبه به فيه أمراً مفروضاً. وما يقال: إن التمثيل تشبيهه قصة بقصة والتخيل تصوير حقيقة الشيء ليس بشيء» (٥٧).

ويذكر الشهاب أيضاً أن كلاً من التمثيل التخيلي والاستعارة التخيلية التابعة للاستعارة بالكناية، يقع عليهما اسم التخيل، كما أن التصوير - على ما يفهم من عبارته - استعارة تمثيلية (٥٨).

والشوكاني يذكر التخيل عند التمثيل بالأمور المفروضة حيث يقول عند قوله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ (٥٩): «أي: من شأنه، وعظمته، وجودة ألفاظه، وقوة مبانيه وبلاغته، واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب، أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيته مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وضخامة الجرم خاشعاً متصدعاً، أي: متشققاً من خشية الله سبحانه، حذراً من عقابه، وخوفاً من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله، وهذا تمثيل وتخيل يقتضي علو شأن القرآن الكريم وقوة تأثيره في القلوب، ويدل على هذا قوله: (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)» (٦٠).

(٥٧) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٣٣٥/٢.

(٥٨) المصدر السابق ٣٣٥/٢.

(٥٩) الحشر، الآية ٢١.

(٦٠) فتح القدير ٢٤٦/٥.

وعند قوله تعالى : ﴿ تدعو من أدبر وتولى ﴾ (٦١) يقول: (تمثيل وتخيل، ولا

دعاء في الحقيقة، والمعنى: أن مصيرهم إليها، كما قال الشاعر:

ولقد هبطنا الوادين فوادياً يدعو الأنيس به العضيض الأبكم (٦٢)

والعضيض الأبكم : الذباب، وهو لا يدعو» (٦٣) .

ومثله قوله عند قوله تعالى: ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من

مزيد ﴾ (٦٤) : «هذا الكلام على طريقة التمثيل والتخيل، ولا سؤال ولا جواب» (٦٥) .

على أن الشوكاني يرى في هذه الآية التحقيق أولى من التمثيل إذ لا يمنع منه

عقل ولا شرع. يقول في ذلك: (والأولى أنه على طريقة التحقيق، ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع) (٦٥) .

وعند قوله تعالى: ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ (٦٦) يقول:

«قيل: ذكر هذا المقدار لمجرد التمثيل والتخيل لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد

مداها، أو لطول يوم القيامة باعتبار ما فيه من الشدائد والمكاره، كما تصف العرب

أيام الشدة بالطول وأيام الفرج بالقصر، ويُشَبِّهون اليوم القصير بإبهام القطاة،

والطويل بظل الرمح ومنه قول الشاعر (٦٧):

ويوم كظل الرمح قصر طوله دمُ الزُّق عَنَّا واصطفاق المِزاهر» (٦٨)

(٦١) المعارج ، الآية ١٧ .

(٦٢) البيت في لسان العرب ٢٨٥/٣ ، وهو بلا نسبة .

(٦٣) فتح القدير ٣٤٨/٥ .

(٦٤) ق ، الآية ٣٠ .

(٦٥) فتح القدير ٩٢/٥ .

(٦٦) المعارج ، الآية ٤ .

(٦٧) انظر ص ٩٦ من هذا البحث .

(٦٨) فتح القدير ٣٤٥/٥ .

والشوكاني أورد هذه الأمثلة من التشبيه الصريح لبيان المعنى في التمثيل ، ولم يوردها لكونها من التمثيل، وقد رأينا من الشوكاني نظير هذا في الاستعارة التصريحية . ولم يتعرض صاحب كتاب «منهج الشوكاني في العقيدة» لرأي الشوكاني حول هذه الآية^(٦٩) . ولعله لا يرى مأخذاً فيما ذهب إليه الشوكاني وأقول: ليس هناك ما يمنع أن يكون مقدار ذلك اليوم خمسين ألف سنة على الحقيقة، والله أعلم.

أما التصوير فيقول فيه عند قوله تعالى: ﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ (٧٠) : «الوتين: عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، وهو تصوير لإهلاكه بأفطع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه»^(٧١) .

وإذا تابعنا الشوكاني فيما تناوله على أنه من التمثيل نجده قد أدخل تحته بعض الآيات التي ليست منه فقد جعل قوله تعالى: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾^(٧٢) حيث يقول: « ذكر الشراء تمثيل كما في قوله: ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾^(٧٣) مثل سبحانه إثابة المجاهدين بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيل الله بالشراء ، وأصل الشراء بين العباد: هو إخراج الشيء عن الملك بشيء آخر، مثله أو دونه، أو أنفع منه، فهؤلاء المجاهدون باعوا أنفسهم من الله بالجنة التي أعدها للمؤمنين، أي: بأن يكونوا من جملة أهل الجنة، وممن يسكنها فقد جادوا بأنفسهم وهي أنفُسُ الأَعْلَاق»^(٧٤) .

(٦٩) انظر «منهج الإمام الشوكاني في العقيدة» ٧٣٧ وما بعدها.

(٧٠) الحاقة ، الآية ٤٦ .

(٧١) فتح القدير ٣٤٢/٥ .

(٧٢) براءة ، الآية ١١١ .

(٧٣) البقرة ، الآية ١٦ .

(٧٤) فتح القدير ٤٦٣/٢ وما بعدها .

والملاحظ أن الشوكاني - رحمه الله - جعل الشراء في الآية مماثلاً لقوله تعالى: ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ على الرغم من أنه عدّ آية البقرة - عند حديثه عنها في موضعها - من الاستعارة، حيث يقول: «الشراء هنا مستعار للاستبدال: أي استبدلوا الضلالة بالهدى كقوله تعالى: ﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ (٧٥) فأما أن يكون الشراء بمعنى المعاوضة كما هو أصله فلا، لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعوا إيمانهم، والعرب قد تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئاً بشيء. قال أبو ذؤيب:

فإن تزعميني كنتُ أجهل فيكمُ فإنني شريتُ الحلمَ بعدك بالجهل» (٧٦).

فالشراء هنا في الآيتين جاء استعارة تصريحية تبعية وليس تمثيلاً.

ومن ذلك قوله عند قوله تعالى: ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم ﴾ (٧٧): «أي: ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، فإن لهم ذنوباً، أي: نصيباً من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السابقة، قال ابن الأعرابي: يقال يوم ذنوب، أي: طويل الشر لا ينقضي، وأصل الذنوب في اللغة الدلو العظيمة، ومن استعمال الدلو في النصيب من الشيء قول الشاعر (٧٨):

لعمرك والمنايا طارقات لكل بني أبٍ منها ذنوب

وما في الآية مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالدلو الكبير، فهو تمثيل، جعل الذنوب مكان الحظ والنصيب» (٧٩).

(٧٥) فصلت ، الآية ١٧ .

(٧٦) فتح القدير ٥٤/١ . وقد سبق تخريج البيت في ص ١٣٦ من هذا البحث .

(٧٧) الذاريات ، الآية ٥٩ .

(٧٨) هو أبو ذؤيب الهذلي والبيت في شرح أشعار الهذليين ١٠٤ ولسان العرب ٣٩٢/١ .

(٧٩) فتح القدير ١١١/٥ .

فجعل الذنوب مكان الحظ إنما هو من الاستعارة التصريحية الأصلية،
وعبارة الشوكاني توحى بالتصريح لولا أنه صرح باسم التمثيل.

المثل :

المثل في اصطلاح البيانين هو : « قول موجز صائب مشهور يُشَبَّه فيه مضر به بمورده »^(٨٠) ، ويفترق المثل بهذا الحد عن التمثيل بأمرين، أحدهما : الإيجاز والآخر : الشهرة ، وكثير من البيانين يستعملون كلا من المصطلحين في موضع الآخر ولا غضاضة في ذلك . غير أن المحققين منهم يرون أن المثل - على ما عرفناه - أخص من التمثيل، فكل مثل تمثيل وليس العكس .

قال الشهاب : « لا تُسمى الاستعارة المركبة أو مطلقاً ولا التشبيه مطلقاً ولا معنى اللفظ الحقيقي الأصلي مثلاً عندهم على ما قرره شراح التلخيص، والمفتاح، وكافة أهل المعاني، واتفقت كلمة الشروح هنا عليه أيضاً »^(٨١) .

وقد يطلق بعض المفسرين وغيرهم مصطلحي التمثيل والمثل على غير الاستعارة التمثيلية كتسميتهم التشبيه التمثيلي تمثيلاً مطلقاً ومثلاً، وتسمية التشبيه غير التمثيلي مثلاً.

قال الشهاب : « وأنا قد استقصيت الأمثال فوجدتها ما بين تشبيه بلا شبهة كقولهم للظالم المتورع : « هو الجزار فيهم يذكر الله ويذبح ». أو استعارة رائعة تمثيلية أو غيرها نحو أنا جذيلها المحكك، أو حكمة وموعظة نافعة كالصبر مفتاح الفرج أو كناية بديعة أو نظم من جوامع الكلم الموجز »^(٨٢) .

وعلى الرغم من سعة ما يشمله المثل فإن الشهاب يرى أن التعريفات المتعددة للمثل - على تقاربها - لا تلائم الأمثال القرآنية في كافة الجوانب.

(٨٠) من قضايا البلاغة والنقد ٩٢ .

(٨١) حاشية الشهاب ٤٦٣/١ .

(٨٢) المصدر السابق ٣٦٤/١ .

فبعد استعراضه لأقوال البيانين وغيرهم في تعريف المثل، علّل عدم ملاءمة هذه التعريفات لأمثال القرآن «بأن الله ابتدأها وليس لها مورد قبله»^(٨٣).

والشوكاني يتابع البيانين وغيرهم في إطلاق المثل على عموم الاستعارة التمثيلية ومن قبل رأيناه يسمي التشبيه التمثيلي مثلاً^(٨٤) ويسميه «تمثيلاً» مطلقاً^(٨٤) على أنه يعتبر المثل في القرآن الكريم أوسع باباً من المثل الاصطلاحي عند البيانين ولذلك نجده يتسامح في اعتبار الاستعارة التمثيلية - مطلقاً - مثلاً. ولا شك أن ماقرره الخطيب وشرح التلخيص حول هذين المصطلحين - أعني التمثيل والمثل - هو مناط الحكم في الدراسة البيانية .

أما تعريف الشوكاني للمثل فقد كان دقيقاً ، على الصفة التي عُرف بها عند البيانين حيث يقول: «وأصل المثل : جملة من الكلام متلقاة بالرضا والقبول، مسيرة في الناس، مستغربة عندهم، وجعلوا مضربها مثلاً لموردها، ثم قد يستعيرونها للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة لكونها مماثلة لها في الغرابة»^(٨٥).

وقوله : « أصل المثل » أي : الأصل فيما يطلق عليه «مثل» وهذا يعني أنه قد يطلق المثل على غير هذا الأصل، وذلك احتراز منه - رحمه الله - ودقة فيما حدّ به المثل لأن الحدّ من شأنه أن يكون جامعاً مانعاً.

وحين يتناول الشوكاني المثل في عددٍ من الآيات الكريمة يوطئ له بتعريف أو تمهيد يسير لا يخرج عن التعريف السابق وقد يكون فيه تفصيل لمجمل في التعريف.

وقد عُنِيَ بالأمثال القرآنية أيّما عناية، فهو يوضح معانيها ويبين تفصيلاتها وربما ذكر الآراء المختلفة والأقوال المتعددة في المثل . ويذكر كذلك تقسيمات المثل

(٨٣) نفس المصدر .

(٨٤) ينظر التشبيه المركب ص ٤٢ وما بعدها من هذا البحث .

(٨٥) فتح القدير ٥٥٥/٣ .

والمواضع التي يضرب فيها والحالات التي يطبق بها، وقيمة الأمثال.

فعند قوله تعالى: ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾^(٨٦) يقول: «قال في الكشف: ومعنى الاستعلاء في قوله: (على هدى) مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه، ونحوه: هو على الحق وعلى الباطل، وقد صرحوا بذلك في قولهم: جعل الغواية مركباً، وامتنطى الجهل، واقتعد غارب الهوى، انتهى. وقد أطال المحققون الكلام على هذا بما لا يتسع له المقام، واشتهر الخلاف في ذلك بين المحقق السعد والمحقق الشريف، واختلف من بعدهم في ترجيح الراجح من القولين، وقد جمعت في ذلك رسالة سميتها «الطود المنيف في ترجيح ما قاله السعد على ما قاله الشريف» فليرجع إليها من أراد أن يتضح له المقام، ويجمع بين أطراف الكلام على التمام»^(٨٧).

وعند قوله تعالى: ﴿ولما سكنت عن موسى الغضب﴾^(٨٨) يقول: «أصل السكوت: السكون والإمساك، يقال: جرى الوادي ثلاثاً ثم سكن، أي: أمسك عن الجري. قيل: هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على مافعل، ويقول له قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجر برأس أخيك فترك الإغراء وسكت»^(٨٩). وهذه الآية يُحتمل أن تكون من الاستعارة المكنية حيث شبه الغضب بالرجل الناطق المتكلم ثم أثبت لازم المشبه به وهو السكوت للمشبه، ولعل هذا أقرب من الاستعارة التمثيلية.

(٨٦) البقرة، الآية ٥.

(٨٧) فتح القدير ٤٤/١.

(٨٨) الأعراف، الآية ١٥٤.

(٨٩) فتح القدير ٢٨٥/٢.

وعند قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ ﴾ (٩٠) يقول: «قيل: هي (٩١) مثل ضربه الله للمظاهر، أي: كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى يكون له أمّان، وكذلك لا يكون الدّعيّ ابناً لرجلين» (٩٢).

وعند قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ (٩٣) يقول: «ضرب سبحانه لهؤلاء مثلاً حتى ينكشف المراد انكشافاً تاماً، ومعنى تسييرهم في البر أنهم يمشون على أقدامهم التي خلقها لهم لينتفعوا بها ويركبون ما خلقه الله لركوبهم من الدواب، ومعنى تسييرهم في البحر: أنه ألهمهم لعمل السفائن التي يركبون فيها في لجج البحر، ويسرّ ذلك لهم، ودفع عنهم أسباب الهلاك» (٩٤).

وعند قوله تعالى: ﴿ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ ﴾ (٩٣) يقول: «أي: غلب على ظنونهم الهلاك، وأصله من إحاطة العدوّ بقوم أو ببلد، فجعل هذه الإحاطة مثلاً في الهلاك وإن كان بغير العدو كما هنا» (٩٤).

وعند قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ (٩٥) ينقل الشوكاني عن القفال قوله: «العرض في هذه الآية ضرب مثل، أي: إن السماوات والأرض والجبال على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من الثواب

(٩٠) الأحزاب ، الآية ٤ .

(٩١) الضمير «هي» يعود على الآية .

(٩٢) فتح القدير ٢٠٠/٤ .

(٩٣) يونس ، الآية ٢٢ .

(٩٤) فتح القدير ٤٩٤/٢ .

(٩٥) الأحزاب ، الآية ٧٢ .

والعقاب»^(٩٦). ولعل العرض هنا حقيقي ، وقد فسرهُ ابن كثير والطبري على أنه عرض حقيقي^(٩٧).

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾^(٩٨) : « قيل : معنى وانشق القمر وضع الأمر وظهر، والعرب تضرب بالقمر المثل فيما وضع»^(٩٩).

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ﴾^(١٠٠) : «قال أكثر المفسرين : إن المراد من الآية ضرب المثل في حقّ المؤمن والكافر والكفر والإيمان، فكما لا يستوي البحران كذلك لا يستوي المؤمن والكافر، ولا الكفر والإيمان»^(١٠١).

ونظير هذا قوله عند قوله تعالى : ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ﴾^(١٠٢) : «ضربَ مثلاً للمؤمن والكافر فقال: (وما يستوي الأعمى) أي : المسلوب حاسة البصر (والبصير) الذي له ملكة البصر، فشبه الكافر بالأعمى وشبه المؤمن بالبصير (ولا الظلمات ولا النور) أي: ولا تستوي الظلمات ولا النور، فشبه الباطل بالظلمات، وشبه الحقّ بالنور»^(١٠٣) وظاهر عبارته هنا أن الاستعارة في المفرد، والتحقيق يأبى ذلك إذ التشبيه بين حال المؤمن مع الكافر وحال الأعمى مع البصير ، وكذلك بين حال الحق والباطل وحال الظلمات

(٩٦) فتح القدير ٣٥٥/٤ .

(٩٧) تفسير القرآن العظيم ٥٣٠/٣ .

(٩٨) القمر ، الآية ١ .

(٩٩) فتح القدير ١٤٥/٥ .

(١٠٠) فاطر ، الآية ١٢ .

(١٠١) فتح القدير ٣٩٣/٤ .

(١٠٢) فاطر ، الآية ٢٢ .

(١٠٣) فتح القدير ٣٩٦/٤ .

والنور. قال الزمخشري: « الأعمى والبصير مثل للكافر والمؤمن كما ضرب البحرين مثلاً لهما، أو لصنمٍ والله عز وجل . والظلمات والنور، والظل والحرور مثلاً للحق والباطل وما يؤديان إليه من الثواب والعقاب» (١٠٤) . ولعل استهلال الشوكاني كلامه بقوله: «مثل» يمنع أن يفهم منه الاستعارة في المفرد.

وعند قوله تعالى : ﴿ وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ (١٠٥) يقول: «العضد يستعمل كثيراً في معنى العون، وذلك أن العضد قوام اليد، ومنه قوله : ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ (١٠٦) أي: سنعينك ونقويك به، ويقال : أعضدت بفلان إذا استعنت به، وذكر العضد على جهة المثل» (١٠٧) .

والمثل إنما هو في قوله (سنشد عضدك بأخيك) ، أما قوله : (وما كنت متخذ المضلين عضدا) فهو أقرب إلى الاستعارة في المفرد، وكلام الشوكاني يوضح ذلك حيث جعل العضد بمعنى العون وبه تستقيم الاستعارة في المفرد.

وعند قوله تعالى: ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ (١٠٨) يقول: «قال أبو عبيدة : مثل ضربه الله لهم لامتناعهم عن الهدى كامتناع المغلول، كما يقال فلان حمار، أي لا يبصر الهدى، وكما قال الشاعر:

لهم عن الرُّشدِ أغلالٌ وأقيادُ» (١٠٩)

والمثل في قوله : (فهم مقمحون) ، وقول أبي عبيدة : «فلان حمار» إنما هو تشبيه مطلق وليس من المجاز في شيء.

(١٠٤) الكشف ٣/٣٠٦ .

(١٠٥) الكهف ، الآية ٥١ .

(١٠٦) القصص ، الآية ٣٥ .

(١٠٧) فتح القدير ٣/٣٤٧ .

(١٠٨) يس ، الآية ٨ .

(١٠٩) فتح القدير ٤/٤١٤ .

ويقول الشوكاني عند قوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ (١١٠) : « مثل ضربه الله سبحانه لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة » (١١١) .

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ (١١٢) : « هذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا تكون فيه ناقة عشراء، بل المراد أنه لو كان للرجل ناقة عشراء في ذلك اليوم أو نوق عشار لتركها ولم يلتفت إليها، اشتغالاً بما هو فيه من هول يوم القيامة » (١١٣) . وأورد ابن كثير في تفسيره أن هذا من آيات ست قبل يوم القيامة (١١٤) وعلى هذا فالمعنى هنا على حقيقته وليس من المثل .

ويذكر الشوكاني مجيء المثل بمعنى الصفة على ما ذكره في تعريفه للمثل. يقول عند قوله تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ (١١٥) : « قال الخليل : المثل : الصفة، أي: وله الوصف الأعلى (في السموات والأرض) كما قال: ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ (١١٦) أي: صفتها » (١١٧) .

ونظيره قوله عند قوله تعالى : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ (١١٨) : « معنى «مثل الجنة» وصفها العجيب الشأن » (١١٩) .

(١١٠) البلد ، الآية ١١ .

(١١١) فتح القدير ٥/٥٤٠ .

(١١٢) التكويد ، الآية ٤ .

(١١٣) فتح القدير ٥/٤٧٠ .

(١١٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٥٠٧ .

(١١٥) الروم ، الآية ٢٧ .

(١١٦) الرعد ، الآية ٣٥ .

(١١٧) فتح القدير ٤/٢٥٥ .

(١١٨) الرعد ، الآية ٣٥ .

(١١٩) فتح القدير ٥/٤١ .

ويذكر كذلك مجيئه لأمر فيه غرابه وأن الكلام جار مجرى المثل في مقام التعجيب وذلك حينما تشيع القصه وتشتهر وتصبح بمنزلة الشيء المعلوم الذي يقرُّ به كل أحد .

يقول عند قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذِرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مَوْتُواثِمٌ أَحْيَاهُمْ ﴾ (١٢٠) : « جعل الله سبحانه قصة هؤلاء لما كانت بمكان من الشيوع والشهرة يحمل كل أحد على الإقرار بها بمنزلته المعلومة لكل فرد، أو المبصرة لكل مبصر، لأن أهل الكتاب قد أخبروا بها ودونوها وأشهرها أمرها، والخطاب هنا لكل من يصلح له. والكلام جار مجرى المثل في مقام التعجيب، ادعاء لظهوره وجلائه بحيث يستوي في إدراكه الشاهد والغائب» (١٢١) .

قلت : قول الشوكاني - رحمه الله - : (ادعاء لظهوره وجلائه) لا يصح في القرآن الكريم فإن الادعاء بهذا المعنى لا يخلو من التزديد ، وليس من الأدعاء الذي بمعنى الطلب كما في قوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ (١٢٢) لكون المقام هنا مقام إثبات لشهرة القصة وشيوعها وليس مقام طلب وادعاء .

ويذكر الشوكاني نهى الله عباده عن ضرب الأمثال له لكون ضارب المثل يشبه حالاً بحال وقصة بقصة . يقول عند قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ (١٢٣) : « نهاهم سبحانه عن أن يشبهوه بخلقه، فإن ضارب المثل يُشَبَّه حالاً بحال وقصة بقصة. قال الزجاج: لا تجعلوا لله مثلاً لأنه واحد لا مثل له» (١٢٤) .

(١٢٠) البقرة ، الآية ٢٤٣ .

(١٢١) فتح القدير ٢٩٩/١ .

(١٢٢) فصلت ، الآية ٣١ .

(١٢٣) النحل ، الآية ٧٤ .

(١٢٤) فتح القدير ٢١٥/٣ .

والمثل قد يراد به إيراد حالة غريبة يعرف بها حالة أخرى، وقد يكون اقتراحات غريبة، وبيان حالات عجيبة بمثلها.

يقول عند قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾ (١٢٥) : « المثل يراد به إيراد حالة غريبة يُعرف بها حالة أخرى مماثلة لها في الغرابة، أي : جعل الله مثلاً لحال هؤلاء الكفرة ، وأنه لا يغني أحد عن أحد. (وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون) الكلام في هذا المثل كالكلام في المثل الذي قبله، أي: جعل الله حال امرأة فرعون مثلاً لحال المؤمنين ترغيباً لهم في الثبات على الطاعة ، والتمسك بالدين، والصبر في الشدة ، وأن صولة الكفر لا تضرهم ، كما لم تضر امرأة فرعون » (١٢٦) .

وعند قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سليماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (١٢٧) يقول: « ذكر الله مثلاً من الأمثال القرآنية للتذكير والاتعاظ فقال: (ضرب الله مثلاً) أي : تمثيل حالة عجيبة بأخرى مثلها » (١٢٨) .

وعند قوله تعالى: ﴿ كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ (١٢٩) : « أي : مثل

(١٢٥) التحريم ، الآيتان ١٠ و ١١ .

(١٢٦) فتح القدير ٣٠٤/٥ و ٣٠٥ .

(١٢٧) الزمر ، الآية ٢٩ .

(١٢٨) فتح القدير ٥٢٩/٤ .

(١٢٩) محمد ، الآية ٣ .

ذلك الضرب يبين للناس أمثالهم ، أي : أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال في الغرابة» (١٣٠) .

ويذكر الشوكاني أن الأمثال قد تستعمل للاقتراحات الغريبة والأقوال النادرة فعند قوله تعالى : ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ (١٣١) . يوضح الشوكاني معنى الآية وما فيها من اقتراحات غريبة، وتنزل هؤلاء الطاعنين في القرآن من اقتراح إلى آخر، ثم يذكر المقصود بالأمثال فيقول: « (انظر كيف ضربوا لك الأمثال) ليتوصلوا إلى تكذيبك، والأمثال: هي الأقوال النادرة، والاقتراحات الغريبة، وهي ما ذكره هنا » (١٣٢) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ (١٣٣) أي: لا يأتيتك - يا محمد - المشركون بمثل من أمثالهم التي من جملتها اقتراحاتهم المتعنتة إلا جئناك في مقابلة مثلهم بالجواب الحق الثابت الذي يبطل ما جاءوا به من المثل ويدمغه ويدفعه ، فالمراد بالمثل هنا: السؤال والاقتراح، وبالحق جوابه الذي يقطع ذريعته، ويبطل شبهته، يحسم مادته» (١٣٤) .

ويذكر الشوكاني استعمال المثل والحالات التي يطبق بها غيرها.

يقول عند قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾ (١٣٥) : « المعنى واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية ، أي : اذكر

(١٣٠) فتح القدير ٣٦/٥ .

(١٣١) الفرقان ، الآيتان ٨٧ و٨٨ .

(١٣٢) فتح القدير ٧٤/٤ .

(١٣٣) الفرقان ، الآية ٣٣ .

(١٣٤) فتح القدير ٨٦/٤ .

(١٣٥) يس ، الآية ١٣ .

لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية ، فترك المثل، وأقيم أصحاب القرية مقامه في الإعراب . وقيل لا حاجة إلى الإضمار، بل المعنى : اجعل اصحاب القرية لهم مثلاً على أن يكون «مثلاً» و «أصحاب القرية» مفعولين لا ضرب ، أو يكون أصحاب القرية بدلاً من مثل ... وقد قيل : إن ضرب المثل يستعمل تارة في تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلاً كما في قوله : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ﴾ (١٣٦) ويستعمل أخرى في ذكر حالة غريبة، وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيرة لها كما في قوله : ﴿ وضربنا لكم الأمثال ﴾ (١٣٧) أي: بينا لكم أحوالاً بديعة غريبة. هي في الغرابة كالأمثال فقوله سبحانه هنا (واضرب لهم مثلاً) يصح اعتبار الأمرين فيه «(١٣٨)» .

ويبين الشوكاني قيمة الأمثال وأثرها في توجيه النفوس وتربيتها.

يقول عند قوله تعالى : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ (١٣٩) : «وفي ضرب الأمثال زيادة تذكير وتفهم وتصوير للمعاني» (١٤٠) .

ويقول : « وقد تقرر عند علماء البلاغة أن لضرب الأمثال شأنًا عظيمًا في إبراز خفيات المعاني، ورفع أستار محجبات الدقائق ، ولهذا استكثر الله من ذلك في كتابه العزيز، وكان رسول الله ﷺ يكثر من ذلك في مخاطباته ومواعظه» (١٤١) .

(١٣٦) التحريم ، الآية ١٠ .

(١٣٧) إبراهيم ، الآية ٤٥ .

(١٣٨) فتح القدير ٤/٤١٧ .

(١٣٩) إبراهيم ، الآية ٢٥ .

(١٤٠) فتح القدير ٣/١٢٨ .

(١٤١) فتح القدير ١/٥٦ .

والمقصود هنا هو الأمثال عموماً سواء ما كان من التشبيه أو من المجاز.
ويقول عند قوله تعالى : ﴿ أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ
مَيْتاً ﴾ (١٤٢): «مَثَلُ سَبْحَانِهِ الْغَيْبَةِ بِأَكْلِ الْمَيْتَةِ، لِأَنَّ الْمَيْتَ لَا يَعْلَمُ بِأَكْلِ لَحْمِهِ، كَمَا
أَنَّ الْحَيَّ لَا يَعْلَمُ بِغَيْبَةِ مَنْ اغْتَابَهُ. ذَكَرَ مَعْنَاهُ الزَّجَاجُ . وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ عَرَضَ
الْإِنْسَانِ كُلِّهِمْ، وَأَنَّهُ كَمَا يَحْرَمُ أَكْلُ لَحْمِهِ يَحْرَمُ الْاسْتِطَالَةُ فِي عَرَضِهِ، وَفِي هَذَا
مِنَ التَّنْفِيرِ عَنِ الْغَيْبَةِ وَالتَّوْبِيخِ لَهَا وَالتَّوْبِيخِ لِفَاعِلِهَا وَالتَّشْنِيعِ عَلَيْهِ مَا لَا يَخْفَى ،
فَإِنَّ لَحْمَ الْإِنْسَانِ مِمَّا تَنْفَرُ عَنْ أَكْلِهِ الطَّبَاعُ الْإِنْسَانِيَّةُ، وَتَسْتَكْرَهُ الْجِبَلَةُ الْبَشَرِيَّةُ،
فَضْلاً عَنْ كَوْنِهِ مُحَرَّماً شَرْعاً » (١٤٣) .

(١٤٢) الحجرات ، الآية ١٢ .

(١٤٣) فتح القدير ٧٧/٥ .

٣ - الاستعارة بالكناية

اختلفت أقوال البيانين في حد الاستعارة بالكناية، فهي عند السكاكي: « أن تذكر المشبه وتريد به المشبه به دالاً على ذلك بنصب قرينة تنصبها، وهي أن تنسب إليه وتضيف شيئاً من لوازم المشبه به المساوية»^(١).

وهذا الرأي مبني على تحديده للاستعارة بقوله: « أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به»^(٢).

أما الخطيب فقد حدّها بقوله: « قد يضر التشبيه في النفس، فلا يصرح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه، ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به، من غير أن يكون هناك أمر ثابت حساً أو عقلاً أجري عليه اسم ذلك الأمر، فيسمى التشبيه استعارة بالكناية، أو مكنياً عنها، وإثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخيلية»^(٣).

وقد عدّ السعد تعريف الخطيب للمكنية «شيئاً لا مستند له في كلام السلف»^(٤) ثم يذكر السعد المعنى الصحيح - على حد قوله - للاستعارة المكنية، المذكور في كلام السلف وهو « أن لا يصرح بذكر المستعار بل يذكر رديفه ولازمه الدال عليه»^(٤) مستنبطاً من كلام الزمخشري ما يفيد « أن قرينة المكنية لا يجب أن تكون تخيلية بل قد تكون حقيقية»^(٥).

(١) المفتاح ١٧٩ .

(٢) المصدر السابق ١٧٤ .

(٣) الإيضاح ٤٤٤ .

(٤) المطول ٣٨٢ .

(٥) المصدر السابق ٣٨٣ .

أما مذهب القدماء فهو «أن المكنية هي اسم المشبه به المستعار في النفس للمشبه، وأن التخيلية هي إثبات لازم المشبه به للمشبه» (٦).

وهذه التعريفات تشمل ثلاثة أمور لا تخرج المكنية عنها وهي:

١ - التشبيه .

٢ - ذكر المشبه وحذف المشبه به .

٣ - إثبات لازم المشبه به للمشبه.

أما القرينة فالتحقيق أنها تحتل التحقيقية كما ذكر السعد إضافة إلى التخيلية.

وقد تناول الشوكاني الاستعارة بالكناية ذاكراً للتخييل ومشيراً إلى القرينة يقول في ذكر الاستعارة المكنية عند قوله تعالى: ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ (٧): «الاشتعال في الأصل: انتشار شعاع النار، فشبه به انتشار بياض شعر الرأس في سواده بجامع البياض والإنارة، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية، بأن حذف المشبه به وأداة التشبيه، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها. قال الزجاج: يقال للشيب إذا كثر جداً قد اشتعل رأس فلان، وأنشد للبيد:

إن ترى رأسي أمسى واضحاً سلط الشيب عليه فاشتعل» (٨)

والواضح من كلام الشوكاني هنا أن التشبيه واقع بين انتشار شعاع النار وانتشار بياض الشيب ويفهم منه تشبيه الشيب ذاته بالنار ثم إثبات انتشار شعاع النار للشيب وهذه هي القرينة، ولولا أنه نص على أنها استعارة بالكناية لكان كلامه أقرب إلى التصريحية، إذ يكون حينئذٍ المستعار هو انتشار شعاع النار والمستعار له هو انتشار بياض الشيب، والآية هنا تحتل التصريحية كما تحتل المكنية.

(٦) بغية الإيضاح ١٣٨/٣ .

(٧) مريم ، الآية ٧ .

(٨) فتح القدير ٢٧٩/٣ . والبيت في ديوان لبيد ص ١٤٠ .

ويذكر الشوكاني التخييل في الاستعارة بالكناية فعند قوله تعالى: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾^(٩) يقول: «في إضافة الجناح إلى الذل وجهان: الأول: أنها كإضافة حاتم إلى الجود في قولك حاتم الجود، فالأصل فيه الجناح الذليل، والثاني: سلوك سبيل الاستعارة، كأنه تُخيل^(١٠) للذل جناحاً، ثم أثبت لذلك الجناح خفضاً»^(١١).

وهذا الكلام يفيد أن الذل شُبه بالطائر ذي الجناح، والتخييل في إثبات الجناح للذل أما الخفض الذي أثبت للجناح فهو ترشيح للاستعارة.

وقد ذكر الشوكاني طرفاً من الاستعارات المكنية، من ذلك قوله عند قوله تعالى: ﴿حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾^(١٢): «وهو يوم القيامة لأنه لا يوم بعده، فكان بهذا الاعتبار عقيماً، والعقيم في اللغة: من لا يكون له ولد، ولما كانت الأيام تتوالى جعل ذلك كهيئة الولادة، ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقم، وقيل: إن اليوم وصف بالعقم، لأنه لا رأفة فيه ولا رحمة، كأنه عقيم من الخير، ومنه قوله تعالى: ﴿إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾^(١٣) أي: التي لا خير فيها ولا تأتي بمطر»^(١٤).

وقد طال الخلاف بين المحققين حول هذه الآية، في كونها من التصريحية أو

(٩) الإسراء، الآية ٩.

(١٠) تُخيل: بالبناء للمفعول، كي لا ينسب التخييل إلى الله جل وعلا، ذلك أنه إذا لم يسم فاعله جاز أن يقاس على تخيل الناس في مفهومهم لهذه الآية فيتخيلون جناحاً للذل والله أعلم.

(١١) فتح القدير ٢/٢٦٠.

(١٢) الحج، الآية ٥٥.

(١٣) الذاريات، الآية ٤١.

(١٤) فتح القدير ٣/٥٤٧ و٥٤٨.

المكنية من ذلك قول الخطيب: «قيل المستعار منه المرأة، والمستعار له الريح، والجامع المنع من ظهور النتيجة والأثر... وفيه نظر لأن العقم صفة للمرأة لا اسم لها، وكذلك جعلت صفة للريح لا اسما.

والحق أن المستعار منه ما في المرأة من الصفة التي تمنع الحمل، والمستعار له ما في الريح من الصفة التي تمنع إنشاء مطر أو إلقاء شجر» (١٥).

قال السبكي معلقاً على رأي الخطيب هنا: «فيه نظر لأن المستعار منه هو اللفظ المجازي المسمى بالاستعارة، وهو هنا لفظ عقيم فكيف يجعل المستعار له الصفة وهي لم تذكر، والاستعارة عبارة عن ذكر أحد طرفي التشبيه، وقال بعضهم المشبه والمشبه به ههنا الريح والمرأة، وهما حسيان والاستعارة هنا مكنية لكون المذكور هو المشبه وهو الريح دون المشبه به وهو المرأة والعقيم استعارة تخيلية» (١٦).

وهناك رأي جيد وهو أن يقصد بالمرأة هنا العجوز لا مطلق النساء، وعندئذ يصح اعتبار الريح فرداً من أفراد النساء العقم، وقد ذكر نحوه السبكي (١٧).

ورأي آخر ذكره الزركشي، تعقب فيه الخطيب في رأيه السابق وقال: «هو مندفعٌ بالعناية، لأن المراد من قوله: «المستعار منه» المرأة التي عبّر عنها بالعقيم» (١٨).

ويتبين لنا بعد هذه الآراء أن الاستعارة في الآية الكريمة من قبيل الاستعارة التصريحية ويؤيد ذلك أن الاستعارة وقعت في المشتق.

ومن شواهد الاستعارة المكنية عند الشوكاني قوله عند قوله تعالى: ﴿فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ (١٩) إذ يقول: «قال الزجاج: الجدار لا يريد إرادة

(١٥) الإيضاح ٤٢٨.

(١٦) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ١٠١/٤.

(١٧) المصدر السابق ١٠٢.

(١٨) البرهان في علوم القرآن ٤٩٠/٣.

(١٩) الكهف، الآية ٧٧.

حقيقية إلا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المريدين القاصدين
فوصف بالإرادة ، ومنه قول الراعي:

في مهمه فُلقت بها هاماتها فلق الفؤوس إذا أردن نُصولاً» (٢٠)

وقد يظهر في عبارة الشوكاني ما يفيد أن الاستعارة المكنية قد تقع في
المعنى المأخوذ من المصدر حيث يقول عند قوله تعالى: ﴿ وانظر إلى العظام كيف
ننشزها ثم نكسوها لحماً ﴾ (٢١) : «أي: نسترها به كما نستتر الجسد باللباس،
فاستعار اللباس لذلك، كما استعاره النابغة للإسلام فقال:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالاً» (٢٢)

وعند قوله تعالى: ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في
دينكم ﴾ (٢٣) يقول: «النكث: النقض، وأصله: نقض الخيط بعد إبرامه، ثم
استعمل في كل نقض، ومنه نقض الأيمان والعهد على طريق الاستعارة» (٢٤) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ (٢٥) يقول
الشوكاني: «النقض إفساد ما أبرم من بناء أو حبل أو عهد، والعهد : قيل هو
مأخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهره، وقيل هو وصية الله إلى
خلقه، ... ونقضهم ذلك: ترك العمل به.. واستعمال النقض في إبطال العهد على
سبيل الاستعارة» (٢٦) .

(٢٠) فتح القدير ٣/ ٢٥٨ . وانظر ديوان الراعي ٢٤١ ، وأورد البغدادي القصيدة في خزانة

الأدب في ٢٨ بيتاً ليس منها هذا البيت . انظر الخزانة ٣/ ١٤٧ و١٤٨ ، وفي جمهرة

أشعار العرب بلفظ «قَلَقْتُ» و«قَلَقَ» ص ٤٢٨ .

(٢١) البقرة ، الآية ٢٥٩ .

(٢٢) فتح القدير ١/ ٣٢١ . والبيت في ديوان النابغة ص ٢٨٤ .

(٢٣) براءة ١٢ .

(٢٤) فتح القدير ٢/ ٣٨٩ .

(٢٥) البقرة ، الآية ٢٧ .

(٢٦) فتح القدير ١/ ٦٩ .

قال في الكشف عند هذه الآية : « فإن قلت : من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد ؟ قلت : من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين ، ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة « يارسول الله إن بيننا وبين القوم حبلاً ونحن قاطعوها ، فنخشى إن الله عز وجل أعزك وأظهرك أن ترجع إلى قومك » وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه ونحوه قولك : شجاع يفترس أقرانه وعالم يغترف منه الناس » (٢٧) .

وقول الشوكاني : « استعمال النقض في إبطال العهد » فيه معنى التصريحية إلا أنه لما كان النقض من خصائص الحبل جعل كناية عنه ورمزاً للمشبه به المحذوف ، قال السيد في حاشيته على المطول : « إن صاحب الكشف لما جعل النقض مستعملاً في إبطال العهد علم أنه استعارة تصريحية حيث شبه إبطال العهد بنقض الحبل ثم استعمل لفظ المشبه به في المشبه وهكذا الافتراس والافتراق استعارتان مصرحتان حيث شبه بطشه وفتكه لأقرانه بافتراس الأسد وشبه انتفاع الناس به بالاغتراف ثم استعمل ههنا أيضاً لفظ المشبه به في المشبه ، فإن قلت إذا كان النقض ونظائره استعارات مصرحاً بها قد شبه معانيها المرادة بمعانيها الأصلية ، فكيف تكون كنايات عن استعارات أخرى قلت هذه الاستعارات من حيث أنها متفرعة على الاستعارات الأخر صارت كنايات عنها فإن النقض إنما شاع استعماله في إبطال العهد من حيث تسميتهم العهد بالحبل فلما نزل العهد بمنزلة الحبل وسمي باسمه نزل إبطاله منزلة نقضه ، فلولا استعارة الحبل للعهد لم يحسن ، بل لم يصح استعارة النقض للإبطال » (٢٨) .

ومثل هذا قول الشوكاني أيضاً عند قوله تعالى : ﴿ وقيل يا أَرْضِ ابلعي ﴾

(٢٧) الكشف ٢٦٨/١ .

(٢٨) حاشية السيد على المطول ٢٨٤ .

ماءك ﴿ (٢٩) : «البلع: الشرب، ومنه البالوعة، وهي الموضع الذي يُشرب فيه الماء، والازدراء، يقال: بلع ما في فمه من الطعام إذا ازدرده، واستعير البلع الذي هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدرج» (٣٠) .

فاستعارة البلع للنشف تصريرية حقيقية وهي قرينة المكنية. إذ شبهت الأرض بالحيوان المتصف بالبلع ثم أثبت لها البلع.

وقد دأب الشوكاني في كثير من مواضع الاستعارة المكنية على هذه الطريقة وذلك أن يذكر الاستعارة في القرينة مشيراً إلى المستعار له والمستعار منه أحياناً وإلى التشبيه.

يقول كذلك عند قوله تعالى: ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ (٣١): «السلخ: الكشط والنزع، يقال سلخه الله من دينه، ثم يستعمل بمعنى الإخراج، فجعل سبحانه ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسلخ من الشيء، وهو استعارة بليغة» (٣٢) .

فالسلخ من لوازم السلوخ وهو ما ذبح من الحيوان، ثم استعير السلوخ لليل وأثبت السلخ لضوء النهار.

(٢٩) هود ، الآية ٤٤ .

(٣٠) فتح القدير ٥٦٨/٢ .

(٣١) يس ، الآية ٣٧ .

(٣٢) فتح القدير ٤٢٣/٤ .

وعند قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (٣٣) يقول: «معنى فرشناها: بسطناها كالفراش (فنعم الماهدون) أي: نحن، يقال: مهَّدتُ الفرَّاش: بسطته ووطأته» (٣٤).

وقوله: «مهَّدت الفرَّاش» فيه احتمال أن يكون قصد به الترشيح أو التجريد على السواء، فالمهد قد يكون من خصائص الفرَّاش، وقد يكون حقيقة في بسط الأرض.

وعند قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (٣٥) «المعنى أنشأكم منها إنشاءً، فاستعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكوين» (٣٦).
ويذكر الشوكاني المشبه به المستعار منه، وفيه تفصيل للمكنية أكثر مما رأينا فيما سبق من اكتفائه بذكر قرينة المكنية، والاستعارة في القرينة أو إثبات لازم المشبه به للمشبه.

يقول عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ (٣٧): «يقال: أدلى الرجل بحجته، أو بالأمر الذي يرجو النجاح به، تشبيهاً بالذي يرسل الدلو في البئر، يقال: أدلى دلوه: أرسلها» (٣٨).

وعند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٣٩) يقول: «يوم يثبت حساب المكلفين في المحشر، استعير له لفظ يقوم الذي هو حقيقة في قيام الرجل للدلالة على أنه في غاية الاستقامة» (٤٠).

(٣٣) الذاريات، الآية ٤٨.

(٣٤) فتح القدير ١٠٩/٥.

(٣٥) نوح، الآية ١٧.

(٣٦) فتح القدير ٣٥٨/٥.

(٣٧) البقرة، الآية ١٨٨.

(٣٨) فتح القدير ٢١٧/١.

(٣٩) إبراهيم، الآية ٤١.

(٤٠) فتح القدير ١٣٦/٣.

وعند قوله تعالى : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ﴾ (٤١) يقول :
 «الإطفاء: الإخماد، وأصله في النار، واستعير لما يجرى مجراها من الظهور» (٤٢) .
 ويقول عند قوله تعالى : ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ (٤٣) : «التنفس ، الأصل:
 خروج النسيم من الجوف، وتنفس الصبح: إقباله، لأنه يقبل بروح ونسيم، فجعل
 ذلك تنفساً له مجازاً» (٤٤) .

الترشيع والتجريد :

الترشيع في الاستعارة هو ذكر ما يلائم المستعار منه والتجريد ذكر ما يلائم
 المستعار له، وتركهما إطلاق.

وقد ذكر الشوكاني الترشيع والتجريد مبيناً فضل التجريد على الترشيع في
 بعض الاستعارات ، ومن ذلك قوله عند قوله تعالى : ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع
 والخوف ﴾ (٤٥) : «سمى ذلك لباساً لأنه يظهر به عليهم من الهزال وشحوبة اللون
 وسوء الحال ما هو كاللباس، فاستعير له اسمه وأوقع عليه الإذاقة، وأصلها الذوق
 بالفم، ثم استعيرت لمطلق الاتصال مع إنبائها بشدة الإصابة لما فيها من اجتماع
 الإدراكين: إدراك اللمس، والذوق. روى أن ابن الروانديّ الزنديق قال لابن
 الأعرابي إمام اللغة والأدب: هل يذاق اللباس؟ فقال له ابن الأعرابي: لا بأس أيها
 النسناس، هب أن محمداً ما كان نبياً، أما كان عربياً؟ كأنه طعن في الآية بأن
 المناسب أن يقال : فكساها الله لباس الجوع أو فأذاقها الله طعم الجوع، فردّ عليه
 ابن الأعرابي. وقد أجاب علماء البيان أن هذا من تجريد الاستعارة، وذلك أنه
 استعار اللباس لما غشي الإنسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله

(٤١) الصف ، الآية ٨ .

(٤٢) فتح القدير ٢٦٣/٥ .

(٤٣) التكوير ، الآية ٤ .

(٤٤) فتح القدير ٤٧٣/٥ .

(٤٥) النحل ، الآية ١١٢ .

عليه اشتمال اللباس على اللابس، ثم ذكر الوصف ملائماً للمستعار له وهو الجوع والخوف، لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة، فيقولون : ذاق فلان البؤس والضرَّ وأذاقه غيره، فكانت الاستعارة مجردة، ولو قال فكساها كانت مرشحة . وقيل : وترشيح الاستعارة وإن كان مستحسنًا من جهة المبالغة، إلا أن التجريد ترجيحاً من حيث إنه روعي جانب المستعار له ، فازداد الكلام وضوحاً، وقيل : إن أصل الذوق بالفم، ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف والاختبار، ومن ذلك قول الشاعر:

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها وسيق إلينا عذبتها وعذابها» (٤٦)

والملاحظ هنا أن الشوكاني يرى أن التجريد أرجح من الترشيح وذلك عائد إلى الوضوح الذي يحققه التجريد إذ تحقق معه اجتماع حاستي اللمس والذوق. على أن الشوكاني جعل الترشيح مستحسنًا من جهة المبالغة، وكأن كلاً من الترشيح والتجريد له مزية عن الآخر، فالمبالغة التي فضلت الاستعارة بها التشبيه تتحقق بشكل أكبر في الترشيح، أما الوضوح الذي تتطلبه البلاغة في جميع فنونها فهو متحقق في التجريد .

والبلاغيون على أن الترشيح « أبلغ من الإطلاق والتجريد ومن جمع الترشيح والتجريد لاشتماله على تحقيق المبالغة في التشبيه » (٤٧) وهذا لا يخالفه كلام الشوكاني.

استعارة المحسوس للمعقول :

تناول الشوكاني استعارة المحسوس للمعقول، وهذا التقسيم عند البلاغيين بالنظر إلى الطرفين والجامع .

يقول الشوكاني عند قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا

(٤٦) فتح القدير ٢٣٨/٣ .

(٤٧) المطول ٣٧٨ .

فأعرض عنهم ﴿ (٤٨) : «الخوض: أصله في الماء ثم استعمل في غمرات الأشياء التي هي مجاهل تشبيهاً بغمرات الماء، فاستعير من المحسوس للمعقول» (٤٩) .

ومنه قوله عند قوله تعالى: ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ (٥٠) : «لتخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلالة إلى نور الإيمان والعلم والهداية، جعل الكفر بمنزلة الظلمات، والإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة.. وقيل : إن الظلمة مستعارة للبدعة، والنور مستعار للسنة، وقيل من الشك إلى اليقين، ولا مانع من إرادة جميع هذه الأمور» (٥١) .

وعند قوله تعالى : ﴿ ذلك لمن خشي العنت منكم ﴾ (٥٢) يقول: « العنت : الوقوع في الإثم، وأصله في اللغة: انكسار العظم بعد الجبر، ثم استعير لكل مشقة» (٥٣) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ (٥٤) : « أي : نلجئهم إلى عذاب النار، فإنه لا أثقل منه على من وقع فيه، وأصيب به، فلهذا استعير له الغلظ» (٥٥) .

وعند قوله تعالى : ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ﴾ (٥٦) يقول : (المعنى: سددنا آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات، والمفعول

(٤٨) الأنعام ، الآية ٦٨ .

(٤٩) فتح القدير ١٤٦/٢ .

(٥٠) إبراهيم ، الآية ١ .

(٥١) فتح القدير ١١١/٣ .

(٥٢) النساء ، الآية ٢٥ .

(٥٣) فتح القدير ٥٢١/١ .

(٥٤) لقمان ، الآية ٢٤ .

(٥٥) فتح القدير ٢٧٩/٤ .

(٥٦) الكهف ، الآية ١١ .

محذوف، أي: ضربنا على آذانهم الحجاب تشبيهاً للإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الأذان بضرب الحجاب عليها» (٥٧).

والجامع في الاستعارات السابقة عقلي.

وقد ذكر الشوكاني كثيراً من الاستعارات المكنية والتصريحية ولم يشر فيها إلى تقسيمها بحسب طرفيها والجامع كما رأينا في استعارة الخوض في الآية السابقة إذ ذكر أنها من استعارة المحسوس للمعقول، بل تناول فيها الاستعارة إجمالاً.

وهناك آيات كثيرة تضمنت استعارة المحسوس للمحسوس بجامع حسي وآخر بجامع عقلي، واستعارة المعقول للمعقول، نذكر بعضها هنا بناءً على تفصيله في تلك الآية حملاً للمجمل على المفصل.

استعارة المحسوس للمحسوس :

فمن استعارة المحسوس للمحسوس بجامع حسي قوله عند قوله تعالى: ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم﴾ (٥٨) : «النكث : النقض ، وأصله : نقض الخيط بعد إبرامه، ثم استعمل في كل نقض، ومنه نقض الأيمان والعهود على طريق الاستعارة» (٥٩).

حيث استعير الحبل للعهد بجامع التوثيق والقوة.

ويشترك مع الآية السابقة في نفس الجامع قوله تعالى: ﴿وفرعون ذو الأوتاد﴾ (٦٠) يقول الشوكاني مبيناً الاستعارة: «قيل المراد بالأوتاد: الجموع والجنود الكثيرة، يعني أنهم كانوا يقوون أمره ويشدون سلطانه كما تقوِّي الأوتاد ماضربت عليه، فالكلام خارج مخرج الاستعارة على هذا» (٦١).

(٥٧) فتح القدير ٣/٣٢٣ .

(٥٨) براءة ، الآية ١٢ .

(٥٩) فتح القدير ٢/٣٨٩ .

(٦٠) ص ، الآية ١٢ .

(٦١) فتح القدير ٤/٤٨٥ .

وعند قوله تعالى : ﴿ أَوَيَاتِهِمْ عَذَابٌ يُومِ عَقِيمٌ ﴾ (٦٢) يقول: «وهو يوم القيامة لأنه لا يوم بعده، فكان بهذا الاعتبار عقيماً، والعقيم في اللغة: من لا يكون له ولد، ولما كانت الأيام تتوالى جعل ذلك كهيئة الولادة، ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقم، وقيل: يوم حرب يُقتلون فيه كيوم بدر، وقيل إن اليوم وصف بالعقم، لأنه لا رأفة فيه ولا رحمة، فكأنه عقيم من الخير، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ (٦٣) أي : التي لا خير فيها ولا تأتي بمطر» (٦٤) .

وعند قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ (٦٥) : « السِّلْخُ : الكشط والنزع يقال سلخه الله من دينه ، ثم يستعمل بمعنى الإخراج، فجعل سبحانه ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسلخ من الشيء، وهو استعارة بليغة» (٦٦) .

استعارة المعقول للمعقول :

وأما استعارة المعقول للمعقول - ولا يكون الجامع في هذا النوع إلا عقلياً - قوله عند قوله تعالى: ﴿ أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ (٦٧) يقول: المراد بالميت هنا الكافر أحياء الله بالإسلام.. وكثيراً ما تستعار الحياة للهداية والعلم ومنه قول القائل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله	فأجسامهم قبل القبور قبور
وإنَّ امرأً لم يحيَ بالعلم ميّتٌ	فليس له حتى النشورِ نشورٌ» (٦٨)

(٦٢) الحج ، الآية ٥٥ .

(٦٣) الذاريات ، الآية ٤١ .

(٦٤) فتح القدير ٥٤٨/٣ .

(٦٥) يس ، الآية ٣٧ .

(٦٦) فتح القدير ٤٢٣/٤ .

(٦٧) الأنعام ، الآية ١٢٢ .

(٦٨) فتح القدير ١٨١/٢ . والبيتان في تفسير القرطبي لبعض شعراء البصرة ص ٥٢/٧ .

القسم الثالث

الكناية والتحريض

أولاً : الكناية .

ثانياً : التحريض .

القسم الثالث

الكناية والتحريض

أولاً : الكناية :

الكناية هي : « لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذٍ »^(١) واختلّف في كونها من المجاز أو الحقيقة؛ والأظهر - على ما ذكره المغربي وغيره من شراح التلخيص - أنها بينهما فهي تتفق مع المجاز «في إرادة اللّازم ويفترقان من جهة أن الكناية لاتصحبها قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي بل يبقى معها جواز إرادة المعنى الأصلي»^(٢) . وهي توافق الحقيقة في أنها لا مانع معها من إرادة المعنى الأصلي.

والشوكاني يعد مثل قولهم : (هو طويل النجاد) : من الحقيقة والمجاز معاً ففيما روى عن النبي ﷺ أنه (كان إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل وأيقظ أهله وشدّ المنزر)^(٣) وقد تناول الشوكاني هذا الحديث في كتابه «نيل الأوطار» وجعل قولهم: «شدّ المنزر» كناية على حدّ «طويل النجاد» يقول: «يحتمل أن يراد حقيقته والمجاز كمن يقول طويل النجاد لطويل القامة، وهو طويل النجاد حقيقة، يعني شدّ منزره حقيقة واعتزل النساء وشمر للعبادة فيكون كناية وهو يجوز فيه إرادة اللّازم والملزوم»^(٤) .

(١) الإيضاح ٤٥٦ .

(٢) ينظر مواهب الفتاح للمغربي ص ٢٣٨ ضمن شروح التلخيص .

(٣) نيل الأوطار ٢٧٠/٤ وهو متفق عليه .

(٤) المصدر السابق ٢٧٠/٤ .

أما تعريف الكناية فقد تناول الشوكاني أصل الكلمة التي اشتقت منها حيث يقول عند قوله تعالى: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾^(٥): «الأكنة: الأغشية، جمع كنان مثل الأسنان والسنان، كننت الشيء في كنة: إذا جعلته فيه، وأكننته أخفيته»^(٦).

وتناول كذلك تعريف الكناية والفرق بينها وبين التعريض، حيث ينقل عن صاحب الكشف قوله: «الفرق بين الكناية والتعريض، أن الكناية: أن يذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له. والتعريض: أن يذكر شيئاً يدل به على شيء لم يذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتكَ لأسلمَّ عليك، ولأنظر وجهك الكريم، ولذلك قالوا: وحسبكَ بالتسليم مني تقاضياً»^(٧).

كأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض، ويسمى التلويح، لأنه يلوح منه ما يريد. انتهى»^(٨).

أما تناول الشوكاني للكناية، فقد كان يراوح فيها بين التفصيل والإجمال ويهتم بالمعنى الذي سيقَّت له الكناية.

يقول عند قوله تعالى: ﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾^(٩): «أي: يضرب إحدى يديه على الأخرى، وهو كناية عن الندم، كأنه قيل فأصبح يندم»^(١٠).

(٥) الأنعام ، الآية ٢٥ .

(٦) فتح القدير ١٢٣/٢ .

(٧) البيت في الكشف ٣٧٣/١ بلا نسبة ، ولم يتناوله شارح شواهد الكشف .

(٨) فتح القدير ٢٨٧/١ .

(٩) الكهف ، الآية ٤٢ .

(١٠) فتح القدير ٣٤١/٣ .

وعند قوله تعالى: ﴿ وضاق بهم ذرعاً ﴾ (١١) يقول مبيناً المعنى الأصلي في العبارة: «قال الأزهري: الذرع يوضع مكان الطاقة، وأصله أن البعير يذرع بيده في سيره على قدر سعة خطوه: أي يبسطها، فإذا حُمِلَ عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك، فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدة الأمر» (١٢). ويقول في موضع آخر حول هذا: «(ضاق بهم ذرعاً) أي: عجز عن تدبيرهم، وحزن، وضاق صدره، وضيق الذراع كناية عن العجز، كما يقال في الكناية عن الفقر: ضاقت يده» (١٣).

ويناقش في موضع آخر الكناية واحتمال عدمها ثم يرجح المعنى الكنائي. يقول عند قوله تعالى: ﴿ وإذا بُشِّرْ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً ﴾ (١٤): «أي: مغيراً، وليس المراد السواد الذي هو ضد البياض، بل المراد الكناية بالسواد عن الانكسار والتغير بما يحصل من الغم، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسودَّ وجهه غمّاً وحزناً قاله الزجاج. وقال الماوردي: بل المراد سواد اللون حقيقة، قال: وهو قول الجمهور، والأول أولى، فإن المعلوم بالوجدان أن من غضب وحزن واغتم لا يحصل في لونه إلا مجرد التغير وظهور الكآبة والانكسار لا السواد الحقيقي» (١٥).

وعبارة الشوكاني الأخيرة توحى بعدم إرادة المعنى الأصلي الذي يُعد جوازه شرطاً للكناية وهو هنا السواد حقيقة، ويبدو أن مراد الشوكاني من نفي السواد

(١١) هود ، الآية ٧٧ والعنكبوت ، الآية ٣٣ .

(١٢) فتح القدير ٥٨٢/٢ .

(١٣) فتح القدير ٢٣٣/٤ .

(١٤) النحل ، الآية ٥٨ .

(١٥) فتح القدير ٢٠٤/٣ .

حقيقة هو السواد الذي يغطي البشرة ويغير لونها، أما السواد الخفيف الذي يذهب ببشاشة الوجه بفعل الكابة والانكسار فحقيقته أن الإسفار الذي يظهر على الوجه المسرور يزول حينئذٍ فيبقى على الوجه ظلمة هي السواد المقصود في الآية - والله أعلم - .

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه ﴾ (١٦) : « قيل : هو كناية عن الغيظ والحسرة » (١٧).

ونظيره قوله عند قوله تعالى : ﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ (١٨) : « تأسفاً وتحسراً ، حيث عجزوا عن الانتقام منكم ، والعرب تصف المغتاز والنادم بعض الأنامل والبنان » (١٩) .

وعند قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ (٢٠) يقول : « قيل : هو كناية عن الملك والسلطان » (٢١) وقال السيد الشريف : « الجلوس على العرش فيمن يتصور منه ذلك كناية محضّة عن الملك ، وفيمن لايجوز عليه مجاز متفرع عليها » (٢٢) .

وعند قوله تعالى : ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ (٢٣) يقول : « أي : يشحّون فيما ينبغي إخراجهم من المال في الصدقة والصلة والجهاد ، فالقبض كناية عن الشحّ ،

(١٦) الفرقان ، الآية ٢٧ .

(١٧) فتح القدير ٨٤/٤ .

(١٨) آل عمران ، الآية ١١٩ .

(١٩) فتح القدير ٤٣١/١ .

(٢٠) طه ، الآية ٥ .

(٢١) فتح القدير ٤٢١/٣ .

(٢٢) حاشية السيد الشريف على المطول ٤٠٧ .

(٢٣) براءة ، الآية ٦٧ .

كما أن البسط كناية عن الكرم» (٢٤) .

وعند قوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ (٢٥) ، يقول: «ولما يعلم» كناية عن نفي المعلوم» (٢٦) قال الزمخشري: «بمعنى: ولما تجاهدوا، لأن العلم متعلق بالمعلوم فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه لأنه منتف بانتفائه، يقول الرجل: ما علم الله في فلان خيراً، يريد ما فيه خير حتى يعلمه» (٢٧) .

والكناية هنا عن صفة وهي انتفاء المعلوم، والقياس في المطالب الإلهية يقتضي أن عدم العلم بالشيء يعني العلم بعدمه، وكل ما هو موجود فعلم الله محيط به، وما لا يقع في علم الله فليس موجوداً، أما المخلوق فإن عدم علمه بالشيء لا يعني علمه بعدمه.

والكناية في الآية عن صفة الانتفاء التي اتصف بها المعدوم.

وعند قوله تعالى : ﴿ ولا يكلمهم الله ﴾ (٢٨) يقول: «فيه كناية عن حلول غضب الله عليهم وعدم الرضا عنهم ، يقال : فلان لا يكلم فلاناً إذا غضب عليه» (٢٩) .

وعند قوله تعالى : ﴿ فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ (٣٠) يقول: «نفي المحبة كناية عن البغض والسخط» (٣١) .

(٢٤) فتح القدير ٤٣٢/٢ .

(٢٥) آل عمران ، الآية ١٤٢ .

(٢٦) فتح القدير ٤٤١/١ .

(٢٧) الكشف ٤٦٧/١ .

(٢٨) البقرة ، الآية ١٧٤ .

(٢٩) فتح القدير ١٩٧/١ .

(٣٠) آل عمران ، الآية ٣٢ .

(٣١) فتح القدير ٣٨٣/١ .

ومثله قوله عند قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٢) : «قوله: (لا يحب الظالمين) كناية عن بغضهم» (٣٣) .

وعند قوله تعالى : ﴿ فَتَقَعْدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ (٣٤) ، يقول : «هو كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخيرات» (٣٥) .

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ (٣٦) : «قيل: إنه كنى بقوله: «زرقاً» عن الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة، وقيل: هو كناية عن شخوص البصر من شدة الخوف، ومنه قول الشاعر (٣٧) :

لَقَدْ زَرَقْتُ عَيْنَاكَ يَا بَنَ مُعْكَبِرٍ كَمَا كُلُّ ضَبِّيٍّ مِنَ اللَّوْمِ أَزْرَقُ

والقول الأول أولى» (٣٨) .

والمقصود بالقول الأول هو : الكناية عن الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة. ووجه الكناية هنا أن الذي تتعقبه الخيبة يظهر على وجهه سواد، والعرب قد تُعبر عن السواد بالزرقه كما في قول امرئ القيس :

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زَرْقُ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ (٣٩)

(٣٢) آل عمران ، الآية ٥٧ .

(٣٣) فتح القدير ١/٣٩٦ .

(٣٤) الإسراء ، الآية ٢٢ .

(٣٥) فتح القدير ٣/٢٥٩ .

(٣٦) طه ، الآية ١٠٢ .

(٣٧) غير معروف ، والبيت في لسان العرب ١٠/١٣٩ .

(٣٨) فتح القدير ٣/٤٥٥ .

(٣٩) سبق تخريج البيت انظر ص ٢٩ من هذا البحث .

والكناية على القول الأول قريبة من الكناية في قوله تعالى: ﴿ ظل وجهه مسوداً ﴾ (٤٠) .

وعند قوله تعالى: ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ (٤١) يقول: السوء العيب، كنى به عن البرص، أي: تخرج بيضاء ساطعاً نورها تضيء بالليل والنهار كضوء الشمس من غير برص» (٤٢) .

ويقول الشوكاني - رحمه الله - عند قوله تعالى: ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ (٤٣): (قيل: المراد باليمين هنا العدل كما في قوله: ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ﴾ (٤٣) أي: بالعدل، واليمين: كناية عن العدل، كما أن الشمال كناية عن الجور» (٤٤) .

ولم يلتزم الشوكاني بهذا المعنى الكنائي عند قوله تعالى: (لأخذنا منه باليمين) حيث يقول: «أي: بالقوة... قال ابن قتيبة: وإنما أقام اليمين مقام القوة، لأن قوة كل شيء في ميامنه، ومن هذا قول الشاعر (٤٥):

إذا مار أيةٌ نُصِبَتْ لمجدٍ تلقّاها عرابةٌ باليمين

وقول الآخر:

ولما رأيتُ الشمسَ أشرقَ نورُها تناولتُ منها حاجتي بيمينِي» (٤٦)

(٤٠) النحل ، الآية ٥٨ وينظر ص ١٨٦ من هذا البحث .

(٤١) طه ، الآية ٢٢ .

(٤٢) الصافات ، الآية ٩٣ .

(٤٣) الحاقة ، الآية ٤٠ .

(٤٤) فتح القدير ٤/٤٦١ .

(٤٥) هو الشماخ بن ضرار ، والبيت في الأغاني ٩/١٦٨ .

(٤٦) فتح القدير ٥/٣٤٢ .

على أنه أشار إلى أن المعنى في الآية الثانية كالمعنى في الأولى، وهذا سبيل الشوكاني حيث يورد المعاني المحتملة في الآية، وقد يكتفي بأحدها أو ببعضها عن بعض.

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ (٤٧) : « هو الهذر من الكلام الذي يلغى ولا طائل تحته، وهو كناية عن عدم صدور اللغو منهم » (٤٨).
ويقول عند قوله تعالى : ﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ (٤٩) : « (فتيلاً) هو الخيط الذي في نواة التمرة، وقيل: القشرة التي حول النواة، وقيل: هو ما يخرج بين أصبعيك أو كفيك من الوسخ إذا فتلتهمما، فهو فتيل بمعنى مفتول، والمراد هنا: الكناية عن الشيء الحقير ومثله: ﴿ ولا يظلمون نقيراً ﴾ وهو النكتة التي في ظهر النواة (٥٠).

ويقول كذلك: « قال حميد بن ثور يصف سرحة وكنتى بها عن امرأة:
فلا الظلُّ من برد الضحى تستطيعه ولا الفيء من برد العشى تذوق » (٥١)
والعرب تكني بالسرحة عن المرأة، ولعل الكناية في بيت سابق لهذا وهو قوله:
أبى الله إلا أن سرحة مالك على كل أفنان العضاه، تروق (٥٢)
قال في اللسان : « كنتى بها عن امرأة . قال الأزهري: العرب تكني عن المرأة بالسرحة النابتة على الماء، ومنه قوله (٥٣) :

(٤٧) مريم ، الآية ٦٢ .

(٤٨) فتح القدير ٤٠١/٣ .

(٤٩) النساء ، الآية ٤٩ .

(٥٠) فتح القدير ٥٥١/١ .

(٥١) فتح القدير ٩٢/٤ ، والبيت في الأغاني ٣٥٧/٤ .

(٥٢) البيت في الأغاني ٣٥٦/٤ وفي اللسان ٤٧٩/٢ .

(٥٣) هو إسحاق الموصلي ، والبيتان في ديوانه ص ١١٩ .

ياسرحة الماء قد سُدتْ مواردهُ

أما إليك طريقٌ غيرُ مسدودٍ

لحائمٍ حامٍ حتى لأحراك به

محلاً ، عن طريق الوردِ مَرْدودِ

كُنِّي بالسرحة النابتة على الماء عن المرأة لأنها حينئذٍ أحسن ماتكون» (٥٤) .

وربما احتُملت الكناية في البيت الذي أورده الشوكاني إذا كان من لوازم

السرحة أنها تتصف بهذا مطلقاً فيكون الانتقال من اللازم إلى الملزوم حينئذٍ

ممكناً ، على أنه بالنظر في كناية العرب عن المرأة بالسرحة نجد أنه ليس فيها

انتقال من اللازم إلى الملزوم وليس بينهما وسائط كما بين المكنى والمكنى عنه في

العرف البياني ، غير أن هذه الكناية مما اشتهر واستفاض كما عُرف عن تكنية

المرأة بالنعجة فإنه لا تلازم بينهما إلا أن يقصد التشبيه وهذا ليس من الكناية .

وفي استعمال النعجة كناية عن المرأة يقول الشوكاني عند قوله تعالى :

﴿ ولي نعجة واحدة ﴾ (٥٥) : «قال الواحدي: النعجة: البقرة الوحشية، والعرب

تكني عن المرأة بها، وتشبه النساء بالنعاج من البقر» (٥٦) .

ونلاحظ أن الشوكاني يشير بفطنته إلى التشبيه ليبين أن الكناية عن المرأة

بالنعجة مما تعورف عليه وليس مما هو داخل دائرة اللازم وملزومه .

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ (٥٧) : «الخيـل

والرَّجُل كناية عن جميع مكايـد الشيطان» (٥٨) .

(٥٤) لسان العرب ٤٧٩/٢ .

(٥٥) ص ، الآية ٢٣ .

(٥٦) فتح القدير ٤٨٩/٤ .

(٥٧) الإسراء ، الآية ٦٤ .

(٥٨) فتح القدير ٢٨٧/٣ .

وعند قوله تعالى: ﴿ فلما تغشاهما ﴾ (٥٩) يقول: « التغشي كناية عن الوقاع» (٦٠) ويقول عند قوله تعالى: ﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ (٦١) : «أي: لتنظر أي شيء قدمت من الأعمال ليوم القيامة، والعرب تكنى عن المستقبل بالغد» (٦٢) .

ويذكر كذلك الكناية بكلمة «فلان» عن الأعلام وهذه الكناية ليس بين طرفيها تلازم، ولعل هناك تلازماً أوجد بعد الاستعمال والشيوع، وعليه يحمل التلازم في الكناية عن المرأة بالسرحه والنعجة فيما سبق الحديث عنه.

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ ياويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ (٦٣) : «دعاء على نفسه بالويل والثبور على مخاللة الكافر الذي أضله في الدنيا وفلان كناية عن الأعلام.. وقيل: فلان كناية عن علم ذكور من يعقل، وفلانة عن علم إناثهم. وقيل: كناية عن نكرة من يعقل من الذكور، وفلانة عمن يعقل من الإناث، وأما الفلان والفلانة، فكناية عن غير العقلاء» (٦٤) .

ويذكر الشوكاني بعض الكنايات مما يفهم منه أنه كناية وإن لم يصرح بلفظها من ذلك قوله عند قوله تعالى: ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ (٦٥) : « التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به، وقال جمهور المفسرين: المعنى تتابعت عليه

(٥٩) الأعراف ، الآية ١٨٩ .

(٦٠) فتح القدير ٣١٢/٢ .

(٦١) الحشر ، الآية ١٨ .

(٦٢) فتح القدير ٢٤٤/٥ .

(٦٣) الفرقان ، الآية ٢٨ .

(٦٤) فتح القدير ٨٤/٤ .

(٦٥) القيامة ، الآية ٢٩ .

الشدائد .. وقال: ابن زيد والعرب لاتذكر الساق إلا في الشدائد الكبار، والمحن العظام، ومنه قولهم: قامت الحرب على ساق» (٦٦) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله﴾ (٦٧) : « في تفسيره وجهان: الأول أن المراد به من يلوي عنقه مرحاً وتكبراً، ذكر معناه الزجاج، وقال: وهذا يوصف به المتكبر. والمعنى: ومن الناس من يجادل في الله متكبراً. قال المبرد: العطف ما انتنى من العنق. والوجه الثاني أن المراد بقوله: (ثاني عطفه) الإعراض: أي: معرضاً عن الذكر» (٦٨) قلت : والوجهان يحتملان الكناية إذ لا مانع من إرادة المعنى الأصلي في كليهما.

وعند قوله تعالى: ﴿خالدين فيها مادامت السموات والأرض﴾ (٦٩) يقول: «قالت طائفة: إن هذا الإخبار جارٍ على ماكانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة في دوام الشيء، قالوا: هو دائم مادامت السموات والأرض، ومنه قولهم: لا آتيك ماجنّ ليل وما اختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام ونحو ذلك» (٧٠) .

ويذكر الشوكاني الكناية مشيراً إلى النوع الثالث منها وهو الكناية عن النسبة حيث يقول عند قوله تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾ (٧١) : «أي: يذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله، وقيل: إن هذا الذكر كناية عن الذبح لأنه لاينفك عنه» (٧٢) .

(٦٦) فتح القدير ٤١٠/٥ .

(٦٧) الحج ، الآية ٩ .

(٦٨) فتح القدير ٥١٩/٣ .

(٦٩) هود ، الآية ١٠٨ .

(٧٠) فتح القدير ٥٩٥/٢ .

(٧١) الحج ، الآية ٢٨ .

(٧٢) فتح القدير ٥٣١/٣ .

ففي قوله : « أي يذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله » إشارة إلى الكناية عن النسبة .

ونقف مع الشوكاني عند آية كريمة تناول فيها الكناية، وما أضفت إلى تفسير الآية من إيضاح، ثم تناول الأقوال المختلفة مرجحاً الكناية لما لها من أثر في فصل الخلاف بين المختلفين في صفات الله تعالى.

يقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ (٧٣) : « المراد بذكر المثل هنا: المبالغة في النفي بطريق الكناية، فإنه إذا نُفي عمن يماثله كان نفيه عنه أولى. كقولهم: مثلك لا يبخلك، وغيرك لا يجود، وقيل: إن الكاف زائدة للتوكيد، أي: ليس مثله شيء، وقيل: إن مثل زائدة، قاله ثعلب وغيره كما في قوله تعالى: ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ﴾ (٧٤) أي: بما آمنتم به، ومنه قول أوس بن حجر:

وقتلَى كَمِثْلٍ جَذُوعِ النَّخِي— لِي يَغْشَاهُمْ مَطَرٌ مُنْهَمِرٌ (٧٥)

أي : كجذوع، والأول أولى، فإن الكناية باب مسلوكة للعرب، ومهيع مألوف لهم، ومنه قول الشاعر:

ليس كمثل الفتى زهير خلق يُوازِيهِ في الفضائل (٧٦)

وقال آخر:

على مثلٍ ليلي يقتل المرء نفسه وإن بات من ليلي على اليأس طاويا

وقال آخر :

سعدُ بنُ زيدٍ إذا أبصرت فضلهم فما كمثلهم في الناس من أحد (٧٧)

(٧٣) الشورى ، الآية ١١ .

(٧٤) البقرة ، الآية ١٣٧ .

(٧٥) البيت في الجنى الداني ص ٨٨ ، وهو بلفظ (مسبل) مكان (مطر) .

(٧٦) البيت في الجنى الداني ص ٨٩ ، وهو غير منسوب .

(٧٧) البيت في الجنى الداني ص ٨٩ ، وهو غير منسوب كذلك .

قال ابن قتيبة: العرب تقيم المثل مقام النفس، فتقول: مثلي لا يقال له هذا، أي: أنا لا يقال لي. وقال أبو البقاء مرجحاً لزيادة الكاف: إنها لو لم تكن زائدة لأفضى ذلك إلى المحال، إذ يكون المعنى: أن له مثلاً وليس لمثله مثل، وفي ذلك تناقض، لأنه إذا كان له مثل فلمثله مثل، وهو هو مع أن إثبات المثل لله سبحانه محال، وهذا تقرير حسن، ولكنه يندفع ما أورده بما ذكرنا من كون الكلام خارجاً مخرج الكناية، ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها، وتدبرها حق تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله: (وهو السميع البصير) فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للمائل قد اشتمل على برد اليقين، وشفاء الصدور، وانتلاج القلوب، فاقدّر ياطالب الحق قدر هذه الحجة النيرة، والبرهان القوي، فإنك تحطم بها كثيراً من البدع، وتهشم بها رؤوساً من الضلالة، وترغم بها آناف طوائف من المتكلفين، ولا سيما إذا ضمنت إليه قول الله سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾^(٧٨) فإنك حينئذٍ قد أخذت بطرفي حبل ما يسمونه علم الكلام، وعلم أصول الدين^(٧٩).

وبهذا المعنى اللطيف والحجة القوية نجد ما يؤيد القول بمنع الزيادة في القرآن الكريم، قال السعد: «والأحسن أن لا تجعل الكاف زائدة ويكون من باب الكناية وفيه وجهان: أحدهما أنه النفي للشيء بنفي لازمه لأن نفي اللازم يستلزم نفي الملزوم... والثاني ما ذكره صاحب الكشف وهو أنهم قد قالوا مثلك لا يبخل فنفوا البخل عن مثله والغرض نفيه عن ذاته فسلخوا طريق الكناية قصداً إلى المبالغة لأنهم إذا نفوه عما يماثله وعمّن يكون على أخص أوصافه فقد نفوه عنه كما يقولون: قد أيفعت لداته وبلغت أترابه يريدون إيفاعه وبلوغه، فحينئذٍ لافرق بين

(٧٨) طه ١١٠ .

(٧٩) فتح القدير ٤/٦٠٥ و ٦٠٦ .

قوله ليس كالله شيء وقوله ليس كمثله شيء إلا ماتعطيه الكناية من فائدتها وهما عبارتان متعاقبتان على معنى واحد وهو نفي المماثلة عن ذاته» (٨٠).

ثانياً : التعريض :

عرّف الشوكاني التعريض بقوله : « التعريض : ضد التصريح، وهو من عرض الشيء، أي: جانبه، كأنه يحوم به حول الشيء ولا يظهره، وقيل: هو من قولك: عرضت الرجل، أي: أهديت له. ومنه : أن ركباً من المسلمين عرضوا رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً، أي: أهدوا لهما، فالمعرض بالكلام يوصل إلى صاحبه كلاماً يفهم معناه» (٨١).

وقد ذكرنا في مستهل الحديث عن الكناية، تفريق الشوكاني بين الكناية والتعريض ناقلاً ذلك عن الكشف.

وذكر كذلك أنه يسمى التلويح، لأنه يلوح منه ما يريده، والحق أنه وإن كان كل من التلويح والتعريض والإشارة راجعاً إلى الكناية في عمومها، إلا أن البيانين قيدوا التلويح بأنه ما كثرت فيه الوسائط مثل: كثير الرماد، وجبان الكلب، أما التعريض فإن الوسائط فيه أقل منها في التلويح، على أن هذا القول قد نقله الشوكاني عن صاحب الكشف، وهو أول من فرق بين الكناية والتعريض (٨٢).

وقد تناول الشوكاني التعريض في مواضع كثيرة من تفسيره، ومن ذلك قول عند قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ (٨٣) : «يحتمل

(٨٠) المطول ٤٠٦ .

(٨١) فتح القدير ٢٨٧/١ .

(٨٢) انظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥٦٣ .

(٨٣) البقرة ١٤٠ .

أنَّ المراد أن المسلمين لو كتموا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منهم، ويكون المراد بذلك التعريض بأهل الكتاب» (٨٤) .

وعند قوله تعالى: ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ (٨٥) يقول: « فيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم» (٨٦) .

وفي قصة إبراهيم مع قومه يقول عند قوله تعالى: ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ (٨٧): «أراد عليه السلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة، ولا يصح في العقل أن يطلق عليه أنه إله. فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف بأن الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة، لأنهم إذا قالوا إنهم لا ينطقون، قال لهم: فكيف تعبدون من يعجز عن النطق، ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه؟ فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة ويعترف بالحق، فإن ذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته» (٨٨) .

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ﴾ (٨٩): «المعنى: نفي الارتياب عنهم في الدين أو: في أن عدة خزنة جهنم تسعة عشر، ولا

(٨٤) فتح القدير ١٧٢/١ .

(٨٥) النحل ١٠٢ .

(٨٦) فتح القدير ٢٣٢/٣ .

(٨٧) الأنبياء ٦٣ .

(٨٨) فتح القدير ٤٨٩/٣ .

(٨٩) المدثر ، الآية ٣١ .

ارتياح في الحقيقة من المؤمنين، ولكنه من باب التعريض لغيرهم ممن في قلبه شك» (٩٠).

وفي قصة الملكين مع داود عليه السلام يذكر مافي القصة من التعريض؛ وذلك عند قوله تعالى: ﴿ خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ﴾ (٩١)، إذ نرى الشوكاني يذكر موضعين للتعريض أحدهما في قوله: (خصمان بغى بعضنا على بعض) حيث يقول: «هو على سبيل الفرض والتقدير، وعلى سبيل التعريض لأن من المعلوم أن الملكين لا يبغيان» (٩٢) ويقول في الآخر: «المعنى: أنه عند أن تخاصما إليه وقال ما قال، علم عند ذلك أنه المراد، وأن مقصودهما التعريض به وبصاحبه الذي أراد أن ينزل له عن امرأته» (٩٣).

وعلى فرض صحة هذه القصة في تفسير الآية، فإن التعريض يكون بالقصة كاملة بما فيها حكم داود عليه السلام، على أنه قد سبق لنا أن ذكرنا ما في بعض القصة من كناية وهي الكناية عن المرأة بالنعجة. وهنا فائدة وهي أنه قد تتعدد الكنايات ويرفد بعضها بعضاً فتعطي معنىً كنائياً واحداً.

والتعريض قد يؤدي غرضاً بلاغياً كالوعيد والتوبيخ، وكالتبكيك الذي رأيناه في جواب إبراهيم عليه السلام لقومه بقوله: (فاسألوهم إن كانوا ينطقون). ومن التعريض الذي يفهم الوعيد والتوبيخ قوله تعالى: ﴿ والله يعلم ماتسرون وما

(٩٠) فتح القدير ٣٩٦/٥.

(٩١) ص، الآية ٢٢ و ٢٣.

(٩٢) فتح القدير ٤٨٨/٤.

(٩٣) فتح القدير ٤٨٩/٤.

تعلنون ﴿ (٩٤) ، قال الشوكاني - رحمه الله - : «فيه وعيد وتعريض وتوبيخ، وتنبيه على أن الإله يجب أن يكون عالماً بالسر والعلانية لا كالأصنام التي يعبدونها» (٩٥) .

وعند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ (٩٦) يقول: «قيل: إنه خاطب امرأة العزيز بما يصلح لخطاب جماعة النساء تعظيماً لها، أو عدولاً عن التصريح إلى التعريض» (٩٧) .

ونظيره في التعريض بامرأة العزيز، وكذلك فيه تعريض بزوجها، قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (٩٨) قال الشوكاني: «إذا كان من قول يوسف ففيه تعريض بامرأة العزيز حيث وقع منها الكيد له والخيانة لزوجها، وتعريض بالعزيز حيث ساعدها على حبسه بعد أن علم براءته ونزاهته» (٩٩) .

وعند قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ (١٠٠) يقول: «لا إلى غيره (متاب) أي: توبتي، وفيه تعريض بالكفار، وحث لهم على الرجوع إلى الله، والتوبة من الكفر، والدخول في الإسلام» (١٠١) .

ويتناول الشوكاني خطاب القرآن الكريم للنبي ﷺ على سبيل التعريض لأمته، ومعلوم عند الأصوليين أن خطاب النبي ﷺ خطاب لأمته، والشوكاني قد

(٩٤) النحل ، الآية ١٩ .

(٩٥) فتح القدير ١٨٦/٣ .

(٩٦) يوسف ، الآية ٣٣ .

(٩٧) فتح القدير ٢٩/٣ .

(٩٨) يوسف ، الآية ٥٢ .

(٩٩) فتح القدير ٤٢/٣ .

(١٠٠) الرعد ، الآية ٣٠ .

(١٠١) فتح القدير ٩٨/٣ .

يجمع بين الغرض البلاغي والحكم الشرعي، وماتفيده الآية الكريمة من وجوه محتملة، ولاشك أن علم الأصول قد أفاد كثيراً من الدراسات البلاغية في استنباط الحكم الشرعي من أدلة الأحكام.

ومن خطاب النبي ﷺ مع التعريض لأتمته مع ما في الآية من عتاب لطيف من الله لنبيه ﷺ قوله تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبي﴾ (١٠٢) يقول الشوكاني: «يجوز أن يكون ذكر النبي ﷺ لأجل التعريض للمذنبين، بأن يتجنبوا الذنوب ويتوبوا عما قد لابسوه منها» (١٠٣).

وعند قوله تعالى: ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك من الظالمين﴾ (١٠٤) ذكر الشوكاني موضعين للتعريض حيث يقول: «أكد الأمر المتقدم بالنهاي عن ضده فقال: (ولا تكونن من المشركين) وهو معطوف على أقم، وهو من باب التعريض لغيره ﷺ ... (فإنك من الظالمين) .. المقصود من الخطاب التعريض لغيره ﷺ» (١٠٥).

وعند قوله تعالى: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ (١٠٦) يقول: «هذا النهي له ﷺ هو تعريض لغيره ممن يداخله شيء من الشك، فإنه ﷺ لا يشك في ذلك أبداً» (١٠٧).

(١٠٢) التوبة ، الآية ١١٧ .

(١٠٣) فتح القدير ٤٧٠/٢ .

(١٠٤) يونس ، الآيتان ١٠٥ و ١٠٦ .

(١٠٥) فتح القدير ٥٤٢/٢ .

(١٠٦) هود ، الآية ١٠٩ .

(١٠٧) فتح القدير ٥٩٩/٣ .

ومن ذلك أيضاً قوله عند قوله تعالى: ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ (١٠٨) « هذا النهي يتناول كل مكلف ، سواء كان الخطاب للنبي ﷺ تعريضاً لأُمته وتعليماً لهم ، أو الخطاب لكل من يصلح له من المكلفين، والمراد النهي للإنسان عن أن يمسك إمساكاً يصير به مضيئاً على نفسه وعلى أهله، ولا يوسع في الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه بحيث يكون به مسرفاً» (١٠٩) .

وقد أشرنا من قبل في هذا البحث إلى تناول الشوكاني لهذه الآية على أنها من الاستعارة التمثيلية، وذكرنا أنها تحتل الكناية بوجه أقوى من التمثيل، ومهما يكن فإنه لا يمنع كون الآية من الاستعارة التمثيلية - إن صحت - أن يُقصد بها التعريض لأُمته ﷺ .

التلويح :

ذكر الشوكاني التلويح عند قوله تعالى : ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ﴾ (١١٠) حيث يقول: «في هذا تلويحٌ بالدليل على البعث، وأن القادر على الابتداء قادرٌ على الإعادة» (١١١) .

ويقول كذلك عند قوله تعالى: ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من

(١٠٨) الإسراء ، الآية ٢٩ .

(١٠٩) فتح القدير ٣/ ٢٦٤ .

(١١٠) الكهف ، الآية ٣٧ .

(١١١) فتح القدير ٣/ ٣٣٩ .

الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴿١١٢﴾ : «ذكر أمرا تي النبيين بعد ذكر قصتهما (١١٣) ومظاهرتهم على رسول الله ﷺ يرشد أتم إرشاد، ويلوح أبلغ تلويح إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين» (١١٤).

(١١٢) التحريم ، الآية ١٠ .

(١١٣) الضمير في «قصتهما» يرجع إلى عائشة وحفصة رضي الله عنهما إذ ذكرت قصتهما في أول السورة.

(١١٤) فتح القدير ٣٠٤/٥ .

القسم الرابع

أولاً : التأثر في تفسير فتح القدير .

ثانياً : منهج الإمام الشوكاني البياني .

القسم الرابع

أولاً : التاثر في تفسير فتح القدير

ذكرنا فيما سبق أن الشوكاني أخذ عن غيره من المفسرين ، وعلماء اللغة والبيانين ، وقد أوضح هذا في المقدمة ^(١) ، وأشار إلى شروطه فيما يأخذه ، وإلى منهجه في القبول أو الرد ، وقد كان في ذلك واضح المنهج بين الطريقة .

ولا شك أنه - رحمه الله - واسع الاطلاع ، غزير المعرفة ، ولا يماري في ذلك من له صلة بكتبه . فقد كان من العلم بحيث لا يتناول باباً منه إلا ظنَّ من أربابه ، ولا أحسبه إلا من جهابذة البيانين ، لاسيما وقد جلس لتدريس أشهر كتب البلاغة وأوسعها كالمطول وحواشيه وغير ذلك من كتب سارت بين البيانين ^(٢) . فهيئاً له ذلك الوقوف على مختلف الآراء ، والأخذ بجيدها ، والفصل فيما اختلف فيه ، فهو من التمكن بحيث يوثق برأيه ويسترشد بتوجيهه فيما يختلف فيه ^(٣) .

عاش الشوكاني في عصر أخذت البلاغة فيه نصيبها من البحث والدراسة ، فقد كثرت المطولات والحواشي ، وكتب على كثير من كتب التفسير حواشٍ أخصبت للباحثين والدارسين أودية هذا العلم ، واطَّلَعَ على أغلب هذه المطولات والحواشي ، وخاصة ما كتب على الكشاف ، وعلى تفسير البيضاوي .

إن اطلاع عالمنا على هذه الكتب العظيمة بين الأثر في تفسيره ، وظاهر المعالم بغض النظر عما نصَّ على نقله والإفادة منه ، فنحن نجد في تفسيره أثر

(١) انظر مقدمة فتح القدير للمؤلف .

(٢) ينظر البدر الطالع ٢١٩/٢ .

(٣) ذكر المؤلف - رحمه الله - أن له رسالة سماها « الطود المنيف في ترجيح ما قاله السعد على ما قاله الشريف » وهي بلا شك تتصل بالمجاز (انظر فتح القدير ٤٤/١) .

كتب معاني القرآن وكتب التفسير ، التي اهتمت بوجوه البلاغة في كتاب الله ، على تباين في نوع الأثر ومقداره ، ومن الواضح أن الشوكاني - برغم اطلاعه على كتب المتأخرين من علماء البيان ، كأصحاب الشروح وأصحاب الحواشي على ما بينا - كان أغلب تأثره بكتب المتقدمين من المفسرين كالزجاج والزمخشري ، ثم يختلف التأثر بكتب المفسرين واللغويين بين الوضوح والخفاء ، فنجد أنه يأخذ عن كتاب سيبويه وعن كتب المبرد والنحاس وعن الفخر الرازي وغيرهم .

وسوف نتناول هنا أهم الكتب التي ظهر أثرها في تفسير فتح القدير ، مما نص الشوكاني على الأخذ عنها أو لم ينص عليه . وأبرز هذه الكتب أثراً في الفتح هي :

- ١ - معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق إبراهيم بن السريّ الزجاج^(٤) .
- ٢ - تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للعلامة أبي القاسم الزمخشري^(٥) .

أولاً ، أثر الكشاف في فتح القدير :

لا ينكر ذو بصيرة ما للكشاف من أثر في الدراسة البلاغية منذ القرن السادس ، ولم يقتصر أثره على الدراسات البلاغية القرآنية ، إذ نلمس وحيه في

(٤) هو إبراهيم بن السريّ بن سهل أبو إسحاق الزجاج النحوي ، كان من أهل الفضل والدين ، حسن الاعتقاد ، روى أنه كان على مذهب الإمام أحمد ومعتقده ، أخذ النحو عن المبرد ، وهو شيخ أبي علي الفارسي ، كان يصنع الزجاج ثم مؤدباً للقاسم ابن عبيد الله وزير المعتضد ، له مصنفات أهمها «معاني القرآن» انظر طبقات النحويين واللغويين ص ١١١ ، وإنباه الرواة ١٩٤/١ وما بعدها ، ومعجم الأدباء ٨٢/١ وبغية الوعاة ٤١١/١ وما بعدها .

(٥) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري «أبو القاسم جار الله» كان واسع العلم ، كثير الفضل ، غاية في الذكاء وجودة القريحة ، متفنناً في كل علم ، معتزلياً قوياً في مذهبه ، مجاهراً به حنفياً ، أشهر تصانيفه الكشاف والمفصل في علم العربية والفائق في غريب الحديث ، والمستقصى في الأمثال (انظر إنباه الرواة ٢٦٥/٣ ومعجم الأدباء ٤٨٩/٥ وبغية الوعاة ٢٧٩/٢ وما بعدها . توفي بخوارزم سنة ٥٣٨ هـ .

كتب البلاغة بدءاً بالمفتاح ثم التلخيص وما كتب عليه من شروح ومطولات، فضلاً عن كتب التفسير التي أخذت عنه الكثير كالبحر المحيط لأبي حيان، وتفسير البيضاوي وتفسير أبي السعود وغيرها، وماتبع ذلك من حواشٍ ومختصرات، كان مؤلفها الكشاف .

ولقد حظي الكشاف بدراسة بلاغية قام بها الدكتور «محمد أبو موسى» استقصى فيها جهود الزمخشري في إيضاح البلاغة القرآنية وأثر كتابه فيما ظهر بعده من كتب كانت محل عناية الدارسين.

وفضلاً عن هذا فقد وجد الكشاف رواجاً في المجتمع الزيدي الذي عاش فيه الشوكاني ذلك لما بين الزيدية والاعتزال من توافق في بعض الأصول، وقد كان من البدهي أن يتناول الشوكاني «المجتهد» مثل هذا التفسير الذي سار في مجتمعه، ليبين مافيه من اعتزال، ويميز رديئه من جيده، على ما عرف عن الشوكاني من اجتهاد وما خطه لنفسه من نبذ للتقليد. فقد كان سلفياً يدعو إلى الأخذ بالدليل مما جعل الكثير من أقرانه وأتباعهم من الزيدية يحملون عليه لولا صموده وقوته في الحق وصلابة ما استند إليه من دليل وما أخذه على نفسه من منهج.

وعلى الرغم من أن الشوكاني قد حمل على الزمخشري في سقطاته العقدية، فإنه قد أفاد من القضايا اللغوية عموماً، والبلاغية على وجه الخصوص من الكشاف.

ومن ذلك قول الشوكاني في تشبيه الربا بالبيع عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ ^(٦) : «أي: أنهم جعلوا البيع والربا شيئاً واحداً، وإنما شبهوا البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا أصلاً والبيع فرعاً، أي: إنما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل كالبيع بزيادة عند حلوله » ^(٧) فقد أفاده من كلام الزمخشري حول

(٦) البقرة ٢٧٥ .

(٧) فتح القدير ٣٣٨/١ .

التشبيه في الآية، ومناقشته لمسألة كون المشبه به هنا هو الربا وليس البيع حيث يقول: «فإن قلت: هلاً قيل إنما الربا مثل البيع لأن الكلام في الربا لا في البيع، فوجب أن يقال: إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلّوه، وكانت شبهتهم أنهم قالوا: لو اشترى الرجل مالا يساوي إلا درهماً بدرهمين جاز، فكذلك إذا باع درهماً بدرهمين؟ قلت: جيء به على طريق المبالغة وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حلّ الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً في الحلّ حتى شبهوا به البيع» (٨).

ويستفيد الشوكاني من توجيه الزمخشري لبعض ملابسات التشبيه عند قوله تعالى: ﴿فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتریات﴾ (٩) حيث يقول: «أي: مماثله له في البلاغة، وحسن النظم، وجزالة الألفاظ، وفخامة المعاني، ووصف السور بما يوصف به المفرد، فقال: مثله، ولم يقل أمثاله، لأن المراد مماثلة كل واحدة من السور، أو لقصد الإيماء إلى وجه الشبه، ومداره المماثلة في شيء واحد، وهو البلاغة البالغة إلى حد الإعجاز» (١٠).

وهذا بعض كلام الزمخشري عند نفس الآية حيث يقول: «(مثله) بمعنى أمثاله ذهاباً إلى مماثلة كل واحدة منها له (مفتریات) صفة لعشر سور... فإن قلت: كيف يكون ما يأتون به مثله وما يأتون به مفترى وهذا غير مفترى؟ قلت: معناه مثله في حسن البيان والنظم وإن كان مفترى» (١١).

ويقول الشوكاني عند قوله تعالى: ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ (١٢): «الكذب: البياض الذي يخرج في أظفار الأحداث، فيجوز أن يكون

(٨) الكشف ٣٩٩/١.

(٩) هود ١٣.

(١٠) فتح القدير ٥٥٢/٢.

(١١) الكشف ٢٦١/٢.

(١٢) يوسف ١٨.

شبه الدم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظفر من جهة اللونين « (١٣) .
وهذا الوجه الذي استنبطه الشوكاني مبنى على كلام ابن جني الذي ذكره
الزمخشري عند الآية السابقة بقوله: «قال ابن جني: أصله من الكذب وهو الفوف
البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث كأنه دم قد أثر في قميصه» (١٤) .

ومن غير المحتمل أن يكون الشوكاني قد أخذ هذا القول عن ابن جني
مباشرة دون واسطة من الكشف، لأن الشوكاني لم يعتمد على شيء من كتب ابن
جني ، بل يكاد أثرها ينعدم في فتح القدير، وخاصة مايتعلق بالجانب البلاغي،
وليس في هذا هضم لجهود ابن جني البلاغية .

ويظهر أثر الكشف فيما كتبه الشوكاني عن التشبيه المركب وإن أضاف إلى
ذلك شيئاً من أسلوبه الأدبي، أو نقل المعنى بلفظ غير لفظ الزمخشري.

يقول عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ
فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا
فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ﴾ (١٥) « لما ذكر الله سبحانه ماتقدم
من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يضمن بيان حالها وسرعة تقضيها، وأنها
تعود بعد أن تملأ الأعين برونقها، وتجلب النفوس ببهجتها... بضرب من التشبيه
المركب... والمعنى: أن مثلها في سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضاد ماكانت
عليه ويباينه، مثل ما على الأرض من أنواع النبات في زوال رونقه وذهاب بهجته
وسرعة تقضيته، بعد أن كان غصناً طرياً قد تعانقت أغصانه المتمايلة، وزهت أوراقه

(١٣) فتح القدير ١٤/٣ .

(١٤) الكشف ٣٠٨/٢ .

(١٥) يونس ٢٤ .

المتصافحة، وتلألأت أنوار نوره، وحاكت الزهر أنواع زهره، وليس المشبه به هو مادخله الكاف في قوله: (كماء أنزلناه من السماء) بل مايفهم من الكلام، والباء في: (فاختلط به نبات الأرض) للسببية، أي فاختلط بسببه نبات الأرض، بأن اشتبك بعضه ببعض حتى بلغ إلى حد الكمال... (وازينت) شبهها بالعروس التي تلبس الثياب الجيدة المتلونة ألواناً كثيرة... (وظن أهلها أنهم قادرون عليها) أي: غلب على ظنونهم أو تيقنوا أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها، والضمير في (عليها) للأرض، والمراد: النبات الذي هو عليها (أتاها أمرنا) جواب إذا، أي: جاءها أمرنا بإهلاكها واستئصالها وضربها ببعض العاهات» (١٦).

ويقول الزمخشري حول هذه الآية: «شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه (فاختلط به) فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً (أخذت الأرض زخرفها وازينت) كلام فصيح: جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين... (قادرون عليها) متمكنون من منفعتها محصولون لثمرتها رافعون لعلتها (أتاها أمرنا) وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم» (١٧).

ويأخذ الشوكاني عن الكشف ثناءه على أمثال القرآن، وما بينه من عظم شأنها في إبراز المعاني الخفية حيث يقول الشوكاني بما نفهم أن مراده هو الزمخشري: «وقد تقرر عند علماء البلاغة أن لضرب الأمثال شأنًا عظيمًا في إبراز خفايات المعاني، ورفع أستار محجبات الدقائق، ولهذا استكثر الله من ذلك

(١٦) فتح القدير ٤٩٨/٢ .

(١٧) الكشف ٢٣٣/٢ .

في كتابه العزيز، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من ذلك في مخاطبته ومواعظه « (١٨) .

وهذا القول مستفاد من كلام الزمخشري حيث يقول: « ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي ، في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد . وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامع الأبوي، ولأمر ما استكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله ، وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم» (١٩) .

وقد أفاد الشوكاني في عدة مواضع من تفسيره ، من كلام الزمخشري عند قوله تعالى: ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ (٢٠) ، إذ أطال الزمخشري الحديث عن الأمثال وماوردت له كلمة مثل في القرآن الكريم ووجوه استعارتها، وقد نقله الشوكاني مفرقاً في تفسيره على مواضع ذات صلة بما ذكره الزمخشري ، على ما عرف عن الشوكاني من ميل للإيجاز .

ويأخذ الشوكاني عن الزمخشري مع تغيير في أسلوب العبارة وصيغة الكلام تأدباً مع كلام الله، لما في عبارة الزمخشري من حيف بالأدب ، كما قال ابن المنير .

يقول الشوكاني عند قوله تعالى : ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرأصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ﴾ (٢١): «معنى الآية: مثل نفقة الكافرين في بطلانها وذهابها، وعدم منفعتها، كمثل زرع

(١٨) فتح القدير ٥٦/١ .

(١٩) الكشف ١٩٥/١ .

(٢٠) البقرة ١٧ .

(٢١) آل عمران ١١٧ .

أصابه ريح باردة، أو نار فأحرقته أو أهلكته، فلم ينتفع أصحابه بشيء منه بعد أن كانوا على طمع من نفعه وفائدته. وعلى هذا فلا بد من تقدير في جانب المشبه به، فيقال: كمثل زرع أصابته ريح فيها صرٌّ، أو: مثل إهلاك ماينفقون، كمثل إهلاك ريح فيها صرٌّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم» (٢٢).

ويقول الزمخشري عند نفس الآية: «شبه ماكانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لايبتغون به وجه الله بالزرع الذي حسه البرد فذهب حطاماً.. فإن قلت: الغرض تشبيه ماأنفقوا في قلة جدواه وضياعه بالحرث الذي ضربته الصرّ والكلام غير مطابق للغرض حيث جعل ماينفقون ممثلاً بالريح. قلت: هو من التشبيه المركب الذي مرّ في تفسير قوله (كمثل الذي استوقد ناراً) ويجوز أن يراد مثل إهلاك ماينفقون كمثل إهلاك ريح أو مثل ماينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث» (٢٣).

والملاحظ أن الشوكاني أخذ كلام الزمخشري تاركاً الاعتراض وصيغته الاستفهامية، ثم حوّر العبارات تأدياً مع القرآن. قال ابن المنير: «قال محمود: (فإن قلت: الغرض تشبيه ماأنفقوا في قلة جدواه الخ) قال أحمد: أما إيراد السؤال فلا يرتضي صيغته لما فيها من حيف بالأدب إذ جزم بالسائل المقدر بأن كلام الله غير مطابق لمراده، واللائق بالسؤال الوارد عن كتاب الله تعالى أن يذكر بصيغة الاسترشاد الصريحة لا بصيغة الاعتراض المحضة» (٢٤).

ولا يبعد هنا أن يكون الشوكاني أفاد من مأخذ ابن المنير على الزمخشري، وإن كان الشوكاني قد اجتنب كثيراً من سقطات صاحب الكشاف. ويأخذ عن الكشاف أيضاً. كلامه عن وجه الشبه عند قوله تعالى:

(٢٢) فتح القدير ٤٢٩/١.

(٢٣) الكشاف ٤٥٧/١.

(٢٤) حاشية ابن المنير على الكشاف ٤٥٧/١.

﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ ^(٢٥) حيث يقول: « أي : مثل أمهاتهم في الحكم بالتحريم، ومنزلات منزلتهن في استحقاق التعظيم فلا يحل لأحد أن يتزوج بواحدة منهن، كما لا يحل له أن يتزوج بأمه » ^(٢٦) .

وهذا مفهوم قول الزمخشري : « تشبيه لهن بالأمهات في بعض الأحكام وهو وجوب تعظيمهن واحترامهن وتحريم نكاحهن » ^(٢٧) .

ويعتمد الشوكاني على كثير من كلام الزمخشري وأغلب هذا فيما يتصل بالمجاز ، وخاصة المركب منه، حيث يُعدّ ماسجله الزمخشري في هذا الباب من أفضل ماحواه تفسيره من كلام عن بلاغة القرآن، وقد نال عناية الزمخشري سواء بما أثنى به على هذا الباب من أبواب البلاغة وما وسمه به من سمات التعظيم، أو بتناوله المتميز للآيات الكريمة التي اشتملت على شيء منه.

من ذلك قوله في الحقيقة اللغوية والشرعية عند قوله تعالى : ﴿ هدى للمتقين ﴾ ^(٢٨) : « قال في الكشف : المتقي في اللغة : اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى، والوقاية : الصيانة، ومنه : فرس واقٍ، وهذه الدابة تقي من وجاها : إذا أصابها ضلع من غلظ الأرض ورقة الحافر، فهو يقي حافره أن يصيبه أدنى شيء يؤله. وهو في الشريعة : الذي يقي نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك » ^(٢٩) .

وينقل عنه كذلك عند قوله تعالى : ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ﴾ ^(٣٠) . إذ يعتمد

(٢٥) الأحزاب ٦ .

(٢٦) فتح القدير ٣٠١/٤ .

(٢٧) الكشف ٢٥١/٣ .

(٢٨) البقرة ٢ .

(٢٩) فتح القدير ٣٩/١ والكشاف ١١٩/١ .

(٣٠) الأحزاب ٤٩ .

رأيه في الخلاف حول حقيقة النكاح، فيقول : « اختلف في لفظ النكاح هل هو حقيقة في الوطء ، أو في العقد أو فيهما على طريقة الاشتراك وكلام صاحب الكشف في هذا الموضع يشعر بأنه حقيقة في الوطء، فإنه قال : النكاح الوطء، وتسمية العقد نكاحاً لملابسته له من حيث أنه طريق إليه، ونظيره تسميتهم الخمر إثماً لأنها سبب في اقتراف الإثم» (٣١) .

وهذان النصان بتمامهما من الكشف كما نصّ عليه - رحمه الله - ، وفي اختياره لرأي الزمخشري واعتماد قوله دليل على ما ذهبنا إليه من أن ما في الكشف من اعتزال وسقطات لم تمنع الشوكاني من موافقة الزمخشري حين يرى أحقية رأيه، وهذا شأن المنصفين من أهل العلم، فلا يعرف الحق بالرجال ، بل به يُعرفون .

ومما أفاده الشوكاني من الكشف في التمثيل « المجاز المركب » وأخذه بنصّه قوله عند قوله تعالى: ﴿ أولئك على هدى ﴾ (٣٢) : « قال في الكشف : ومعنى الاستعلاء في قوله : (على هدى) مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به، شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه، ونحوه: هو على الحق وعلى الباطل. وقد صرّحوا بذلك في قولهم: جعل الغواية مركباً، وامتنى الجهل ، واقتعد غارب الهوى» (٣٣) .

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ (٣٤) : « قال في الكشف : إنه تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه،

(٣١) فتح القدير ٣٣٣/٤ والكشاف ٢٦٧/٣ .

(٣٢) البقرة ٥ .

(٣٣) فتح القدير ٤٤/١ والكشاف ١٤٢/١ .

(٣٤) البقرة ١٨٦ .

وسرعة إنجاحه من سألّه ، بمن قرب مكانه ، فإذا دعي أُسرعت تلبّيته» (٣٥) .
ويأخذ الشوكاني عن الزمخشري بعض كلامه عن المثل في قوله تعالى :
﴿ أَمَّنْ أَسَّسَ بَنِيَانَهُ عَلَى شِفَا جَرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ (٣٦) ثم
يتبعه بثناء على بلاغة الآية ، مستوحياً ما في عبارة الكشاف . فيقول : « جعل
سبحانه هذا مثلاً لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحلّ بسرعة ، ثم قال : (فانهار به
في نار جهنم) وفاعل (فانهار) ضمير يعود إلى الجرف ، أي : فانهار الجرف
بالبنيان إلى النار ، ويجوز أن يكون الضمير في (به) يعود إلى من ، وهو الباني .
والمعنى : أنه طاح الباطل بالبناء ، أو الباني في نار جهنم ، وجاء بالانهيار الذي هو
للجرف ترشيحاً للمجاز ، وسبحان الله ما أبلغ هذا الكلام ، وأقوى تراكيبه وأوقع
معناه ، وأفصح مبناه» (٣٧) .

ولنتأمل كلام الزمخشري لنرى أثره الواضح في عبارة الشوكاني . يقول
الزمخشري عند نفس الآية : « المعنى : أَمَّنْ أَسَّسَ بَنِيَانَهُ دِينَهُ عَلَى قَاعِدَةٍ قَوِيَّةٍ
مَحْكَمَةٍ وَهِيَ الْحَقُّ الَّذِي هُوَ تَقْوَى اللَّهِ وَرِضْوَانُهُ (خير أم من أسس) - على قاعدة
هي أضعف القواعد وأرخابها وأقلها بقاءً وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل (شفا
جرف هار) في قلة الثبات والاستمسك ، وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى لأنه
جعل الهائر مجازاً عما ينافي التقوى . فإن قلت : فما معنى قوله (فانهار به في نار
جهنم) ؟ قلت : لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل ، قيل : فانهار به في نار
جهنم على معنى فطاح به الباطل في نار جهنم ، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ
الانهيار الذي هو الجرف ... ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدل على حقيقة
الباطل وكنه أمره» (٣٨) .

(٣٥) فتح القدير ٢١٢/١ والكشاف ٣٣٧/١ .

(٣٦) براءة ١٠٩ .

(٣٧) فتح القدير ٤٦٠/٢ .

(٣٨) الكشاف ٢١٥/٢ .

ومما سبقت إليه الإشارة أن الشوكاني لم يأبه بالتعريفات البلاغية ، إلا ماوافق لفظ القرآن فيترجم ذلك اللفظ بمعناه اللغوي أو بالاصطلاح البلاغي ، كالمثل والتعريض ، وذكرنا أنه قد أفاد الفرق بين التعريض والكناية من صاحب الكشف إذ يقول: « قال في الكشف : الفرق بين الكناية والتعريض ، أن الكناية: أن يذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له. والتعريض : أن يذكر شيئاً يدل به على شيء لم يذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا:

وحسبك بالتسليم مني تقاضيا

كأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض، ويسمى التلويح، لأنه يلوح منه مايريده» (٣٩) .

ثانياً : أثر معاني القرآن وإعرابه في فتح القدير :

يعتبر كتاب معاني القرآن للزجاج من أهم الكتب التي اعتمدها المفسرون في الجوانب اللغوية من تفاسيرهم إلى جانب كتاب الفراء الذي عليه معول كثير من أعاريب القرآن، بل يرى بعض الدارسين أن ماسكت الفراء عنه في معاني القرآن من إعراب أو نحوه سكت عنه من جاء بعده ممن نهجوا نهجه في إعراب القرآن. والواضح أن معاني القرآن للزجاج هو معتمد الشوكاني في كثير من جوانب اللغة لما عُرف عن الزجاج من سلفيته وتجنبه الخوض في مسائل عقدية بما يخالف معتقد السلف، مع إمامية الزجاج في اللغة ، والشوكاني يأخذ عنه وعن غيره مسائل اللغة على تنوعها، لكن ماأخذه عن الزجاج من ذلك شمل شيئاً من القضايا البلاغية، وقد نصّ الشوكاني على بعض كلام الزجاج ومن ذلك قوله في

(٣٩) فتح القدير ٢٨٧/١ والكشاف ٣٧٢/١ .

التشبيه عند قوله تعالى: ﴿ فلما رآها تهتز كأنها جان ﴾ (٤٠): « قال الزجاج : صارت العصا تتحرك كما يتحرك الجان ، وهي الحية البيضاء ، وإنما شبهها بالجان في خفة حركتها ، وشبهها في موضع آخر بالثعبان لعظمها » (٤١) .
وفي المجاز يقول عند قوله تعالى : ﴿ فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾ (٤٢) : « قال الزجاج : الجدار لا يريد إرادة حقيقية ، إلا أن هيئة السقوط قد ظهرت فيه كما تظهر أفعال المرادين القاصدين فوصف بالإرادة ومنه قول الراعي :

في مهمه فُلقت به هاماتها فلقَ الفؤوس إذا أردن نُصولاً (٤٣)
وينقل عن الزجاج في المجاز المرسل عند قوله تعالى : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ (٤٤) حيث يقول : « قال الزجاج : وهو مجاز لأن اليأس من الشيء عالم بأنه لا يكون ، نظيره استعمال الرجاء في معنى الخوف ، والنسيان في الترك لتضمنهما إياهما ، ويؤيده قراءة علي وابن عباس وجماعة : أفلم يتبين ، ومن هذا قول رباح بن عدي :
ألم ييأس الأقباط أنني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً (٤٥)
أي : ألم يعلم ، وأنشد في هذا أبو عبيدة قول مالك بن عوف النضري :
أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا أنني ابن فارس زهدم (٤٦)

(٤٠) النمل ١٠ .

(٤١) فتح القدير ١٤٧/٤ والمعاني ١٠٩/٤ .

(٤٢) الكهف ٧٧ .

(٤٣) فتح القدير ٣٥٨/٣ والمعاني ٣٠٦/٣ . وقد سبق تخريج البيت ، انظر الهامش من ص ١٤٥ من هذا البحث .

(٤٤) الرعد ٢١ .

(٤٥) البيت سبق تخريجه ص ١٢١ من هذا البحث .

(٤٦) سبق تخريجه ص ١٢٠ من هذا البحث .

أي : ألم تعلموا، فمعنى الآية على هذا : أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات » (٤٧) .

ومن المجاز المركب يذكر الشوكاني ما أفاده من الزجاج عند قوله تعالى : ﴿ أَيْحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ (٤٨) إذ يقول : « مثل سبحانه الغيبة بأكل الميتة، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه. ذكر معناه الزجاج » (٤٩) .

ونلاحظ أن الشوكاني استخلص المعنى من كلام الزجاج على تباعد بين العبارتين حيث يقول الزجاج : « ويجوز مَيْتاً وتأويله أن ذكرك بسوءٍ من لم يحضر لك بمنزلة أكل لحمه وهو ميت لا يحس هو بذلك، وكذلك تقول للمغتتاب فلان يأكل لحوم الناس » (٥٠) .

ويذكر الشوكاني في الكناية قول الزجاج عند قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (٥١) . حيث يقول : « أي : متغيراً ، وليس المراد السواد الذي هو ضد البياض ، بل المراد الكناية بالسواد عن الانكسار والتغير بما يحصل من الغم ، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسودَّ وجهه غماً وحرزناً قاله الزجاج » (٥٢) .

وكلام الزجاج حول الآية يتضمن معنى كلام الشوكاني حيث يقول : « يقال لكل من لقي مكروهاً : قد اسودَّ وجهه غماً وحرزناً ، ومن ذلك قولك سودَّت وجهه فلان » (٥٣) .

(٤٧) فتح القدير ٣/ ١٠٠ ، ١٠١ .

(٤٨) الحجرات ١٢ .

(٤٩) فتح القدير ٥/ ٧٧ .

(٥٠) معاني القرآن ٥/ ٣٧ .

(٥١) النحل ٥٨ .

(٥٢) فتح القدير ٣/ ٢٠٤ .

(٥٣) معاني القرآن ٣/ ٢٠٦ .

ويقول عند قوله تعالى : ﴿ ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله ﴾ (٥٤) :
 « المراد به من يلوي عنقه مرحاً وتكبراً ، ذكر معناه الزجاج ، وقال : وهذا يوصف به
 المتكبر » (٥٥) ويقول الزجاج : « جاء في التفسير أن معناه لاوياً عنقه ، وهذا يوصف
 به المتكبر ، فالمعنى ومن الناس من يجادل في الله بغير علم متكبراً » (٥٦) .

وهذه النصوص الأخيرة التي ذكرناها ، ونسبها الشوكاني للزجاج ، يظهر
 فيها تصرف الشوكاني على حسب ما وجدناه في كتاب « معاني القرآن وإعرابه »
 للزجاج ، عدا مانص الشوكاني على أنه من قول الزجاج ورأيناه مخالفاً لما في
 كتاب الزجاج ، فيحتمل أن يكون محقق كتاب الزجاج لم يطلع على النسخة التي
 أخذ عنها الشوكاني ، فالشوكاني إمام وحجة فيما ينقله ولن ينسب للزجاج شيئاً
 لم يقله ، ولذا فقد رأيناه يشير إلى معنى كلام الزجاج حين لا ينقله بنصّه ، فأما
 مانصّ على أنه من كلام الزجاج فالأغلب أنه أخذه عن نسخة لم تقع بين يدي
 محقق « المعاني » ، وليس للزجاج كتاب في معاني القرآن أو إعرابه سوى هذا
 الكتاب الذي بين أيدينا .

وقد رأينا النصوص التي أخذها الشوكاني عن الزمخشري على قدر عالٍ من
 الدقة والضبط ، ويشير الشوكاني فيها إلى مبتدئها ومنتهاها . وهذا مما يؤكد أن
 ما أخذه الشوكاني عن الزجاج مصرحاً بأنه من كلام الزجاج نفسه وليس منقولاً
 بمعناه ، فهو صحيح النسبة إلى الزجاج بلا شك ، وهنا نشير إلى فائدة جيدة
 تتصل بالتحقيق ، وهي أن كثيراً من الكتب التراثية تتناثر مضامينها في أثناء كتب
 أخرى فجدير بمن يقوم على تحقيق كتاب أن يجتهد في جمع هذه النصوص

(٥٤) الحج ٩ .

(٥٥) فتح القدير ٥١٩/٣ .

(٥٦) معاني القرآن ٤١٤/٣ .

والمضامين من الكتب ذات الصلة بموضوع الكتاب المراد تحقيقه . خاصة عند تعذر الحصول على نسخة المؤلف، أو حين يكون الاعتماد على نسخ بعيدة الصلة بعصر المؤلف، أو حينما يُجمع الكتاب من مجموعة نسخٍ مبعثرة كما هو الحال في كتاب «معاني القرآن وإعرابه» الذي بين أيدينا للزجاج .

صلة تفسير «فتح القدير» بتفسير البيضاوي: (٥٧)

لم يكن تفسير البيضاوي شيئاً مغايراً لتفسير الزمخشري أو مختلفاً عنه في جوهره، بل هو قوي الصلة بصاحبه شديد التأثير به، ولا نبالغ إذا قلنا إن تفسير البيضاوي أشبه بالتلخيص لتفسير الزمخشري ، وليس في هذا القول جدة فقد سبقنا به أهل العلم قبلنا، غير أن المتأمل للتفسيرين أعنى الكشف وتفسير البيضاوي يلمس خصوصية في أسلوب البيضاوي ، إذ يتضح ميله إلى العبارة الشاملة الموجزة، التي يقابلها في الكشف بسط أدبي يتخلله أسلوب المناقشة العلمية. ثم إن للبيضاوي اختصارات وإضافات فارق بها تفسيره لتفسير الزمخشري.

وإذا كان الشوكاني قد أخذ عن الكشف وتأثر تفسيره به تأثراً واضحاً، فإن المتأمل سيجد شيئاً من التقارب بين تفسير البيضاوي وفتح القدير، غير أن التحقيق الدقيق يأبى أن يكون لتفسير البيضاوي أثر مباشر في فتح القدير، وإن تقاربت العبارتان في موضع ما، ذلك أن الصلة التي بين التفسيرين هي صلتها

(٥٧) هو عبدالله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي قاضٍ مفسر علامة، طلب لنفسه القضاء وبقي فيه مدة ثم هُدي فتركه . أشهر تصانيفه التفسير الموسوم بأنوار التنزيل وأسرار التأويل والمنهاج (انظر طبقات الشافعية ١٥٧/٨ والبداية والنهاية ٣٠٩/١٣ ، وبغية الوعاة ٥٠/٢ وقال السيوطي صنف مختصر الكشف ولعله يريد به تفسيره المشهور).

بالكشاف، أما أن يكون «فتح القدير» قد تأثر بتفسير البيضاوي فلا، وذلك لأمر: أحدها : أن البيضاوي لم يذكر هو ولا تفسيره ضمن تفسير الشوكاني، وقد عرفنا أن الشوكاني ذكر كتباً كثيرة ومؤلفيها، على قلة مانقله عنها.

والثاني : أن المواضع التي تقاربت فيها عبارة الشوكاني وعبارة البيضاوي اشترك معهما صاحب الكشف فيها، ولا شك أنهما أخذاً عنه، ثم إن التوافق الذي بين عبارتي الشوكاني والزمخشري أكثر مما بين عبارة الشوكاني والبيضاوي.

الثالث : أن أقدمية تفسير الزمخشري على تفسير البيضاوي ، مع توسعه في القضايا البيانية، جعلت الشوكاني يعتمد على تفسير الزمخشري ، وهذا الشأن نجده عند الشوكاني في كثير من الجوانب اللغوية فهو يرجع إلى المصادر الأصلية ويأخذ منها، ولا تجده يأخذ من المراجع الوسيطة إلا نزرأ يسيراً لا يكاد يذكر، وذلك حين يكون فيها إضافة أو فائدة لا توجد في المصادر الأصلية، شأنه في ذلك شأن المحققين من أهل العلم .

وعلى هذا فإن مما لا شك فيه أن الشوكاني لم يتأثر بتفسير البيضاوي ، وإن اطلع عليه ، استغناءً بالكشاف عنه، وقد سبق أن أشرت في «التمثيل» إلى أن الشوكاني ربما أفاد من البيضاوي^(٥٨) . غير أنني بعد هذا الاستقصاء لتفسير البيضاوي وصلة فتح القدير به، أعود فأقول إن هذه الصلة التي ظننت أنها تأثر من الشوكاني بتفسير البيضاوي، إنما هي لصلتهما كليهما بالكشاف .

(٥٨) ينظر ص ١٥٨ من هذا البحث .

ثانياً : منهج الإمام الشوكاني البياني

قبل أن نتحدث عن منهج الإمام الشوكاني في تناوله لجوانب البيان في تفسيره يجدر بنا أن ننظر نظرة سريعة في عموم منهجه، فهي توطئة للحديث عن منهجه البياني.

فالشوكاني لم يكن بدعاً من المفسرين ، فقد كان هدفه الذي من أجله أُلّف هذا التفسير هو جمع أصح الأقوال وأرجح الآراء، وإيضاح المقصود من الآية القرآنية على الوجه الأكمل بما أمكنه علمه وأسعفه فهمه.

ولما كان علم التفسير هو أشرف العلوم وأفضلها ، لأنه علم يدرس كلام الله سبحانه وتعالى ويستظهر معانيه ، وصاحبه يوقع فيه عن ربه. كان مؤلفنا - رحمه الله - حرياً بأن يكون له سهم في هذا العلم الشريف ، وأن يدلي بدلوه في هذا الباب، ولا سيما أنه صاحب قدم راسخة في العلم، وهو من العلماء المجتهدين الذين يملكون آلة التفسير في جانبها الروائي والدرائي .

ولقد رسم لنفسه منهجاً في تفسيره لكتاب الله الكريم، وهذا المنهج ذو صلة قوية بمنهجه البياني ، بل هو المدخل الفعلي لفهم آرائه البيانية واختياراته ونقوله التي اعتمدها آراء له .

وسنقف معه قليلاً ليحدثنا بنفسه عن منهجه في تفسيره، وسبب دخوله أبواب هذا العلم . حيث يقول : « ولما كان هذا العلم بهذه المنزلة الشامخة الأركان، العالية البنیان، المرتفعة المكان، رغبت إلى الدخول من أبوابه، ونشطت إلى القعود في محرابه، والكون من أحزابه، ووطنت النفس على سلوك طريقة ، هي بالقبول عند الفحول حقيقة، وها أنا أوضح لك منارها، وأبين لك إيرادها وإصدارها فأقول :

إن غالب المفسرين تفرّقوا فريقين، وسلّكوا طريقين: الفريق الأول اقتصروا في تفاسيرهم على مجرد الرواية، وقنعوا برفع هذه الراية. والفريق الآخر جرّئوا أنظارهم إلى ماتقتضيه اللغة العربية، وماتفيده العلوم الآلية، ولم يرفعوا إلى الرواية رأساً، وإن جاؤوا بها لم يُصحّحوا لها أساساً، وكلا الفريقين قد أصاب، وأطال، وأطاب، وإن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب، وترك منها ما لا يتم بدونه كمال الانتصاب، فإن ماكان من التفسير ثابتاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان المصير إليه متعيناً، وتقديمه متحتماً، غير أن الذي صح عنه من ذلك إنما هو تفسير آيات قليلة بالنسبة إلى جميع القرآن، ولا يختلف في مثل ذلك من أئمة هذا الشأن اثنان. وأما ماكان منها ثابتاً عن الصحابة رضي الله عنهم، فإن كان من الألفاظ التي قد نقلها الشرع إلى معنى مغاير للمعنى اللغوي بوجه من الوجوه فهو مقدم على غيره، وإن كان من الألفاظ التي لم ينقلها الشرع فهو كواحد من أهل اللغة الموثوق بعربيّتهم. فإذا خالف المشهور المستفيض لم تقم الحجة علينا بتفسيره الذي قاله على مقتضى لغة العرب، فبالأولى تفاسير من بعدهم من التابعين وتابعيهم وسائر الأئمة. وأيضاً كثيراً ما يقتصر الصحابي ومن بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النظم القرآني باعتبار المعنى اللغوي، ومعلوم أن ذلك لا يستلزم إهمال سائر المعاني التي تفيدها اللغة العربية، ولا إهمال ما يُستفاد من العلوم التي تتبيّن بها دقائق العربية وأسرارها كعلم المعاني والبيان، فإن التفسير بذلك هو تفسير باللغة، لا تفسير بمحض الرأي المنهي عنه. وقد أخرج سعيد بن منصور في سننه، وابن المنذر والبيهقي في كتاب الرؤية، عن سفيان قال: ليس في تفسير القرآن اختلاف، إنما هو كلام جامع يُراد منه هذا وهذا. وأخرج ابن سعد في الطبقات، وأبو نُعيم في الحلية، عن أبي قلابة قال: قال أبو الدرداء: لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً. وأخرج ابن سعد أن

علياً قال لابن عباس : اذهب إليهم - يعني الخوارج - ولا تخاصمهم بالقرآن فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة ؛ فقال له : أنا أعلم بكتاب الله منهم ، فقال: صدقت، ولكن القرآن حمّال ذو وجوه. وأيضاً لا يتيسر في كل تركيب من التراكيب القرآنية تفسير ثابت عن السلف ، بل قد يخلو عن ذلك كثير من القرآن، ولا اعتبار بما لم يصح كالتفسير المنقول بإسناد ضعيف، ولا بتفسير من ليس بثقة منهم وإن صحّ إسناده إليه . وبهذا تعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين، وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين، وهذا هو المقصد الذي وطنت نفسي عليه، والمسلك الذي عزمت على سلوكه إن شاء الله مع تعرضي للترجيح بين التفسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لي وجهه، وأخذي من بيان المعنى العربي والإعرابي والبياني بأوفر نصيب، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو الصحابة أو التابعين أو تابعيهم ، أو الأئمة المعبرين « (١) .

إن من أوضح الأمور في هذا التفسير قدرة مؤلفه الفذة على تناول الآراء ومناقشتها في ضوء ما أوتي من علم وما مكن الله له من بصيرة نافذة أوصلته إلى درجة الاجتهاد ، وجعلت هذا التفسير مكان اهتمام الدارسين فهو « من خير ما أنتجته قرائح العباقرة في بيان معاني الكتاب العزيز » (٢) .

وقد عُرف عنه -رحمه الله - أنه قد خلع عن نفسه ربقة التقليد ، وحمل على أهله الذين أعماهم التعصب الأعمى ، فلا غرو أن يكون نقله عن سابقه مبنياً على علم ودراية وتدبر ، فلا يقبل إلا الرأي الجيد الذي يُظهر الحقيقة ويوافق المشهور المستفيض مما تقوم به الحجة، ناهيك عن وقوفه ضد الآراء التي تخالف ذلك، وردّه لها ، ومنافحته عن الحق ما استطاع، وإظهاره له بكل ما أوتي من علم وبيان.

(١) من مقدمة فتح القدير ١/ ١٤ ، ١٥ .

(٢) من مقدمة زبدة التفسير من فتح القدير للدكتور/ محمد سليمان الأشقر .

وعلى هذا الأساس الجليّ كان النظر في منهج الإمام الشوكاني في تناوله لجوانب البيان في تفسيره ، وقد تميز بأمور أهمها :

١ - نقله عن السابقين من المفسرين والنحاة وعلماء البيان ، على اختلاف مشاربهم ، حيث لم يكن هدفه من هذا النقل جمع الآراء ورصد كل ما قيل حول آية من كتاب الله، كما هو شأن بعض المؤلفين. بل اتخذ نقله عن سابقيه منهجاً واضحاً وهو على ثلاثة مسالك :

أولها : أن ينقل الآراء ويناقشها، ثم يعقبها برأيه ، على ما رسمه لنفسه من الأخذ بأصح الأقوال وأصوبها، فالحكمة ضالة المؤمن. فقد يتناول مجموعة من أقوال السلف من الصحابة والتابعين وبعض المفسرين حول آية من كتاب الله، ثم يعقب ذلك برأيه حول هذه الأقوال، فيوجه منها ما وافق الحق - عنده - ويرد ما ليس كذلك . ونجد مثلاً لهذا عند قوله تعالى: ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة ﴾ (٣) .

وليس رده لهذه الأقوال تعنتاً أو مكابرة، بل لأن فيها عدولاً عن الظاهر بغير دليل، ولا يقبل هذا العدول لغة وليس مستفاداً من كلام الفصحاء، فضلاً عن أن يأتي به كتاب أو سنة.

وربما التمس الشوكاني للصحابي عذراً في رأيه عند العدول عن الظاهر في الآية إذ يقول : « ولكن هؤلاء الصحابة ومن وافقهم ممن جاء بعدهم استبعدوا تمثيل نور الله سبحانه بنور المصباح في المشكاة » (٤) وربما سكّت عن رأي في موضع ورد عليه في آخر (٥) .

(٣) النور ٣٥ وفتح القدير ٤٢/٤ .

(٤) فتح القدير ٤٣/٤ .

(٥) فتح القدير ١٧١/١ و ٦٠٥/٤ .

وثانيها : أن ينقل رأياً أو آراء متعددة، فيضيف إليها من عنده ما يكسبها صبغة جديدة ، وقد ينقل كلاماً ثم يبني عليه رأياً بلاغياً، فحين ينقل عن ابن الأعرابي أن كلمة «صنو» هي « المثل » ، يبني على ذلك تشبيهاً في الآية (٦) .

وثالثها : إيرادها للأقوال وسكوته عليها فلا يضيف إليها شيئاً، ولا يعقبها برده أو مناقشة، وهذا حاصل عند قناعته بالرأي وتبنيّه له، وغالباً ما يكون ذلك عند نقله عن أحد الثقات، الذين يثق بهم في العربية كالزجاج والمبرد والزمخشري فقد نص على أن كلاماً من الزجاج والمبرد إمام في العربية وإليهما المرجع فيها . ولذا فقد يعتمد كثيراً على آراء الزجاج نحوية كانت أو بيانية .

أما جارا لله الزمخشري ، فقد كان ينقل عنه وكثر ذلك النقل شأنه شأن علماء البيان الذين أخذ عنهم الشوكاني، إذا علمنا أنه وقف كثيراً عند آراء الزمخشري التي يظهر فيها مذهبه الاعتزالي، أو يفهم منها شيء من التأويل والتعطيل في الصفات .

وقد كان الشوكاني حريصاً على الدقة فيما ينقله عن سابقيه، فهو يعزو كل قول إلى قائله، في أكثر نقوله، وقلماً نجده ينقل قولاً دون أن يذكر قائله، وربما نقل عن مؤلف ما فيذكر اسم كتابه كالكشف ، وقد ينقل قولاً مصدراً بكلمة « قيل » وهذا كثير عن الزمخشري .

٢ - اتسمت أقواله البيانية - التي لم ينقلها عن أحدٍ وإنما اجتهد فيها - بالإيجاز في كثير من المواضع، فقد كان يشير إشارة سريعة إلى الصورة البيانية أو بعض أجزائها ، وقد يتوسط فلا يطيل الحديث ولا يوجز ، ولم يبسط الحديث ويوسعه إلا قليلاً، ولكنه حين يبسط الحديث نجد روح الأديب في تفصيلاته وإيضاحاته لدقائق الموضوع، وشموله لكافة جوانبه .

(٦) انظر فتح القدير ٧٩/٣ .

ونرى هذه الإطالة وما تميزت به من صبغة أدبية رفيعة ، وقدرة على التحليل الفني ، عند التشبيه المركب في سورة يونس (٧) .

وهذا التطويل - الذي نجده يميل إلى الشرح الأدبي أكثر من التحليلات البلاغية - لا يخلو من إيضاح لبعض جوانب التشبيه المركب ، غير أنه لم يُسهب في بيان متعلقات التشبيه، كما عُرف عن البيانين . لذلك فهو حين يتناول آية مماثلة لآية يونس كالتّي في الكهف أو الحديد، نراه يكتفي بالإشارة إلى وجه الشبه في إيجاز ، ثم يُحيل إلى موضع الآية في سورة يونس .

أما الإيجاز الذي ذكرناه ، فهو لما علّم من عنايته بكافة متعلقات الآية من معانٍ وأحكام واحتمالات ، هدفها الأول بيان المراد من الآية الكريمة. وأما الغرض البلاغي أو الوجه البياني فهو لا يذكره لذاته، أو لإحصاء الوجوه البيانية ، أو ماتحتمله الآية من ذلك - كما نجد عند الزمخشري أو أصحاب الحواشي مثلاً - بل كان يشير إلى ما في الآية من فنٍ بياني بهدف تقريب المعنى وإيضاحه ، ولذلك نجده يتجاوز كثيراً من مواضع التشبيهات والمجازات (٨) وغيرها، لأن في الآية ما هو أهم من التفصيل في الجانب البياني .

ومن مظاهر طلبه للإيجاز ، عدم اهتمامه بالتعريفات ، إذ لم يُعرّف شيئاً من الفنون البيانية، عدا المثل والتعريض، فأما المثل فقد عرّفه في أكثر من موضع على ما عُرف عند البلاغيين من استعماله حقيقة ومجازاً.

ومن ذلك أيضاً أنه قد يكتفي بذكر شيء يسير من متعلقات التشبيه كوجه الشبه مثلاً، أو الأداة، ونحو ذلك. ومنه أنه قد يسمي الاستعارة مجازاً، وقد يذكر العلاقة أو يكتفي بذكر المانع من حمل الكلام على حقيقته، وربما لا يذكر شيئاً من ذلك سوى أن ينفي عن المقصود أن يكون من الحقيقة، ثم يتحدث موجزاً بما يفهم

(٧) انظر فتح القدير ٤/٤٢ و ص ٤٢ وما بعدها من هذا البحث .

(٨) انظر مثلاً فتح القدير ٤/٦١٧ و ٥/٣٤٦ ، ٥/٣٥٣ .

الاستعارة أو المجاز المرسل . فلم نجده يذكر أقسام الاستعارة إلا في مواضع يسيرة في حين أنه تناول الاستعارة بأنواعها فأكثر وتوسّع من غير تحديد ولا تقسيم.

٣ - أفاد الشوكاني من التحليلات البيانية وما تبرزه صورها من أمور قد تخفى مثل تصوير المعقول في صورة المحسوس ، وتقريب البعيد من الأمور التشريعية إلى الذهن، فقد يوضح مسألة فقهية أو قضية عقدية مستفيداً من الصورة البيانية، وهنا يبرز دور البلاغة وعلومها وأسرارها في تفسير القرآن وإيضاح الآيات بما تحمله من وجوه، فالقرآن الكريم حمّال وذو وجوه، والمفسر القدير هو الذي يبرز خفايا المعاني القرآنية خاصة إذا توقف المعنى على العربية وأسرارها ولم يثبت في الآية نصٌ شرعيّ يقصر معناها على وجه معين أو يحدد الغرض منها .

ونرى فصل الخطاب عند الشوكاني في مسألة عقدية استعان فيها بالأسلوب الكنائي، ليخرج من المسألة بحسم قضيتين أولاهما تتعلق بالصفات والأخرى تتعلق بحروف الزيادة في القرآن الكريم وذلك عند قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ (٩) .

وقد يفيد الشوكاني من تعدد القراءات في الآية الكريمة الواحدة، فيبين الصورة البيانية المحتملة عند القراءة بوجه ما .

وفي المقابل نجده يستبعد رأياً بلاغياً أو ينفي حمل الآية على التمثيل أو نحوه ، وذلك لكونه مخالفاً للصحيح الذي ثبت عنده فيما يرويه من حديث، فقد يستعرض الآراء البيانية ولا يعقبها بشيء إلا في قسم الرواية فيقول: « وفي الباب

(٩) الشورى ١١ ، وانظر فتح القدير ٦٠٥/٤ .

أحاديث، وآثار تقتضي حمل الآية على ظاهرها من دون تكلف لتأويل ، ولا تعسف لقال وقيل» (١٠) .

ويرجح المسألة أحياناً بناءً على ماصح فيها من حديث ، كاعتماده في تعريف الإيمان تعريفاً شرعياً على ما ثبت في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

٤ - ورد عند الشوكاني في مواضع مختلفة من تفسيره استعمال المصطلحات البيانية بمعانيها اللغوية وهذا مثل تسميته لبعض صور التشبيه المركب تمثيلاً، دون أن يقيد كلمة «تمثيل» بما يميزه عن الاستعارة التمثيلية، إذ من المعروف أن التمثيل إذا أطلق قصد به الاستعارة التمثيلية، كما يسميه أيضاً مثلاً، وقد رأينا نظير هذا الاستعمال عند عبدالقاهر في الأسرار إذ يطلق المثل والتمثيل على بعض صور التشبيه التمثيلي .

ومن ذلك أيضاً استعماله لمصطلح «الكناية» للدلالة على الضمير المتصل، ومن المعلوم أن هذا الاستعمال لكلمة «كناية» نادرٌ حتى عند النحاة أنفسهم (١١) .

وإذا كان الشوكاني قد استعمل بعض المصطلحات على معانيها اللغوية مع استعماله لها على دلالتها الاصطلاحية البيانية، فليس في هذا دليل على ارتجال هذه الاستعمالات خاصة وأنه قد اطلع على ما كتبه المحققون كالسعد والشريف وقبلهما الخطيب ، حيث قرأ على بعض شيوخه شرح التلخيص للسعد وحاشيته للغيّاث ، والمطول للسعد وحاشيته للشلبي والشريف ، كما قرأ الكشف وحاشيته للشريف ، وبعد انقطاعها حاشيته للسراج (١٢) ، وقد أورد الشوكاني أنه كتب رسالة سماها «الطود المنيف في ترجيح مقاله السعد على مقاله الشريف» وهي حول الخلاف في مسألة بيانية عند قوله تعالى: ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ .

(١٠) فتح القدير ٥٤٦/٤ .

(١١) انظر فتح القدير ٤١٤/٤ .

(١٢) البدر الطالع ٢١٦/٢ ، ٢١٧ .

وفيها دليل بيّن على سعة اطلاعه وإلمامه بما دونه السلف في كتب البلاغة ، ولا أحسب أن من تصدّى للفصل في مسألة بلاغية بين علمين من أعلام البلاغة، تفوته هذه النواحي اليسيرة من أبواب المعرفة، ولكننا نحمل هذا على ما عُرِف عند علمائنا من تسامح في بعض المصطلحات، وخاصة أننا وجدنا نظيره عند كبار علماء البلاغة كالشيخ عبدالقاهر والعلامة الزمخشري والخطيب القزويني .

٥ - وقد عني الشوكاني عناية خاصة بالأمثال القرآنية، ووقف عندها كثيراً ليطيل فيها الحديث - على خلاف ما عهدنا عنده من ميل للإيجاز - ، فقد عرّف الأمثال في مواضع عدة وبين أقسامها، وذكر قيمة الأمثال ، وأثنى على تنوع أساليب القرآن الكريم في عرضه لها .

ويقف الشوكاني متأملاً للمثل مبدئاً إعجابه واستحسانه لما فيه من بلاغة ويبين دور الأمثال القرآنية في كشف أستار المحجبات وتصوير الأمور المعقولة في صورة المحسوس لتقريبه من الأذهان، وهذه العناية شملت التشبيهات المركبة والاستعارات التمثيلية لاستعماله مصطلح «المثل» عند الحديث عنهما في كثير من الآيات .

٦ - ومن الأساليب التي تميز بها تناول الشوكاني لوجوه البيان في تفسيره، الموازنة بين بعض صور البيان في الآيات الكريمة وتحليل وإيضاح الفوارق بين تلك الصور التي يُظن أنها متشابهة، وقد تكون الموازنة بين نوعين مختلفين من أقسام البيان لتوافق بينهما في المعنى أو لتشابه في الغرض الذي أوردنا من أجله فلا تخلو تلك المقارنة من عبارة شريفة أو إشارة لطيفة مما تميز به أسلوب مؤلفنا - رحمه الله - من رهافة حسٍ وسموّ في الذوق، قلّما تجدهما عند عالم نهض لتفسير كتاب الله وبيانه .

وقد تكون موازنته بين أسلوب مجازي وآخر حقيقي فتراه يفضل المجازي لما

له من أثر قوي في المعنى ومنه عند قوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماء ك﴾ (١٣) حيث استبعد ما ذكره بعض المفسرين من أن البلع هو الشرب بلغة الهند، فيفضل حملها على معناها اللغوي العربي لتكون أصح للاستعارة، وتؤدي المعنى المؤثر، ثم يتبع ذلك بثناء وإطراء بالغين في حق الآية الكريمة حيث يقول: «وقد أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة والبلاغة إلى محل يتقاصر عنه الوصف، وتضعف عن الإتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة، الثابتين الأقدام في علم البيان، الراسخين في علم اللغة، المطلعين على ماهو مدون من خطب مصاقع خطباء العرب، وأشعار بواقع شعرائهم، المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها. وقد تعرض لبيان بعض ما اشتملت عليه من ذلك جماعة منهم فأطالوا وأطابوا، رحمنا الله وإياهم برحمته الواسعة» (١٤).

٧ - ويورد الشوكاني العديد من الشواهد الشعرية على ضروب البيان وصوره المختلفة وقد استكثر من الاستشهاد بالشعر، فعند آية واحدة يستشهد بسبعة أبيات اشتملت جميعها على صور بيانية متشابهة، أراد بها تقريب المراد من التشبيه في الآية، وذلك عند قوله تعالى: ﴿مثل نوره كمشكاة﴾ (١٥).

وقد يتناول بعض هذه الشواهد بشيء من الشرح والتوضيح، فتارة يوضح مراد البيت، وأخرى يوضح مفرداته، وثالثة يتعرض لأجزاء الصورة البيانية فيه. ولكن قد نجد بعض شواهد أقرب إلى أن تكون من باب الاستئناس، أو التمثيل ببعض معنى البيت، وإنما يوردها لتقارب معانيها مع ما يستشهد له.

والملاحظ أن الشوكاني - على مكانته وطول باعه في علوم البلاغة - قد يخالف البيانين في مسألة هم عليها مجمعون، إذ نراه يعتبر التجريد أبلغ من

(١٣) هود ٤٤ .

(١٤) فتح القدير ٥٦٨/٢ .

(١٥) النور ٣٥ .

الترشيح، ولعل له ما يبرر رأيه في ذلك الموضع فقد بين سبب تفضيله للتجريد هناك^(١٦).

وربما استنبط الشوكاني من آية صورة بيانية للبيانين فيها رأي غير الذي استنبطه، فقد جعل قوله تعالى: ﴿صَبْغَةَ اللَّهِ﴾^(١٧) من الاستعارة، وهي عند البيانين من المشاكلة.

ومما يلاحظ أيضاً، أنه قد يورد في موضع ما يفهم منه مناقضته لما أورده في موضع آخر، فقد منع الجمع بين الحقيقة والمجاز في موضع وأجازه في آخر، وهذا منه أخذ برأي فريقين من العلماء، أحدهما يجيز الجمع بين الحقيقة والمجاز والآخر يمنعه.

وربما أورد رأيين في موضع واحد يبدو عليهما التناقض، لكنه لا يغادر ذلك الموضع حتى يعالجه بترجيح أحدهما أو بدفع التناقض، وقلماً يغادر شيئاً من هذا دون الفصل فيه.

وإذا كان البيانين لم يُشر أحد منهم إلى ذكر وجه الشبه في القرآن مجروراً بفي أو منصوباً على التمييز، فإن الشوكاني يذكر عند بعض الآيات أن فيها إيماءً إلى وجه الشبه، وقد يفسر بعض أجزاء الآية بأنه وجه الشبه بعينه^(١٨).

هذا هو الشوكاني البياني، وهذه هي أبرز صفات منهجه، لقد كان في تناوله البياني لكتاب الله عالماً أديباً ناقداً، يطاول بعلمه وبلاغته كبار علماء البلاغة، ويجاريهم مع فضل منزلته بعلمه الشرعي واجتهاده في ذلك.

وإن إبداء الملاحظات على منهج عالم مثل عالمنا، لا ينقص من مقدار علمه ولا يبخل منزلته، أو يغمط فضله، فإن الماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث.

(١٦) انظر ص ١٥٣ من هذا البحث.

(١٧) البقرة ١٣٨.

(١٨) انظر فتح القدير ١١٨/١، ٣٠٢/٢، ٥٥٢.

الخاتمة

الخاتمة

الحمد لله الذي أكمل لنا ديننا وأتم علينا نعمه ورضى لنا الإسلام ديناً ،
والصلاة والسلام على نبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فليس من اليسير في البلاغة القرآنية أن يمدَّ الباحث باعه فيها بما خلُص إليه ذوقه ، ورمى إليه تفكيره ، دون أن يحدد ذلك بقيود الشارع ، فلا بد لمن يتناول الآيات القرآنية أن يكون على قدر عالٍ من العلم بخصائص الشريعة ، وقد كان غالب الذين تناولوا البلاغة القرآنية - إن لم يكن جميعهم - ممن لهم صلة بالعلم الشرعي ، أما عموم الدارسين للبلاغة قديماً فإن لهم باعاً في علومٍ أخرى كالأصول والنحو وغيرهما ، وهذا غالب لدى شُرَّاح التلخيص وأصحاب حواشي الكشف وحواشي البيضاوي .

والشوكاني يتميز عرضه للبلاغة القرآنية - على ما رأيناه في تناوله لعلم البيان - بالحرص على خصائص التعبير في كتاب الله ، بما توحىه قدسية العلم الشرعي . ولقد درس الشوكاني المنطق وعلم الكلام وألم بهما ، وهو لغوي متبحر ، ومن جهابذة الأصوليين ، ومع ذلك فإنك لاتجد أثر المنطق أو علم الكلام في تفسيره عموماً أو في تناوله البياني على وجه الخصوص . فالطابع الذوقي العربي يتقلب بحيويته في صفحات تفسيره ، وفي مواضع عرضه للمسائل البيانية ، وفي هذا دليل على استقامة البحث البلاغي وعمقه وسعته دون الحاجة إلى المقاييس المنطقية أو القوانين الكلامية .

لقد كان الفكر العربي منذ العصور الإسلامية الأولى ينمو في مراحل داخل بيئة العلوم الإسلامية التي اتسع نتاجها من مصدري التشريع الإسلامي ، القرآن الكريم والسنة النبوية ، وبه تأثرت خطب الخطباء وكتابات الأدباء ، وقصائد

الشعراء، إذ لابد من مصاحبة الذوق العربي الإسلامي داخل هذه البيئة لنمو التفكير، وتصبح المقاييس والأصول الذوقية - إن صحت النسبة - قاعدة ينطلق منها هؤلاء المبدعون لكونهم يطلبون ما في نفوس أفراد المجتمع الذي يعيشون فيه، وهذه الأصول والمقاييس عربية بحتة، عمادها البيئة العربية الخصبة التي لم يكن للبلاغة أصلح منها .

إن القواعد والأصول التي تبين بها البلاغة وتحلل وتستخلص ، أمر فرضه البحث العلمي في مصادر التشريع الإسلامي، والحاجة إلى هذه القواعد كالحاجة إلى أي علم آخر ذي صلة بالعلوم الإسلامية، بل إن المتأمل يلمس نزوع كثير من القواعد البلاغية إلى المباحث التشريعية واللغوية منذ القرن الأول. ولذا فقد كانت نشأة علوم البلاغة متناثرة بين دواوين الإسلام.

ولا ينكر منصف أن البلاغة قد تأثرت - ولو بشيء يسير - بالمنطق، خاصة بعد القرن الرابع ، فكثرت فيها التعريفات والتقسيمات التي لاتخدم الذوق الذي تأسست القواعد البلاغية في مداره .

ونخلص إلى القول بأن الدارس للبلاغة القرآنية يجد مندوحة عن المناهج الدخيلة على البلاغة . واستخلاص القواعد والضوابط من هذه الدراسة كفيل ببناء منهج سليم رفيع القدر عظيم المنفعة.

ولقد قدم المفسرون الذين عُنوا بالبلاغة القرآنية خدمة جليلة للبلاغة عموماً ذلك أنهم بينوا مزايا كتاب الله أو بعضها، بما يؤكد وجود تصور خاص لبحوث واسعة فيما بين أيدينا دون حاجتنا لفكر أجنبي أو منهج غريب .

وهنا أضيف إلى ماسبق نتائج أخرى توصلت إليها في هذا البحث أهمها :

١ - أن البلاغة هي أظهر وجوه الإعجاز في كتاب الله الكريم، ولا سبيل لإغفال دور الدراسات البلاغية في إبراز ملامح هذا الإعجاز أو بعضها .

٢ - أن المسائل البيانية التي اشتملت عليها الآيات الكريمة في كتاب الله، ليست هي الهدف الذي سيقَّت له، بل هي سبيل إلى أداء المعنى وإبلاغه على الوجه

الإعجازي الذي تميز به كتاب الله، وعلى هذا فإن البلاغة ليست ضرباً من الترف القولي وزخرفة الكلام، بل هي أداة ضرورية للإفصاح عن معانٍ لاسبيل إليها إلا بها.

٣ - أن كثيراً من المصطلحات البيانية في كتب التفسير وغيرها، ماتزال في حاجة إلى دراستها وبيان صلتها بالبحث البلاغي، وعقد الموازنة بين أثر كتب البيان وكتب التفسير فيها، مع تحديد دلالتها اللغوية والاصطلاحية، ودراسة آراء العلماء في ذلك، ودور كتب التفسير في خدمة البحث البلاغي.

٤ - أن أمثال القرآن الكريم ذات صلة وثيقة بإعجازه، وقد درست ضمن مباحث علم البيان ولا غضاضة في ذلك، إلا أنها لعظم شأنها وكونها منهلاً من مناهل العلم ماتزال في حاجة إلى بحث وعناية، وقد عدّها الشافعي علماً يجب على المجتهد معرفته^(١).

والحمد لله أولاً وآخراً.

(١) انظر حاشية مقدمة التفسير ص ٩٧.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- ١ - أبجد العلوم : صديق حسن خان القنوجي .
دار الكتب العلمية - بدون .
- ٢ - أدب الطلب ومنتهى الأرب : محمد بن علي الشوكاني - دراسة وتحقيق
محمد عثمان الخشت .
مكتبة القرآن - القاهرة - بدون .
- ٣ - أدب الكاتب : عبدالله بن مسلم بن قتيبة - حققه وعلّق عليه ووضع فهارسه
محمد الدالي .
مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ / ١٩٨٢ م.
- ٤ - أساس البلاغة : العلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشري - تحقيق
عبدالرحيم محمود .
دار المعرفة - بيروت - بدون - ١٤٠٢ هـ.
- ٥ - أسرار البلاغة : عبدالقاهر الجرجاني - قرأه وعلّق عليه أبوفهر محمود محمد
شاكر
دار المدني - جدة - ط ١ / ١٤١٢ هـ.
- ٦ - الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة : محمد بن علي الجرجاني - تحقيق
الدكتور عبدالقادر حسين .
دار نهضة مصر - القاهرة - ١٩٨١ م.
- ٧ - الأغاني : أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني - التحقيق بإشراف محمد
أبوالفضل إبراهيم .
دار إحياء التراث العربي - بدون - ١٣٨٩ هـ .

- ٨ - الأمالي : أبو علي إسماعيل القالي .
دار الكتاب العربي - بيروت - بدون .
- ٩ - الإمام الشوكاني مفسراً : الدكتور محمد حسن الغماري .
دار الشروق - جدة - ط ١ / ١٩٨١ م.
- ١٠ - إنباه الرواة على أنباه النحاة : على بن يوسف القفطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
دار الفكر العربي - القاهرة - ط ١/١٤٠٦ هـ .
- ١١ - الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني - شرح وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي .
دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط ٥/١٤٠٣ هـ .
- ١٢ - البداية والنهاية : أبو الفداء ابن كثير .
مكتبة المعارف - بيروت - ١٤١٠ هـ .
- ١٣ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع : محمد بن علي الشوكاني .
دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - بدون .
- ١٤ - البرهان في علوم القرآن : بدر الدين الزركشي - تحقيق الدكتور يوسف محمد المرعشلي وغيره .
دار المعرفة - بيروت - ط ١/١٤١٠ هـ .
- ١٥ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : مجد الدين الفيروز ابادي .
المكتبة العلمية - بيروت - بدون .
- ١٦ - بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح : عبد المتعال الصعيدي .
مكتبة إحياء الكتب الإسلامية - بيروت - بدون .
- ١٧ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : جلال الدين السيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
المكتبة العصرية ، بيروت - بدون .

- ١٨ - التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول : صديق بن حسن القنوجي .
مكتبة دار السلام - الرياض - ط ١/١٤١٦ هـ .
- ١٩ - التحف في مذاهب السلف : محمد بن علي الشوكاني .
دار الكتب العلمية - بيروت - ١٣٨٤ هـ .
- ٢٠ - تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل : القاضي ناصر الدين البيضاوي .
دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١/١٤٠٨ هـ .
- ٢١ - التفسير والمفسرون : الدكتور محمد حسين الذهبي .
بدون - ط ١/١٣٩٦ هـ .
- ٢٢ - تفسير القرآن العظيم : أبو الفداء ابن كثير .
دار المعرفة - بيروت - ط ٣/١٤٠٩ هـ .
- ٢٣ - الجامع لأحكام القرآن : محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي .
دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٣ هـ .
- ٢٤ - جمهرة أشعار العرب : أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي - شرحه وضبطه وقدم له الأستاذ علي فاعور .
دار الكتب العلمية - بيروت - ط ٢/١٤١٢ هـ .
- ٢٥ - الجنى الداني في حروف المعاني : الحسن بن قاسم المرادي - تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة والأستاذ/ محمد نديم فاضل .
دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١/١٤١٣ هـ .
- ٢٦ - حاشية ابن المنير على الكشف : ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الاسكندري .
مكتبة مصطفى البابي الحلبي - مصر - ١٣٩٢ هـ .

٢٧ - حاشية الدسوقي على شرح السعد «ضمن شروح التلخيص» : محمد الدسوقي .

مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - بدون .

٢٨ - حاشية السيد الشريف على الكشف: علي بن محمد الحسيني الجرجاني.

مكتبة مصطفى البابي الحلبي - مصر - ١٣٩٢هـ .

٢٩ - حاشية السيد الشريف على المطول : علي بن محمد الحسيني الجرجاني.

تركيا - ١٣١٠هـ .

٣٠ - حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي : أحمد بن محمد بن عمر الملقب

بشهاب الدين الخفاجي .

دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون .

٣١ - حاشية الكازروني على تفسير البيضاوي : أبو الفضل القرشي المشهور

بالكازروني .

دار صادر - بيروت - بدون .

٣٢ - حاشية مقدمة التفسير : عبدالرحمن بن محمد بن قاسم النجدي .

بدون - ط / ١٤١٠هـ .

٣٣ - خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب : عبدالقادر بن عمر البغدادي - تحقيق

وشرح عبدالسلام هارون .

مكتبة الخانجي - القاهرة - ط ١٩٨٩م .

٣٤ - دلائل الإعجاز : عبدالقاهر الجرجاني - قرأه وعلق عليه أبوفهر محمود

محمد شاكر .

مكتبة الخانجي - القاهرة - ط ١٤١٠هـ .

٣٥ - ديوان إسحاق الموصلي - تحقيق ماجد أحمد العربي .

مطبعة الإيمان - بغداد - ط ١٩٧٠م .

- ٣٦ - ديوان ابن خفاجة - دار صادر - بيروت - بدون ١٣٨١هـ .
- ٣٧ - ديوان أبي تمام - شرح وتعليق الدكتور عطية شاهين .
دار الصعب - بيروت - بدون .
- ٣٨ - ديوان أبي العتاهية - تحقيق شكري فيصل .
مطبعة جامعة دمشق - بدون .
- ٣٩ - ديوان الأعشى : شرح وتعليق محمد محمد حسين .
مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١٩٨٣/٧ م .
- ٤٠ - ديوان امرئ القيس - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
دار المعارف - مصر - بدون .
- ٤١ - ديوان البحري - شرحه الدكتور يوسف الشيخ محمد .
دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ / ١٤٠٧ هـ .
- ٤٢ - ديوان بشار بن برد - نشر وتقديم محمد الطاهر بن عاشور .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٠ م .
- ٤٣ - ديوان ذي الرمة - شرح أحمد بن حاتم الباهلي - برواية أبي العباس ثعلب
- تحقيق عبدالقدوس أبي صالح .
مؤسسة الإيمان - بيروت - ط ١ / ١٩٨٢ م .
- ٤٤ - ديوان الراعي النميري - جمعه وحققه راينهت فاييرت - نشر فرانكس
شتايز بفيسبادن - بيروت - ط ١ / ١٩٨٠ م .
- ٤٥ - ديوان الشماخ بن ضرار - تحقيق صلاح الدين الهادي .
دار المعارف - مصر - ط ١ / ١٩٦٨ م .
- ٤٦ - ديوان طفيل الغنوي - تحقيق محمد عبدالقادر أحمد .
دار الكتاب الجديد - بيروت - ط ١ / ١٩٦٨ م .
- ٤٧ - ديوان عنتره - شرح التبريزي - قدم له مجيد طراد .
دار الكتاب العربي - بيروت - ط ١ / ١٤١٢ هـ .

- ٤٨ - ديوان قيس بن الخطيم - تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد .
دار صادر - بيروت - ط ١٩٦٧/٢ م .
- ٤٩ - ديوان قيس بن الملوح - جمع وتحقيق عبدالستار أحمد فراج .
مكتبة مصر - القاهرة - بدون .
- ٥٠ - ديوان لبید بن ربیعۃ - تحقيق إحسان عباس .
نشر وزارة الإعلام في الكويت - ط ١٩٨٤/٢ م ، وطبعة دار
صادر - بيروت - بدون .
- ٤١ - ديوان النابغة الجعدي - شرح الطوسي - تحقيق حنا الحتي .
دار الكتاب العربي - بيروت - ط ١٤١٤/١ هـ .
- ٥٢ - ديوان النابغة الذبياني - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
دار المعارف - مصر - ١٩٧٧ م .
- ٥٣ - سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون - جمال الدين بن نباتة المصري -
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
المكتبة العصرية - بيروت - بدون - ١٤٠٦ هـ .
- ٥٤ - سمط اللآلئ : أبو عبيد البكري - حقق ما فيه عبدالعزيز الميمني .
دار الكتب العلمية - بيروت - بدون .
- ٥٥ - السيرة النبوية : أبو محمد عبد الملك بن هشام - تحقيق أ.د. عمر عبدالسلام
تدمري .
دار الكتاب العربي - بيروت - ط ١٤١٠/٢ هـ .
- ٥٦ - شذرات الذهب : ابن العماد الحنبلي - تحقيق محمود الأرناؤوط .
دار ابن كثير - دمشق - ط ١٤١٢/١ هـ .
- ٥٧ - شرح أشعار الهذليين - صنعة أبي سعيد الحسن السكري - حققه
عبدالستار فراج - راجعه محمود شاکر .
مكتبة دار العروبة - القاهرة - بدون .

- ٥٨ - شرح ديوان الحماسة : الخطيب التبريزي .
عالم الكتب - بيروت - بدون .
- ٥٩ - شرح صحيح مسلم : الإمام محيي الدين النووي - راجعه الشيخ خليل الميس .
دار القلم - بيروت - بدون .
- ٦٠ - شرح العقيدة الطحاوية : القاضي علي بن أبي العز - تحقيق بشير عيون .
مكتبة المؤيد - الطائف - ط ١/١٤٠٥ هـ .
- ٦١ - شرح المعلقات السبع : القاضي حسين بن أحمد الزوزني - تحقيق يوسف علي بديوي .
دار ابن كثير - دمشق - ط ١/١٤١٠ هـ .
- ٦٢ - شرح المفصل : موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش .
مكتبة المتنبي - القاهرة - بدون .
- ٦٣ - طبقات الشافعية الكبرى : تاج الدين السبكي - تحقيق عبدالفتاح الحلو ومحمود الطناحي .
دار إحياء الكتب العربية - بيروت - بدون .
- ٦٤ - طبقات الشعراء : عبدالله بن المعتز - تحقيق عبدالستار أحمد فراج .
دار المعارف - مصر - ط ٢ - بدون .
- ٦٥ - طبقات النحويين واللغويين : محمد بن حسن الزبيدي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
دار المعارف - القاهرة - ط ٢/١٣٩٢ هـ .
- ٦٦ - عروس الأفراح : بهاء الدين أحمد بن علي السبكي «ضمن شروح التلخيص» .
مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - بدون .

- ٦٧ - العقد الفريد : أحمد بن محمد بن عبدربه - تحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة .
دار الكتب العلمية - بيروت - بدون .
- ٦٨ - فتاوي العقيدة : محمد بن صالح العثيمين .
مكتبة السنة - القاهرة - ط ١ / ١٤١٣ هـ .
- ٦٩ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير : محمد بن علي الشوكاني .
دار ابن كثير - دمشق - ط ١ / ١٤١٤ هـ .
- ٧٠ - القاموس المحيط : مجد الدين الفيروزآبادي .
دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط ١ / ١٤١٢ هـ .
- ٧١ - الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : جارالله محمود بن عمر الزمخشري .
مكتبة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٩٢ هـ .
- ٧٢ - لسان العرب : جمال الدين بن منظور .
دار صادر - بيروت ، بدون .
- ٧٣ - المجاز في اللغة والقرآن الكريم : الدكتور عبدالعظيم المطعني .
مكتبة وهبة - القاهرة - ط ١٤٠٥ هـ .
- ٧٤ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : أحمد بن حجر الهيتمي .
دار الكتاب العربي - بيروت - ط ٣ / ١٤٠٢ هـ .
- ٧٥ - مختصر صحيح البخاري : أحمد بن عبداللطيف الزبيدي - تحقيق إبراهيم بركة .
دار النفائس - بيروت - ط ٣ / ١٤٠٩ هـ .
- ٧٦ - مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم : اختصره محمد بن الموصلي .
دار الكتب العلمية - بيروت - بدون .

- ٧٧ - المطول على التلخيص : سعد الدين التفتازاني .
تركيا - ١٣١٠هـ .
- ٧٨ - معاني القرآن الكريم وإعرابه : إبراهيم بن السرى الزجاج - تحقيق
عبدالجليل شلبي .
عالم الكتب - بيروت - ط ١/٨٤٠هـ .
- ٧٩ - معجم الأدباء : ياقوت بن عبدالله الحموي .
دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١/١٤١١هـ .
- ٨٠ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبدالباقي .
المكتبة الإسلامية - اسطنبول - بدون .
- ٨١ - معجم مقاييس اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا - تحقيق
عبدالسلام محمد هارون .
دار الجيل - بيروت - ط ١/١٤١١هـ .
- ٨٢ - مفتاح العلوم : أبويعقوب يوسف السكاكي .
المكتبة العلمية - بيروت - بدون .
- ٨٣ - المفردات في غريب القرآن : الحسين بن محمد المعروف بالراغب
الأصفهاني - تحقيق محمد سيد كيلاني .
دار المعرفة - بيروت - بدون .
- ٨٤ - منهج الإمام الشوكاني في العقيدة : عبدالله نومسوك .
مكتبة دار القلم والكتاب - الرياض - ط ١/١٤١٤هـ .
- ٨٥ - مواهب الفتاح : أحمد بن محمد بن يعقوب المغربي «ضمن شروح
التلخيص» .
مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - بدون .
- ٨٦ - نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار : محمد بن علي الشوكاني .
دار المعرفة - بيروت - بدون .
- ٨٧ - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر : أبو منصور عبدالملك الثعالبي -
تحقيق وشرح الدكتور مفيد محمد قميحة .
دار الكتب العلمية - بيروت - ط ٢/١٤٠٣هـ .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	١
التعريف بالإمام الشوكاني	٨
اسمه ونسبه	٨
مولده ونشأته	٨
حياته العلمية	٩
عقيدته ومذهبه الفقهي	١٧
وفاته	١٨
كتب ورسائل عنيت به	١٩
مدخل	٢١

القسم الأول

التشبيه

المبحث الأول : طرفا التشبيه	٢٣
تشبيه المعقول بالمحسوس	٢٦
تشبيه المحسوس بالمحسوس	٢٨
تشبيه المعقول بالمعقول	٣٠
تشبيه المحسوس بالمتخيل	٣١
المفرد والمقيد	٣٣
التشبيه المركب	٤٢
المبحث الثاني : وجه الشبه	٦٠

٧٠ المبحث الثالث : أدوات التشبيه

٨٨ حذف الأداة

٩٧ المبحث الرابع : أغراض التشبيه

القسم الثاني

الحقيقة والمجاز

١٠٥

١٠٥ المبحث الأول : الحقيقة

١٠٩ المبحث الثاني : المجاز اللغوي

١٠٩ المجاز المرسل

١٢٧ الاستعارة

١٢٧ الاستعارة التصريحية

١٢٧ الاستعارة التصريحية الأصلية

١٣٣ الاستعارة التصريحية التبعية

١٤٣ التمثيل على سبيل الاستعارة

١٥٧ المثل

١٦٩ الاستعارة بالكناية

١٧٧ التجريد والترشيح

١٧٨ استعارة المحسوس للمعقول

١٨٠ استعارة المحسوس للمحسوس

١٨١ استعارة المعقول للمعقول

١٨٢

القسم الثالث الكناية والتعريض

١٨٣ الكناية
١٩٦ التعريض
٢٠١ التلويح

٢٠٣

القسم الرابع

٢٠٤ أولاً - التأثر في تفسير فتح القدير
٢٢١ ثانياً - منهج الإمام الشوكاني البياني
٢٣٢ الخاتمة
٢٣٦ المصادر والمراجع
٢٤٦ الفهرس